

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

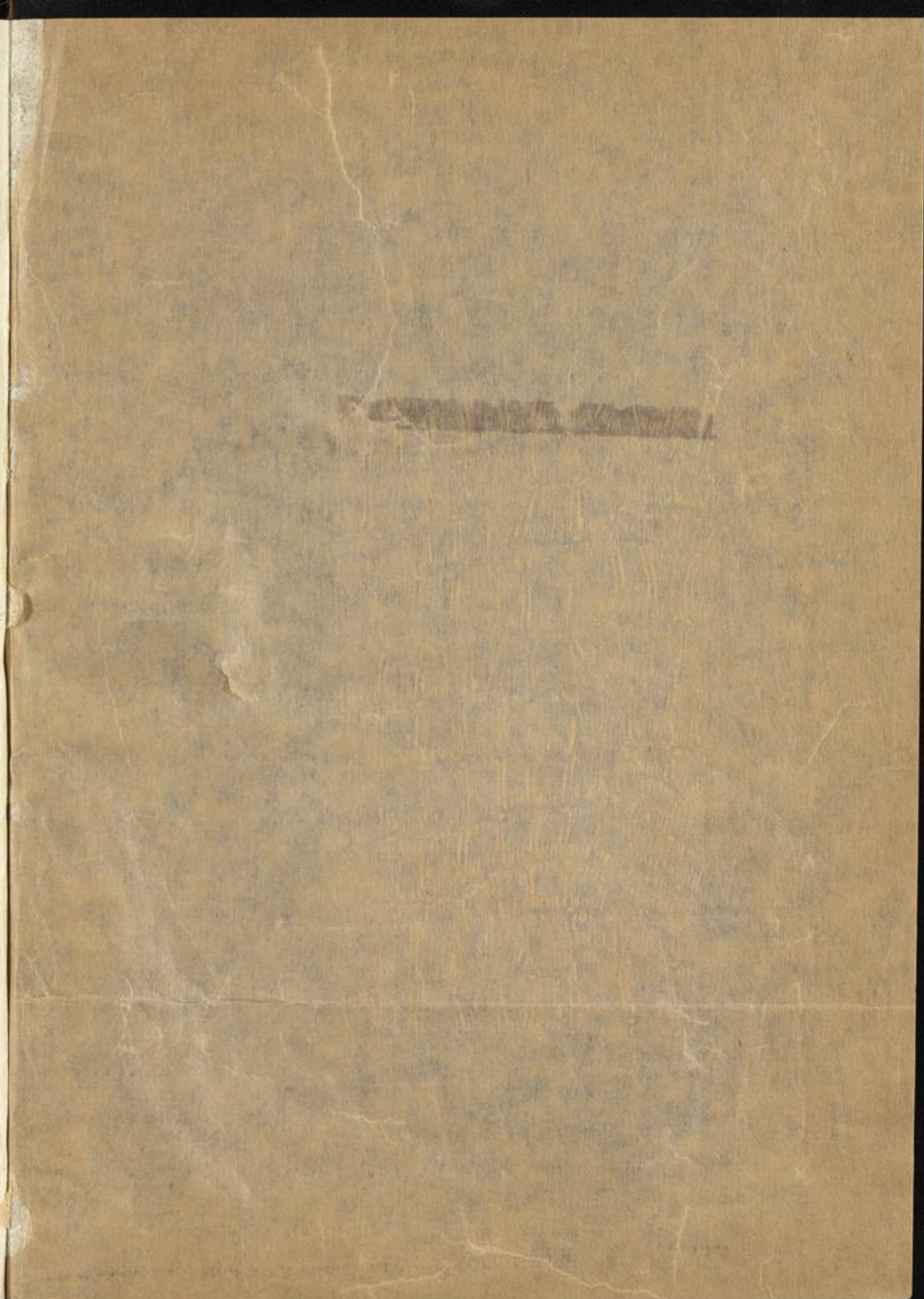


DUE DATE

FEB 15 1993

FEB 15 1993
JUN 02 1993

Printed
in USA



ع

كتاب
خِطَابُ الشَّيْخِ

الجزء الثالث

م

تأليف

محمد زكي عابد

رئيس المجمع العلمي العربي

م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع في مطبعة الترقى بدمشق عام ١٣٤٣ هـ و ١٩٢٥ م

956.9
K 9654

V.3

1592 - 1570
1570
1570

العهد العثماني

« من سنة ١٢٠٠ الى ١٢٤٧ »

—••••—

الجنود أذاه الظلم } كان الشام في هذا القرن مهد القلاقل والثورات ، يقع
والتدمير } الاعداء في الأكثر على المسيحيين والاسرائيليين وأهل
السكينة من فقراء المسلمين . وأكثر الفوضى ناشئة من الجنود الجاهل الذي تمادى في
اللؤم والدناءة الى درجة الوحوش الضارية . ويقسم هذا الجند الى ثلاثة اقسام
الانكشارية والقبوقولي وهما القسمان القويان والقسم الثالث حرس الولاية الخاص
وهو يتألف من المغاربة والترك والارناؤد والدالاتية وغيرهم ، والعداوات
متأصلة بين هذه الاقسام الثلاثة . ولطالما قامت بسبب ذلك فتن بينهم أهرقت فيها
الدماء ووقعت وبلائها على الشعب ، فتنهب أهواله وتغلق حوائطه وتقف الاعمال ،
ولا سيما في الحواضر مثل دمشق وحلب . ولا ينفذ هذه المشاكل الا بتدخل الولاية
او أحد الاعيان ، ويتكرر ذلك ابدآ لان العلة الاولى فيها لم تستأصل فلا يعاقب
الجرمون ولا يحمل الاو باش على حرمة الشريعة . ولذلك كانت شوارع المدن
وأحياءها كثيرة الابواب والارصفة وثقل ايام الثورات ، وساعة الخصاصات والمشاغبات .
واكثر رجال الجندية نفوذاً الانكشارية لكثرتهم وشدتهم وصدافتهم للوالي .
وكان زعماء الجند يلقبون بالاغاوات . ويرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي
ينتمون اليها ، وترسم على أبواب المقاهي اسم الفرقة الذي يختلف اليها وليس لهم نظام
خاص . والحلات تخضع للاغا المقيم فيها وهو يخضع لزعيم الفرقة . ولم تكن تكفيهم

إدرااتهم التي يتناولونها من مال الخزينة لكثرة أتباعهم ، فيضطرون للعمل يذهبون اليه وهم مسلحون ليسهل عليهم الانضمام الى فرقهم متى دعت الحاجة ، ولا شأن للخاملين واهل الفسق الا الاجتماع في المقاهي والحانات ، وإطالة أيدي الأذى على الناس يصادرون أموالهم ويفترسون نساءهم وصبانهم ، وكثيراً ما يقتلون أحد أبناء السبيل لغير سبب كأن يجربوا بنادقهم او سيوفهم في اول من تقع أعينهم عليه .

فتأدى الرعاع في قوتهم وغورهم الى الغاية ، لضعف الحكام وقصورهم عن ردع القوي عن الضعيف ، فنشأت فئة من الناس مسلمين ومسيحين ، اتكأوا في حفظ أنفسهم وأهلهم على انفسهم وشدة بأسهم في الدفاع . وكان القوم يحترمون هؤلاء الأشرار ويخافونهم ، وكان منهم من عرف بالشهامة والشتم بما يغبطون عليه ويخفف ويلات الشرور اللاحقة بالرعايا من اعتداء الجند أحياناً . وبلغ التعصب الديني أقصى شدته في هذا العصر حتى تجاوز القوم فيه حد الافراط ، فيحسب المرء كل من لم يتدين بدينه ممن يجوز له قتله او الاعتداء عليه ، وابتزاز ماله وانتهاك عرضه ، وانتشر هذا الروح حتى عم السواد الاعظم من الناس . قال مشافقة بعد ايراد ما لخصناه : وكان فريق من العلماء وأهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة ولكنهم لم يتوقفوا لردع الرعاع في زمن عمته فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على القوم .

من أجل هذا ساغ لنا ان نستنتج ان البلاد على اختلاف في الدرجات كان أهلها وحكومتها بين ظالم ومظلوم ، يشتد الوالي في إعنات الرعية لسلب أموالهم ويرسل الى العاصمة بالمقرر عليه ، وكثيراً ما يشاكسونه فلا يدفعون المفروض عليهم ، او ينقضون عليه باعزاز بعض أهل النفوذ وقد يكون الحق معه ، والرعايا عرضة لاعتداء الجند وأغواتهم والاعيان وأتباعهم ، تساوى في الظلم المدني والقروي ، وربما كان المدني أكثر تعرضاً للمهالك لقربه من هذه العوامل التي أخذت على نفسها التخريب وتمثيله في مسارح الجهل على ضروره وأشكاله . ظلمات بعضها فوق بعض ، وسلاسل مفرغة من المصائب لا يدرى أين ظرفاها . وليت شعري ما يرجى من عناية دولة بامتها وهي تعطي الوزير ثلاثة أطواخ والأطواخ أذنان خيل فالذنب

معلق من أسنله في رأس عصا وطولها نحو ثلاثة أذرع وشعره مسدول عليها ، فإذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم الى محل نزوله فيستعدون لاستقباله وتهيئة ما يلزمه من المأكول والعلف للدواب وهذا بلا ثمن . واما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير في السفر . ومعنى الاطواخ ان الدولة تحكم البلاد باذئاب خيلها — فانه مشاقفة ونحن نقول ان الدولة التي تبلغ من غرورها هذا المبلغ لا تُنجح في الحكم ويمكن ان يقال للرعية ما قاله علي بن ابي طالب : « والله ان امرأ يمكن عدوه من نفسه ، يعرق لحمه ، ويهشم عظمه ، ويفري جلده ، لعظيم عجزه ، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره » .

وقال جودت في حوادث سنة الف ومائتين : ان وظيفة جابي المال في حلب كانت منذ اربعين سنة مطمح انظار الموظفين في الدولة لانها تأتيهم بثروات اذا جاؤا بها الى الاستانة ينالون بواسطتها رتبة الوزارة ورتبة ميرميران ومن كان منه ذلك احمد باشا فانه أخذ العلم والطوخ واشتهر شهرة عظيمة ، وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشتري بالمزاد ، وكثيراً ما كانت الدولة ترسل بمنشئين يشاركون التركيبين من هؤلاء الجبابرة ، وكثيرون ممن يتولون هذه الوظائف يرحلون بالاموال ينفقونها في شهواتهم حتى يهلكوا فقراً وقهراً ، ولذلك كانت اموال الدولة تبدد ويسرف فيها .

حوادث الجزائر وقتن } بدأ القرن وأهم ورير مسموع الحكمة في الاستانة
الانكشارية وغيرها } قوي الشكينة في ظلم الرعايا بالشام ، احمد باشا
الجزائر ، تولى دمشق بعد ولاية عكا ، وذهب أميراً مع الحج فرفعت الشكوى عليه
من اهل دمشق الى دار الملك فعزل وذهب الى الاستانة فعينه الدولة وزيراً على
صيدا ، وأقام في عكا وحصنها وضبط املاك بيت شهاب في بيروت ورفع ايديهم
عن حكمها ، وأنشأ للنغر ارجحة وسوراً فسُر المسلمون بذلك ، ونُصب على دمشق ابراهيم
دالاتي باشا الكردي سنة احدى ومائتين والف وكانت جسوراً مهيباً فحدث بينه
وبين الاهالي اختلاف وتعصبا عليه وحدثت نذرة فأغلق احمد اغا الزعفراني شيخ
الانكشارية القلعة وقتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل وأراد ان يضرب الوزير ،

نفرج هذا الى حمص وحماة وجمع عسكرياً كثيراً ، وأوعزت الدولة الى الجزار والى الامير يوسف الشهابي ان يعاوناه بعسكرهما ففعلا ، وعاد الوالي الى دمشق فارتاع اهلها وأرسلوا النساء الى الجامع الأموي فكمه أعيان المدينة فاشترط عليهم انه يلتزم الرحمة اذا خرج الزعفرنجي من القلعة وتسلمها رجاله ، ودخل البلد وقتل بعض الاردبياء قيل انهم مئة وخمسون رجلاً من جماعة القلعة ، وكان جاء الوالي في عسكره الى باب الله واجتمع العسكران ووقع قتال فهناك فيه من الفريقين خلق كثير . ومالك الوالي الميدان ، واستمر ذلك مدة والعسكر محيطة بالقلعة حتى سلمت . وأقام هذا الوالي اربع سنين في دمشق ، وذهب امير القلعة الى امير عرب الموالي فاراً من والى دمشق ، فأوعز هذا الى متسلم حماة ان يقنص من عربيه لفسادهم في تلك الارحاء ، فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً قتل منهم نحو الف انسان وانهمزم الباقون . وكان عرب الموالي تاروا هذه السنة في ضواحي حمص وحماة فنهبوا القرى وفتكوا باغوات الدنادشة حكام المدينين منهم وقتلوا كلاً من شيخ بلاد الكابيين وشيخ بلاد النصيرية وعاثوا في تلك الجهات وفتكوا باعيانها .

وفي سنة ١٢٠١ دخل عثمان باشا الى انطاكية ونزل عسكره على الحرير وفعل فيها أفعالا قبيحة واتى ادلب وصادرها وخرّب جميع القرى التي مرّ عليها وما حول ذلك وخرّب الراموسة واشتبك القتال بينه وبين اهل الشيخ سعيد عدة ايام فقتل من عسكره بالطاعون والسلاح عدد كبير ونهب قرى كثيرة في تلك الارحاء ، هذا والطاعون في حلب وارحاءها يفتك فتكاً ذريعاً .

وخرّب القرى وهلك النقرء في فئنة الامير جهجاه الحرفوش (١٢٠٢) وكان قوي على ابراهيم باشا والى دمشق ، وسرت شرارة فئنة الزعفرنجي الى جميع اهل دمشق حتى طلب الوالي عسكراً من جبلي نابلس والشوف ودقت طبول الوالي (١٢٠٣) من دريمة في غرطة دمشق وفرق العساكر ثلاث فرق فدخل عمرانا من الزيتية ، وابنه على صف الجوز ، والوزير على السلطاني ، وأحرقوا القبيبات وحارة التركان ، وجرت الدماء من الصباح الى العصر حتى أطاع اهل دمشق السلطان

عبد الحميد الاول وخرب الوالي القلعة وأهلك متوليها بمدافعه ثمزمة قليلة من عسكر
الوزير وبقية الحرب بين الفريقين ستة ايام بلياليها .

وفي ايام ابراهيم باشا الكردي (١٢٠٣) انتشبت الحرب في وادي أبي عباد فوق
كامد اللوز في البقاع بين عسكر الجزائر وعسكر الشهابيين أمراء لبنان ووادي التيم
انكسر فيها عسكر الجزائر كسرة عظيمة . ووقع بين عسكر الجزائر والحوارة والدروز
في جب جبين قتال انكسر فيه عسكر الامير وقتل منه مقتلة عظيمة ، ثم جمع الامير
يوسف عسكر لبنان وأرسلهم مع سليمان باشا والحوارة الى عين دارة فالتقوا بعسكر
الجزائر في قب الياس فانكسر ايضاً عسكر الامير يوسف وحدثت عدة وقائع بين
عسكر الامير في جزين وعسكر الجزائر في جباع كسر فيها عسكر الامير يوسف .
وكان عسكر الزعفرنجي يعيث خلال ذلك في مرج الغوطة غوطة دمشق ، فيهلك
الفلاحين ولا اهلاك الاوبئة ويرعى رجاله الزروع ولا اكل الجراد .

عهد سليم الثالث } هلك السلطان عبد الحميد الاول سنة ١٢٠٣ وخلفه
وفن وكوائن } السلطان سليم الثالث وكانت أيامه كلها غوائل وفنناً :
استقلت فيها القريم وأصبحت روسيا بما أخذته من بلاد الدولة على البحر الاسود دولة
بحرية مهمة ، وقبل بمعاهدة كوجك فينارجه (١١٨٨) مع روسيا وبها انحط مقام
الدولة ، وحارب روسيا مرتين . وقال مترجموه من الترك انه كان عادلاً حليماً
تجبه رعيته . وقد ذكر بعض مؤرخي العراق ان الايرانيين استولوا على البصرة
وبقيت في أيديهم خمس سنين ولم يبلغه ذلك وموته وزراؤه عليه . فما أحراهم ان
يوهوا في حالة بلاد كالشام لم تخرج عن حكمه الذي دام ست عشرة سنة . ويقول
معاصروه من المؤرخين ان السلطان عبد الحميد الاول كان أخرق للغاية وانه كان
جاذباً وليس فيه من جودة الرأي والحزم والمضاء شيء ، ولم يستطع ان يسفد
من الثورة السياسية والدينية التي نشبت في القافقاس ، ولم يحسن الانتفاع من أسباب
النجاح التي كانت متوقعة من بحر يته وجيشه .

وفي سنة ١٢٠٤ وقعت فننة بين الامير قاسم الحرفوش وابن عمه الامير جهجاه

في سهل أبلح بالبقاع ، فدحر الامير قاسم عسكر الامير بشير الشهابي الكبير فشق عليه فأرسل نجدة أخرى للامير قاسم ، فلما علم ذلك الامير جهجاه هرب سكاك بعليك وأتلف ما فيها ولم ينالوا من جهجاه ، ثم استصرخ الجزار فأمر بان يمد بجيش فأرسل معه عسكر المغاربة والدولة ومشايخ الدروز فانتشبت الحرب بينهم وبين جهجاه فاندحروا وقلق الناس ، ورحل كثير من السكان من تلك الارحاء ، ثم تغلب الامير جهجاه على الامير قاسم . وفي السنة التالية وقعت وقعة بين جهجاه وحاكم بعليك الحاج اسماعيل فانهمز هذا وقتل من رجاله نحو مائتي رجل ولم يقتل من رجال جهجاه احد . وفي سنة ١٢٠٥ أحرقت عساكر الدولة وقيل عسكر الامير بشير حاصبيا واكثر القرى التي حولها .

* * *

مظالم الجزار واختلال
الادارة } تولي احمد باشا الجزار دمشق للمرة الثانية سنة ١٢٠٥
وظل مقبلاً في عكا وارسل متسلمين منهم ارفه اميني
وكان كما قال مشاققة ظالماً قاسياً يشبه استاذه في انشاء المظالم والحوادث الصعبة على المسلمين والنصارى واليهود . وكان الجزار مغتاضاً من اهل دمشق لعرضهم على الدولة مساوئه مما ادى الى نفيته عن عمله سنة احدى ، فاراد الانتقام من الساعين به هذه المرة . وبالحقيقة ان مدة حكم الجزار في دمشق وهي خمس سنين لم يرتح فيها الناس شهراً واحداً من طلب الاموال ظلماً وطرح المعاملة المتصل التي حدثت بها خسائر عظيمة وطرح بضائع متنوعة ، ينهبها من جبات ويطرحها باسعار زائدة على اخرى ، ويس في البلاد صغير ولا كبير الا ويناله الظلم والقهر ، ونزح كثير من السكان وتركوا اوطانهم وعيالهم . سلسلة من المظالم لاحد لها . وكان كل سنة يقتل في قلعة دمشق بدون تحقيق اناساً وقد قتل في احدى السنين مئة وستين رجلاً خنقاً وذلك في ثاني سنة من ولايته . وفي السنة الثالثة قتل نحو ستين وكان كما جاء دمشق مرة في السنة وهو ذاهب ليحج بالناس او آيب منه بعمل هذه الاعمال للارهاب ولم يقف امر المظالم عند حد اوامر الجزار الجنوننة ، بل كانت الفتن في جهات أخرى من الشام على عاداتها في القرون الماضية ، من ذلك انه جرت سنة ١٢٠٦ عدة وقائع بين

الجبل وعسكر الدولة الذين كانوا مع الامير بشير كانت الحرب فيها سجالاً ، واحرقت
عسكر الدولة غريفة وسبت نساء كثيرة واولاداً . واشتد الخصام بين الاميرين
بشير قاسم وحيدر ملثم الشهابيين على الإمارة في لبنان ، وكان الامير بشير تعهد للجزر
بخمسة آلاف كيس على مثل ما تعهد به الامير يوسف ، فاخذ بصادر كل من مالا
الامير يوسف ، ومال الناس الى الامير حيدر للتخلص من الضرائب التي سامهم الامير
بشير دفعها ، وسادت الفتن في اللبنانيين الغربي والشرقي ، وهاجم والي دمشق بعلبك
للانتقام من الامير جهجاه لانه لم يخلد الى السكنية ، وقتل عشرات من الناس في بعلبك
وسغبين وقتل من العسكر اكثر من ذلك .

واختل الامن سنة ١٢٠٦ في جهات عينتاب للفتن القائمة بين الانكشارية
والحكومة والاهالي وأصيب الانكشارية بنهب اموالهم وخراب بيوتهم وهجمت اهالي
حلب على بطال آغا نوري ومحمد اغا وعلى عسكره وحصل بينهما مناوشة ادت الى انهزامه
خارج حلب ، وتوجه الى عينتاب وحاصرها خمسة اشهر الى ان قتل وحمل رأسه
ورأس اربعة وعشرين من العصاة الى الاستانة . قال جودت : وكان هؤلاء الخونة
ينقربون الى رجال الاستانة بالامور الدينية فينصبونهم حكماً في بعض المقاطعات
فيفسدون في الارض ويتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان وتقاوم
الحكومة ولا تبعه في ذلك الا على رجال الدولة .

وفي سنة ١٢٠٦ (١٧٩١) اخرج الجزائر الفرنج من بيروت وبنى السور بحجارة
ابنية الشهابية التي دكها ودك كنائسهم وجعلها اصطبلا . وفي هذه السنة قتل رجل
من اهل بيروت خارج البلد فاغلاقوا الابواب وقبضوا على كل من وجدوه من اهل
الجبل وكانوا نحو ستين رجلاً فقتلهم جميعاً . وحدثني الثقة من اهل بيروت
عن ابيه عن جده ان حكام بيروت المسيحيين اشتدت مظالمهم وعقروهم على المسلمين
فكان الامير يمر في شهر رمضان في المدينة يحملون امامه الغليون للتدخين فينتصب المسلمون
على الاقدام يجيونه فلا يتنازل ان يجيبهم بل يقول الخادم من ورائه : سلم الامير .
فضاقت الحال بالمسلمين فشكوا امرهم الى قائد الاسطول العثماني وكان يأتي كل سنة
ليحمل الاموال المقررة على البلاد فقال لهم : الخطب سهل وهو ان تغلقوا ابواب

المدينة متى رأيتونا اقلعنا بسفننا وتذبحوا النصرارى وبذلك ترتاحون منهم ففعل غوغاء المسلمين وقتل بهذا التدبير الجائر كثير من الاربياء ، وبذلك تبين ان الدولة لم تكن تهتم الالجابيتها فاذا استوفتها فسواء لديها ثقاتل رعاياها ام تصالحوا ، والغالب انها تحبهم ان يكونوا على خصام ابدآ حتى يخلوها الجو وقاعدة « فرق تسد » من اهم قواعدها . وفي سنة ١٢٠٧ وهب الشهابيون الهرمل للامير جهجاه الحرفوش فلم يدع له سكانها فخار بهم وقتل منهم نحو اربعين رجلاً واحرق البلدة وفي سنة ١٢٠٨ قامت الفتن بين الاشراف والانكشارية في حلب دامت عشرين يوماً قتل فيها بعض اهل اليسار والشرف ثم انكسر الاشراف وحصرهم الانكشارية في جامع الاطروش وجرى من القبائح الوان واشكال .

وفي سنة ١٢٠٩ صدر امر الجزار بمصادرة بعض صيارف دمشق من الاسرائيليين فلقوا عنناً وقتل بعضهم وادخل الرعب على ابناء نجاتهم في حبيهم اخص بهم ، ونال مثل ذلك بعض اغنياء الاهالي على اختلاف مذاهبهم ، وبدأ القتل والصلب وقطع المناخير وحبس خلق كثير وجرم الاربياء وهرب الناس هائمين ، وفي هذه السنة غزا عسكر دمشق بعلبك فيرب الامير جهجاه الى رأس بعلبك فاحرق بعض بيوتها وكان رجال الدولة يحاذرون من شيء يقع على الشام بعد ان اعتصم الظاهر عمر بروسيا فقد ذكر (شافى زاده) ان والي صيدا عبدالله باشا كتب الى الدولة بان كنيستي عكا والناصرية وقلعة حيفا كلها مستحكة البناء لانتحلو من محذور فاستنقى السلطان فافتي بان تهدم الكنيسة القديمة والجديدة معاً لثبوت مضرتها ونفذ الحكم وكثيراً ما كان الولاة في العهد العثماني يوجسون خيفة من الديارات والبيع اذا كانت مستحكة البناء فقد اخرج السلطان سليمان النصرارى من ديرهم في سفح جبل بالقرب من قرية البعنة في صفد وكان قديماً يعرف بدير الخضر وامر احمد بن اسد البقاعي من الصوفية بالاقامة فيه مع اولاده .

وفي سنة ١٢١٠ تولى دمشق عبد الله باشا العظم والبلاد في حاله مزعجة وقد دام في ولايته هذه ثلاث سنين وبقي الجزار في عكا وفي هذه السنة وقع القتال بين عسكار اولاد الامير يوسف في جبل وبين الذين كانوا في قلعتها من عسكار الامير بشير

وكسروهم وفي سنة ١٢١١ ارسل عبدالله باشا العظم عسكراً الى البقاع فارسل الامير بشير والجزار والي عكا عسكراً فاللقاهم الجزار واهل البلاد ، ووقع القتال في مندره من قرى البقاع ، فانكسر عسكر دمشق كسرة عظيمة وقتل منه جماعة . ولم يزل عسكر لبنان والهواره مجدداً في آثارهم ان وادي المجدل وغنموا خيلهم وسلاحهم وذهب بعض اللبنانيين واحرقوا البترونة قرب الزبداني . وفي سنة ١٢١٢ توجه والي دمشق الى التفيش كالعادة فلقى الطريق مموكة منافذها من عسكر الجزار فساعت حال رجاله ثم توجه الى جيبين فطمعت البلاد فيه ولم تعطه مال الدورة ، فالحق به الجزار جنده قاصداً قهره وعسكره . فركب وركب العسكر وتوجه نحو عسكر الجزار فدارت بين القريةين حرب انتصر فيها والي دمشق على الجزار ، وقتل الاول من عسكر الثاني خلقاً كثيراً ، ورجع لم يعترضه أحد وقد جمع الاموال الاميرية برمتها . وفيها قامت الانكشارية على اعيان حلب وقتلوا كثيراً منهم حتى كانوا يقتلون السيد وهو يصلي في المحراب ، فعرض الخال على الدولة نجاء شريف باشا واليا على حلب فتمنته الانكشارية من دخولها ، فتعهد بان يكون مسعفاً لم يدخل وانه الاشراف فقوي بأسهم على الانكشارية وبعد ذلك ارسل الى الانكشارية سرّاً ان يثوروا بالسادات فكبسوهم ليلاً وقتلوا منهم مائتين وخمسين نفساً واخذ منهم شريف باشا خمسمائة الف قرش وقدمها للدولة ، وقويت شوكة الانكشارية في حلب .

وفي سنة ١٢١٣ ضرب الجند الدالانية جميع قرى دمشق واكواها واهلها واحرقوا دوابها وصار منهم قتل وسلب — قاله ابن آقبيق : وقال ايضاً في حوادث هذه السنة : انه كثرت الفتن وانحل الحكم حتى بقي اطلاق البارود من القلعة سبعة ايام . وانتشرت الفوضى في الاحياء والبلاد لاحكم فيها لحاكم ولا متسلم وافندية البلد (دمشق) مسجونون عند الباشا في المنجيم وبقي ذلك حتى رحل الباشا ، وبقي عسكره في البلاد يومين وليلتين ، نهبوا في خلالها ما في القرى من مأكول ومنظور وعزم غالب اهلها على الرحيل لما اوقع فيهم الجند من الضرر .

محاولة نابوليون فتح الشام } بينما كانت الفتن الاهلية بين العمال على المال والبلاد
 واستيلاؤه على غزة وبافا } قد ضعفت فيها كل قوة ، والدولة كلما رأت عاملاً
 قوياً تكتفي بان تضع في جواره عاملاً آخر تملي له من قوتها حتى يظل في خصام
 وحرب مع جاره ، والضعف في الادارة ظاهر لكل الظهور ، والناس من الجزار في
 قسم عظيم من بلاد الشام في امر مريب ، والبلاد مفتحة الابواب خالية من اسباب
 الدفاع الا ما كان من اسوار امهات مدنها اتي القائد نابوليون بونايرت الفرنسي مصر
 (١٢١٣) وفتحها « ولما شعر باجتماع الجيوش لمحاربتة وانه ان لم يهاجم الدولة العلية في بلاد
 الشام قبل ان تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الامور وخيمة عليه وان من يحتمل
 مصر لا يكون آمناً عليها الا اذا احتل القطر السوري فلهذه الدواعي عزم بونايرت
 على فتح بلاد الشام وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر الف مقاتل قاصداً الشام من
 طريق العريش » .

ولما بلغ احمد باشا الجزار قدوم الجيش الفرنسي من مصر الى عكا وتلك الديار
 أسرع - على رواية نقولا الترك - بتدبير ما يحتاج اليه في الحصار ، وارسل الى يافا
 العسكر وحصنها بالمدافع والقناير ، وامتد الى مدينة غزة بعساكره وعشائره ووصلت
 جيوشه الى قلعة العريش وأقاموا فيها ونهبت الغز للجهاد . وفي شهر شعبان سنة ١٢١٣
 خرجت العساكر الفرنسية الى مدينة بلبس والصالحية وكتب الى الجنرال كلبير
 ان يتوجه من دمياط في البر على طريق قطية ويكون قائد العساكر الفرنسية .
 ثم ان أمير الجيوش بونايرت بعدما سير العساكر أحضر علماء الدين وغيرهم وقال
 لهم : ان الغز المالك الهاربين مني قد التجؤا الى احمد باشا الجزار فجمع لهم العساكر
 وحضر الى العريش وعزموا على الحضور الى الديار المصرية لاجل خراب البلاد ،
 فلذلك أخذني الغيرة وعزمت ان أسير اليهم بالعساكر وأخرجهم من قلعة العريش ،
 ثم جاء الفرنسيين الى هذه القلعة وكان فيها الف وخمسمائة مقاتل فحاصرها ثمانية ايام ،
 ولما فرغت مؤونتهم وبارودهم أرسلوا يطلبون الامان ، وان يخرجوا من القلعة بغير
 سلاح وبعد ذلك حضر قاسم بك المسكوبي في عسكر ومهات فبلغ امير الجيوش
 وصوله وربطوا عليه الطريق وكبسوه ليلاً وذبحوا عساكره ولم يسلم منهم الا القليل .

وعندئذ امر الجنرال دو كوا قائد مصر ووكيل بونايرت التجار ان تسير بالقوافل الى الشام لينتفع بالكاسب اصحاب التجارة وينتفع سكان الشام ببضائع مصر حسب العادة السابقة . وسار امير الجيوش بالعساكر من قلعة العريش الى خان يونس واستخلص غزوة من الغز عساكر الجزائر فوجد في غزوة حواصل ذخيرة من بقسماط وشعير واربعمائة قنطار بارود واثني عشر مدفعا وحاصلا كبيرا من الخيام وكللا وقنابر فخاز الجميع . ولما بلغ يافا بنى المتاريس امامها وأرسل يطلب الى حاميتها التسليم وكانت نحو ثمانية آلاف فأبت وقتلت الرسول فأدار عليها المدافع وقوي الصدام فقتل من العسكر ما يزيد على خمسة آلاف ومن أهالي البلد الفان وهجم الفرنسيون على المراكب التي في الميناء وأخذوا منها بضاعة ثمينة . ومن الغد أطلق امير الجيوش الأيسرى وأطلق سبيل الشاميين والمصريين وأمر بقتل الهوارة والارناؤد جميعا لان بعضهم كان في قلعة العريش وحين أطلقهم امرهم ان يذهبوا الى بلادهم فأتوا يافا وحاصروا بها فقتلهم جميعا الا بعض انفار من الاغاوات الكبار استبقاهم . ووجد الفرنسيس في قلعة يافا ثمانين مدفعا وغموا غنائم كثيرة من المراكب وغيرها .

* * *

وقائع نابوليون على عكا } ثم ان امير الجيوش سار بالعسكر قاصداً مدينة
وفي مرج ابن عامر } عكا على طريق الجبال ولما وصلوا الى ارض
قاقون كانت عساكر الجزائر والنابلسيون كافة في الوادي الذي هناك ، وحينما بلغهم
قدوم الفرنسيين اخرجوا منهم من في الوادي خمسمائة مقاتل وبدروا يرمحون تجاه
العسكر وكان قصدهم ان يجزؤهم الى ذلك الوادي ، فلما علم امير الجيوش مقصدهم
قسم عساكره اثلاثاً ونشبت الحرب فقتل من عسكر المسلمين وولى الباقون منهزمين ،
ومن الغد سار عسكر الفرنسيين الى وادي الملك وكان بلغ الجزائر قرب الفرنسيين
الى تلك الديار فأرسل الى حينها فأحضر الذخائر الحربية والعسكر ، وعندما وصل
الفرنسيين امام مدينة حيفا خرج أهالي البلد لمقابلتهم وسلموا امير الجيوش مفاتيح البلد
والقلعة ، ودخل الفرنسيين الى حيفا فوجدوا بها قارباً صغيراً فيه جماعة من مراكب
الانكليز فأخذوهم اسرى وبعد ذلك انقل امير الجيوش بالعساكر الى تجاه مدينة

عكا ونصبوا المضارب والخيام في محل يقال له ابو عتبة ، وبنوا المتاريس الحصينة ووضعوا فوقها المدافع وسار الجنرال كليبر والجنرال منو الى الناصرة ونصب حاكم افرنسي على شفا عمرو وبعد اتمام المتاريس ابتدأت الحرب على عكا خامس يوم من شوال سنة ١٢١٣ ودامت اربعاً وعشرين ساعة والجيش الفرنسي يضرب المدافع والقناير والمراكب العثمانية والانكليزية تطلق المدافع من البحر حتى خيل للنظارين والسامعين ان مدينة عكا لم يبق فيها حجر على حجر ، وهمّ الجزار ان يخرج فطمنه الانكليز وقالوا له : اننا امرنا في عرض البحر ثلاثة مراكب مشحونة ذخيرة فضعف امرهم ، ثم اسر الفرنسيين مركبين كانا قادمين من الاستانة فيهما ذخائر ومدافع وستة وثلاثون الف دينار مرسله للجزار فسرّي عن الفرنسيين وحضر الى امير الجيوش قرب عكا الشيخ عباس بن ظاهر العمر وعرض له احواله فرحب به واعطاه السلاح والكسوة وعشرة اكياس وكتب له ان يكون متولياً بلاد ابيه . وحضرا ايضاً مشايخ بني متوال فأعطاهم حكم بلادهم وساروا من عند امير الجيوش الى مدينة صور وقدموا له الذخائر من البلاد وتسلموا القلعة التي كانت لا بائهم .

وكان قد اجتمع من دمشق عسكر المسلمين من مغاربة وهوارة وعربان والغز الذين حضروا مع ابراهيم بك وبلغ جمعهم ثلاثين الف مقاتل بين فارس وراجل فخرجت الى مرج ابن عامر فباغ كليبر قدوم ذلك العسكر فسار اليهم في الف وخمسمائة مقاتل وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع انهزموا امامهم مكيدة لهم ، ولم يزل الفرنسيون في اثرهم حتى وصلوا الى اطراف المرج ومن هناك احاطوا بالفرنساويين من كل جانب ولما راهم القائد كليبر قد احاطوا بالعسكر قسم رجاله اربعة اقسام مع كل قسم منهم مدفع ولما شاهد اهالي الناصرة كثرة جيوش دمشق وان الفرنسيين قائلون جداً بادروا حالاً واخبروا امير الجيوش فأحضر حالاً القائد لتترك (Leture) وأمره بتحضير ثلاثة آلاف عسكري واخذوا معهم اربعة مدافع ، وأمر الجنرال بونايرت ان يسيروا على وادي عبلين وبعد ثلاث ساعات من مسيرهم ركب امير الجيوش وسار ورائهم طالباً اثرهم ، ووصل في منتصف الليل بعسكره الى بئر البدوية وعند الصباح سار بالعسكر الى أن نقد الى مرج ابن عامر

وصعد الى تل عالٍ فكشف أرض المرج ونظر الى الجزائر كلبير في وسط البهداء وعساكر المسلمين محيطة به والعجوم من كل ناحية وليس لهم عليه سلطان ، ثم شاهد جبلاً بعيداً وعليه المضارب والخيام وكان هذا جيش الغز ، فنزل أمير الجيوش وعزل خمسمائة مقاتل ، وأمرهم ان يقصدوا الجبل ويكبسوا الجيش وتوجه قسم منه حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم وأحاطوا بهم ، ولما وصل أمير الجيوش اليهم ضرب مدفعاً واحداً ثم ضرب القسم الثاني ثم الثالث وحينما سمعت العساكر المحاربة المدافع ورأوا قدوم النجدة وعلموا أنهم صاروا في وسطهم ولوا منهزمين ولما أصبح الصباح أرسل خمسمائة جندي الى قرية جينين وأمرهم ان ينهبوها ويحرقوها ثم ان أمير الجيوش أخبر قرى جبل نابلس لانهم لم يطلبوا منه الامان .

ولما بلغ أمير الجيوش قدوم عسكر دمشق الى صفد امرالجزرالمرات (Murat) ان يسير بخمسمائة راكب واتصل بعسكر دمشق شخصه فرحل الى جسر بنات يعقوب وعلمالجزرالمنو وهو في الناصرة ان في مدينة طبرية عسكرالجزرالفتش القتال بينهم فانكسر عسكرالجزرالوانهزم بعد ان قتل منه مائتا جندي وظهر الطاعون في عسكرالفرنسيس فمات منهم خلق كثير . وكانت الحروب قائمة على مدينة عكا الليل والنهار وهم يهجمون على الأسوار والقنابل تنهال عليهم كالمطر ، وقد أهلكوا من العساكر الاسلامية والانكازية خلقاً كثيراً وهدموا أبراج عكا وأسوارها . ولما هلك بعض قوادالفرنسيس على أسوار عكا مع جملة سالحة من جندهم : أبو نابت يرجع الى بلاده لامر طراً على مركزه هناك :

وكانت انكلترا هيبت ملوكالفرنج على فرنسا فاضطرالفرنسيس ان يرجعوا عن عكا بعد ان فقدوا على سورها ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي ، ومات في الطاعون وعلى الطريق ما يزيد على الف . وفي ١١ ذي الحجة امر أمير الجيوش بالقيام بجميع المضارب والخيام وانتقل الى مدينة حيفا وكان فيها عدة حواصل قطن للجزرالقامر باحراقها ومن هناك ساروا الى مدينة يافا فأخذوا ما كان لهم من الامتعة والمدافع الكبار ودفنوها في الرمال وقد كانوا أخذوا من العساكر العثمانية اربعة آلاف بندقية فألقوها في البحر وأحرقوا المراكب التي كانوا غنمها من المسلمين وأخذوا من

فيها اسرى وسخروهم في نقل الجرحى والمرضى من عسكر الفرنسيين يحملونهم على الواح خشب الى مصر .

خطبات نابوليون } هذا ما رواه المؤرخ نقولا الترك في دخول نابوليون
في الشام } جنوب ارض الشام وخروجه منها وما وقع له من
الوقائع المهمة وكانت مدة مقامه في الشام شهرين لم تستفد منها فرنسا سوى قتل
بعض ابنائها ، وكذلك خسرت الشام خسارة الضعيف مع القوي . ونابوليون وان
عوده نابعة القواد في عصره الا انه اخطأ كثيراً في توسعه في فتوحه . وفتح الشام
ومصر من جملة خطباته ، ولم ترج بلاده من حملتها على هذين القطرين الا نشر
مدنيتها على ايدي من استصحبهم نابوليون معه من كبار العلماء والمهندسين والطبوعين ،
وكانت مصر مباءة علمهم وعبريتهم .

وقد أخذ صاحب تاريخ الدولة العلية القائد بونايرت بانه ارتكب قبل مغادرته
يافا امراً شنيعاً لم يسبق في التساريخ وهو امره بقتل جميع الجرحى والمرضى من
عساكره حتى لا يعوقوه في سيره . وفي تاريخ فلسطين : ان جنود الجزائر في يافا يوم
نابوليون كانت مؤلفة من عرب واتراك ومغاربة وارناؤد واكراد وجركس « وبنت
الاسكاف فيه من كل جلد رقعة » فانسحبوا لما فتحها نابوليون الى بعض الخانات وابوا
التسليم قبل ان يؤمنهم على حياتهم فاجابهم القائد الفرنسي الى طلبهم فاستأمن له
اربعة آلاف شخص فساقيهم الى المعسكر ولما رآهم نابوليون سأل قائده عن هذه
الجموع المحتشدة فاخبره انها حامية المدينة التي سلمت اليه اماناً وقبلهم حقناً للدماء
فبهت وحار في امره وقال : ماذا تريدون ان افعل بهذا العدد عندكم زاد يكتمهم
ألكم مراكب لنقلهم الى مصر او فرنسا ومن يتولى خفارتهم اذا ارسلناهم ، يجب ان
تعطوا الامان الى الاطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الاشداء المقاتلين ، ثم استشار
ضباطه في قتلهم بخالفوه ولكنه اصر على رأيه وامر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص في ١٠ آذار
سنة ١٧٩٩ هـ .

الان مشاققة يقول وقبل ان يغادر بونايرت يافا الى عكا امر بقتل الاسرى الذين وقعوا

في قبضته ثلاثاً في العريش وفي غزة وفي يافا ، وكان يطلق سراخهم كل مرة بعد ان يأخذ عليهم العهود ان لا يعودوا الى قتاله ، ولما اسره هذه المرة وعددهم يربو على ثلاثة آلاف حنق عليهم وعلم انهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري ، فامر جنوده باطلاق النار عليهم ولم يواروهم التراب ، وبقيت اجسامهم طعاماً للطيور ، وظلت رفاتهم مكشوفة مدة اربعة اشهر . وهذا السبب معقول وله من القوانين الحربية ما يشفع به بعض الشيء اكثر من الرواية الاولى . وانقد مسترمان على نابوليون ذبحه حامية يافا وكانت مؤلفة من اربعة آلاف ارناؤدي ووضعه السم لجنوده لدن عودته لانهم اصابوا بالطاعون . وفي رواية انه وجد فيها الفين من الاسرى الذين اطلقهم وكانوا عاهدوه في العريش ان لا يجاربهوه فقتلهم والحرب غشوم .

وقال مشافة : ان بونايرت بعسد ان فرق جموع الاتراك على الحدود السورية ارسل كتاباً الى الجزائر ينصح له ان ينجح معه الى السلم فلم يتنازل الجزائر الى اجابته ، فارسل اليه رسولا ثانياً فقتله الجزائر فحنق نابوليون ونقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل الى غزة ، وهزم من رجال الجزائر اربعة آلاف فارس ، واسفرت وقعة يافا عن قتل ثلاثة آلاف من الجنود التركية ، ودخلت رجال نابوليون مدينة يافا ، وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع ، وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي سمح بها نابوليون لرجالها بالتصرف والتمتع بالملغوب واملاكه . وقال الشهابي : ان العساكر الفرنسية حاصرت يافا ثلاثة ايام وملكوها بالسيف ، وكان عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر الفا فما سلم منه الا القليل ، وقتل كثير من النساء والاولاد حتى جرى الدم في اسواق يافا ، وارسلت دمشق عشرين الف جندي الى عكا فالتقاها الف جندي من الفرنج وكسروها وقتلوا منها مقللة عظيمة .

ولما جاءت الاخبار الى دمشق بان عسكر الجزائر وعسكر الانكليز قتلوا من جنود نابوليون ثلاثة آلاف جندي زينت دمشق وضربت المدافع من قلعتها ، وقد اصبحت البلاد التي وقعت فيها تلك الوقائع وماليتها بالخراب ، ومن اهم خرابها تسلط الجند على ضعاف الرعايا فقد نهبت العساكر التي ذهبت من دمشق لمقاتلة الفرنسيين (١٢١٣) مدينة صفد وعملوا المنكرات اثناء ظريقتهم . فاصيبت فلسطين هذه الرة بفواصل كانت سواحل

فينيقية واعمالها تصاب بمثلا او اكثر منها في القرنين الماضيين . ولقد اصحبت مثل هذه الوقائع في هذا الجزء من اقاليم الشام اي في اللبنانيين الغربي والشرقي وماجاورهما من الامور العادية ، وما ذلك الا لقيام امثال بني حمادة وبني معن وبني الحرفوش وبني شهاب ممن كانوا يحاولون ان يظهروا بمظهر كبار الامراء وهم صغار بمواقفهم ونقص تربيتهم الحربية وضعف اخلاقهم وقلة معارفهم ، فكانوا بمقاومتهم بعض المقاومة لعمال الدولة من الترك يخربون ديارهم ، ويهلكون من اخذوا على انفسهم حمايتهم من ضعاف السكان .

حال الشام بعد رحيل
نابوليون عنه } كان يظن بعد رحيل بونابرت ومعاونة الانكليز
للدولة العثمانية على اخراجه من الشام ، ان الدولة
تبدل شيئا من اصول ادارتها وترجع عن استسلامها لعمالها الذين يجيئون الجبايات
ويرضونها بجزء منها ويحتفظون بالباقي لانفسهم . ولكن الاحوال بقيت بحالها ، وظن
الجزائر ننته انه هو الذي دفع جيش نابوليون عن الشام ، فعاد يمثل مظالمه ويحمل على
الناس مغارمه ، ومظالمه لاحقة بالمسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء
وجنونه فنون ربما كان فيه شيء من المعقول وذروا من جودة الادارة ولكن الناس في
حكاه كما قيل :

ذل من يقبض الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام

ولم يكف فلسطين ما حل بها من ظلم الجزائر ثم وقائع بونابرت حتى قام محمد باشا
ابوالمرق يسومها العسف والخسف ، ييجور على اهل بيت المقدس ومدينة الخليل وغزة
والرملة ولد مما لم يقع مثله ، حتى اضطر السادات الاشراف الارباه لكثرة مظالمه ان
يبيعوا اولادهم كما تباع العبيد والجواري على ما ذكر ذلك احمد باشا الجزائر في كتاب
صدر عنه سنة ١٢١٧ الى وكيله في دمشق .

ومن احداث هذا الدور نهب العسكر الدمشقي (١٢١٤) جميع القرى في طريقه
الى غزير في لبنان ، ونفرقت عساكر الدولة في ضياع كسروان ونهبوا كل ما وجدوه
وذلك للضرب على ايدي الامير بشير الذي كان على ما يظهر يسر حسوا في ارتقاء
وتحدثه نفسه ان يأكل الخراج ، ولذلك قاتله جيش الدولة (١٢١٥) مرة اخرى

للمجاة الى نواحي بعبداء في لبنان وقتل من ادركه في المتن ، ورجع الامير بشير الى عاريا وكان عسكر الدولة احرق عدة بيوت من بعبداء والحدث وسبي النساء وقتل العجائز والاولاد فاجتمع معه اربعة وخمسون رأساً من القتل فاسلخوا الى الجزار ونهبوا اموالاً ومواشي واحرقوا عاريا . وذهب والي دمشق سنة ١٢١٧ الى حماة وفتحها بالسيف وبالغ في الظلم حتى فر غالب اهالي حماة عن بلدهم انقاء شهره ، ونفروا في دمشق وحلب وطرابلس واصبحت حماة كالقرية لقلة سكانها .

قال ابن آق بيق : وفي سنة ١٢١٧ شغلت دمشق بالظلم واكرامية الباشا من البلاد واشتغل حسن اغا بالظلم في دمشق وارهاق القرى بالطروحة والاكراميات وفرض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لما اثر في السابق قال : ولما خرج عبد الله باشا العظم من دمشق سنة ١٢١٨ قاصداً الى طرابلس ليحارب اهلهما وضرب عسكره بعض القرى ونهبها وظلوا على هذا التخريب حتى بلغوا طرابلس فحاصرها وخرج اهلهما هائمين على وجوههم ووقع القتال بين عسكره وعسكر المسلم وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان احمد باشا الجزار يرسل النجدات الى عبد الله باشا العظم .

وقال ايضاً : ان الجزار كان يبعث ويطلب من الاغنياء اموالاً طائلة يأخذها منهم بعد الحبس والضرب واشتغل الدمشقيون بالهواجس والوساوس ، وبقي الطرح على جميع الاصناف واغلقت الذكاكين وبات الناس في كرب والعسكر يحيط بالبلد ، والاكراد والشيخ طه الكردي وجنوده يعذبون الخلق أنواع العذاب حتى يقرؤا لهم بالاموال ، والطرح على الخلق اشكل وضروب من بن وثبناك والاجه وحرير وشاشات وزنانير وبيوت وخانات وساتين وعتامنة ووظائف وغير ذلك ، وظهر في دار ابن عقيل وكيل الجزار بدمشق طائر ذهب قدرت بنحو خمسمائة كيس . ولم يكن يمر يوم دون ان يقبض على اربعة او خمسة من ارباب الوجاهة والثروة يستجنون في سجن القلعة ويعذبهم الاكراذ الموفدون من قبل الجزار بالكباشات والحديد والعصي الى ان يشرف المعتذبون على الموت ويشتط الهال في طلب المال من المصادر ين ويطوفون بهم في المدينة ، فيضطرون الى بيع جميع ما يملكون ليكف عنهم ، ووصلت الحال

بالاغنياء الي التسول ، وكان قتل النفوس على الاكثر في سبيل اخذ الممال مشروعاً
كان او غير مشروع . فقد حدثت فتنة طفيفة بين ملتزم اموال بلاد بشارة ، فارسل
الجزار على العصاة عسكرياً قتلوا منهم ما ينيف على ثلثائة رجل واسروا عدة ، وارسلوهم
الى عكا جعلوا على الاوتاد ثم اخذ الجزار من البلاد اموالاً جزيلة .

ومن الحوادث في أيام عبد الله باشا العظم بدمشق ان القبوقول قصدوا إثارة فتنه
(١٢١٤) فأغلق انا القلعة بابها ، وحاصره الباشا فاضطروا الي التسليم بعد مدة ،
فقتل انا القلعة وهمدت الفتنه ، ثم سار عبد الله باشا لمحاربة مصطفى بربر متسلم
طرابلس بنفسه وحاصر قلعتها بشدة ، وطال الامر فالتجأ بربر الي الجزار فسكت ولم
يبيح لانه كان يفاوض الاستانة لاخذ ولاية دمشق ، وبينما الحال مشددة على بربر
وعبد الله باشا يحاصره بعسكره أرسل الجزار الي وكيله بدمشق محمد بن عقيل النفي
جندي وأمره أن يقبض على عبد الرحمن افندي المرادي وحسن آغا دفتر دار المتسلم
وابن شيخ متسلم حمص ويقتلهم حالاً ونادوا باسم الجزار واليسا . فبلغ ذلك عبد الله
باشا وعلم ان الدولة متغيرة عليه ، فخاف كثيراً وهام على وجهه في البادية ينجس عند
العرب . أما بربر طرابلس فرضي عنه الجزار وأقره متسلماً على بلده ، ثم لامت الدولة
الجزار على ما أتاه من قتل ابن المرادي وقتله له كما يقتل العامة فخلص الجزار مما أتاه
والتي تبعه قتله على وكيله ابن عقيل وقطعه إرباً مع ان الجزار هو الذي أمره
خطأً بقتله .

مساوي احكام } توفي الجزار سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) بعد ان ضرب البلاد
الجزار } وأهلها ضربت لم نصب بثلاثها منذ أزمان . أصله بشناق
من جماعة علي بك امير مصر هرب الي الشام لما قُتل مولاه ، وأقام يخنق الي لبنان
فاطاع على أحواله وأحوال البلاد التي كانت تحت حكم الظاهر عمر من بلاد الجليل .
ثم توجه الي الاستانة فعين وزيراً على صيدا اولاً وحصن عكا ورفع عن بيروت حكم
بيت شهاب وضبط أملاكهم . وكان احمد البشناقى هذا جزاراً سفاكاً لانه لما كان
كاشف البحيرة في مصر عهد اليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من مماليك

مصر فأسرف في القتل فلقلب بالجزائر . ولا غرو فالدم البشري في نظر احمد باشا الجزائر ، كدم الخرفان في نظر القصاب والنجار . حاج الماليك على الجزائر مرة يريدون قتله فيما يقال ولولا حذره الشديد لقتل ، وتحصنوا في برج داخل عسكا فطلبوا الامان ، ولما علم ان خيانتهم كانت بالانفاق مع بعض مراربه غضب عليهم جميعاً وخنقهم بالماء الحار . حج الجزائر مرة بالناس فلما عاد تراسى الى سمعه اتهام بماليكه بجرمه فسخط عليهم ، ولم يلبث ان أرسل الماليك في حملة على لبنان واوقد ناراً كبيرة في داره ، فكان خصيائه يأتون به بنسوته واحدة بعد أخرى فيقبض بنفسه على عنق الواحدة ويطحرها في النار على وجهها ، ويدوس على ظهرها ويضغط على رأسها ، حتى يتم شيئها في النار وتهلك فيرفعها ويحضر غيرها ، وعلى هذه الصورة الشنعاء أهلك الجزائر سبعمائة وثلاثين امرأة ولم ينج غير فتاة في الثامنة من عمرها .

كان الجزائر يقتل الكبير والصغير من وزراء واقندية وعلماء واغوات ، ويرضي السلطان بالمال ويدار به فيتغاضي عنه ، وكان اذا عامل احد المغضوب عليهم بالرفق وعزف عن قتله يجذم انفه ، ثم يصلم اذنه اليمنى ثم يقطع عينه اليمنى ولو كان من خواص خدامه . وكم من بيت خر به بسلب ماله ظلماً ، وكم من رجل قتله بعد ان صادره ، وكان لا ذمة له ولا زمام ، خدمه رجال من بيوت معروفة فلما بدا له قتلهم وصادرهم واخلى لهم ذنوباً والقاهم في البحر . ولقد اكرمه كل الاكرام الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان لما كان الجزائر صعلوكاً متشرداً لاول امره في بر الشام وعاونه لما اصبح والياً ، فكانت النتيجة ان شنقه والقاه ثلاثة ايام معلماً ، ولطالما اخذ التوتية والركب في مراكب كانت قادمة من مصر قبل مجي الفرنسيين اليها ، وقتل جميع من فيها من ابناء مصر او الشام وصادر جميع ما يحملون من البضائع .

نفن الجزائر في إهراق الدماء
وحكم المؤرخين عليه
فقبض في دمشق على اولاد السيد عبيد وأولاده ووضعهم في السجن واخذ منهم ستين

الف قرش ففروا الى حلب حالاً ثم قبض على ثلاثين من اتباعه وسجنهم في القلعة ففدوا انفسهم بمائتين وخمسين الف قرش ثم قتلهم ليلاً ، وقبض على خازن امواله واسبابه ونفاه الى مصر ، وقبض على مفتي عكا وامامها وعلى رئيس مينائها فقتلهم صبراً . وظلم جميع اكابر دمشق وسلب اموالهم .

وخرج ذات يوم في عكا قبل الشمس الى باب السراي وامر باغلاق ابواب المدينة وقبض على كثيرين من العمال والكتاب والاهالي فسجنهم ، وكانوا مائتين وثلاثين انساناً وقبض على النواب وسجنهم ، وكان كما تقدم اليه انسان يكشف رأسه وينظر في وجهه فالذي يقول فيه نيشان يرجعونه الى السجن ، والذي يقول ما فيه نيشان يطلق ، ثم انه أحضر الفعلة ايضاً وصنع بهم كذلك وقبض منهم جملة وأحضر التجار وأرباب الصنائع والحمالين وعلى هذا المنوال عامل الجميع فامتلات السجن ، ومن الغد أحضر المغاربة وأمر ان يخرجوا السجناء كلهم خارج البلد ويقتلوا الجميع ففعلوا ما أمرهم به قال مدون وقائمه : وكان يوماً عصبياً لم تكن تسمع فيه الا صراخ المقتولين ظلماً وعو بلهم وأنينهم ، وبقي القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد ، ثم أمر ان ينادي المنادي في شوارع عكا ليخرج أهل القتلى لدفن موتاهم ، وأشار الى ان كل امرأة ترفع صوتها تقتل حالاً ، فخرج الناس ودفنوا القتلى وأصبح الناس في كرب عظيم وخوف زائد . ثم ابتداء يرسل جنوده يقضون على الفلاحين ومشايخ البلاد وأصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله ومنهم من يصلم أذنه ويجدع انفه ويطلقهم .

ولم يذكر المؤرخون علة استرسال الجزائر في قتل الناس على هذه الصورة من غير سبب واعلمه أصيب بمس من الجنون او ان جنونه أطبق هذه المرة فأزهق الارواح ، وان امتاز في جميع أدوار حياته بالسفك والفتك . وذكر المؤرخون ان الجزائر قبيل وفاته أمر ان يفرقوا من كان في سجنه في البحر فنفذ أمره . وفي التاريخ العام ان الجزائر أوقد جذوة النعصب بين المسلمين في بيروت وأغرام بقتل الموارنة حتى يضمن حكمه على بيروت . ولم يكن يُعرف فيما اذا كان الجزائر خادماً مخلصاً للسلطان او عاصياً

وَقَدْ . وكانت كثيراً ما تجيئه رسل جاو يشية ^(١) من الاستانة تحمل اليه بعض الاوامر فيبين رأس القادم وبعث به الى ديوان الاستانة ، وهناك يفتدق الذهب على الوزراء والخصيان ونساء الحرم السلطاني . وكثيراً ما كان يقول وهو في حال السكر لمسيو دي توابس : السلطان كالبنات يعطي نفسه لمن يعطيه اكثر ، فاذا حاول ان يقارمني فأنا ارده الى الصواب بان أشيخ عليه مصر والشام وآسيا الصغرى ، وازحف على الاستانة في جيش « القابسز » واكون قادراً مثل لويس الكبير امبراطور فرنسا .

وقد وصف مشاققة الجزائر وصفاً معقولاً قال فيه : انه كان داهية ذابأس وحنكة واسعة ، سلت اليه الدولة ادارة شؤون اياتها وعولت عليه في اخضاع الشام وضمه تحت جناحها ، على طريقة الغدر والخداع والقاء الفتن والحروب الاهلية بين امراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل انواعاً والظلم اشكالاً ، وشريعة الرجل منهم ارادته السخيفة ، والحاكم يشنق و يقتل و يشوه اخلاق الشعب ، وكان الحال قيضت لم رجلاً كالجزار ينقم منهم ، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الاهلية يكرهون العدل وبعشقون الظلم ، لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ، ولم تكن معاملة الجزائر للامير يوسف اقسى من معاملة هذا الامير لاخوانه وانسابه وان مالقه من الجزار هو مما يستحقه . وقس على الامير بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون اموال الرعية واعراضهم في سبيل اهوائهم .

قال : ان الجزائر ظلم ولكننه خدم الدولة والشعب ، وعادت خدماته على الدولة بالنفع فاخضع البلاد لشوكيتها فاصبحت لها طائفة ، وردعتها بثباته امام نابوليون خطراً كان يهددها يوم حصار عكا ، وافاد الرعية بان ازال عنهم ضغط المشايخ والامراء المستبدين فكان جورهم بالنسبة لجور الامراء والمشايخ قبله اقل وطأة . ولما جاءهم وضع حداً لظلمهم وزعزع سلطتهم وارغم انوفهم واطلق الفلاح من عقالم . وعلى الجملة فانه

(١) الجاويشية في دولة آل عثمان عبارة عن رجل يركب امام السلطان ويسي

بده الدبوس ورتبته عظيمة لانه يخرج من الجاويشية الى ان يكون سنخماً صاحب طبل وعلم ولواء (البوريني) .

عمل بما يوافق عصره وينطبق على ابنائه ، فموتته سرى عن كان غضبه يهددهم ويوشك ان يوقع بهم . وقال : ان الجزائر على فيج اعماله حفظ المساراة بين الرعية مع تفرق مذاهبها ، فيجس علماء المسلمين وقسوس النصارى وحلماي اليهود وعقال الدرروز سوية ، وهكذا في اجراء العذابات البهيمية عليهم لا يفرق بينهم ، واكر ما يحصى عليهم من الذنوب التوقف عن اداء الاموال التي يطلبها منهم وربما نشأ تلوؤهم من عجزهم .

وقال : ان الجزائر كان يتأخر عن دفع الاموال الواجب عليه اداؤها للسلطنة ويعتذر عن الدفع بانه محتاج لتعيين العساكر لادخال لبنان في الطاعة ، فسئمت الدولة من تعللاته الطويلة وكتبوا له اب المدة طالت ويطير انك غير قادر على تمهيدته ، فلذلك صممت الدولة على ارسال وزير مقتدر بعساكر كافية لاختضاع لبنان لسطوتها فكان جوابه اني بعد ايام قليلة ان شاء الله ابشركم بنفحة لانه ظهر عليهم الضعف عن المقاومة ، وقد منعنا وصول الذخائر اليهم من البقاع والسواحل وهم لا يقدرين على العيش بدونها ، لان اراضي الجبل قليلة بالنسبة لسكانه . وبعد مدة وجيزة كتب للدولة بشارة كاذبة مع الساعي بانه فتح الجبل فوجد فيه من السكان النصارى مائة وعشرين الف رجل ومن الدرروز ستين الفا وثلاثين الفا من الشيعة ومثلهم من السنة فاتحفتهم الدولة بسيف مجوهر ومدحته على همته ، وارسلت اليه بعد مدة اوراق جزية النصارى المعتادة وزادوا عليها مائة وعشرين الف ورقة برسم نصارى لبنان ، فسقط في يدالجزار واستدعى المعلم حابيم فارحي مدير خزائنه واستطاعه طلع رأيه في هذه القضية فاجابه يجب الآن دفع هذه القيمة من خزائنتك لما عرضته للدولة عن فتح الجبل وعن عدد النصارى فيه . ثم ننظر في هذه الزيادة فدفع ثمن هذه الاوراق . وبعد اشهر ارسل بشارة للدولة بان نصارى الجبل دخلوا في الاسلام . ولما دخلت السنة الثانية ارسلت الدولة للجزائر اوراق جزية لبنان كالسنة الماضية فارجع الزيادة بقوله : ان نصارى لبنان تقدم العرض عن دخولهم في الاسلام وازنفت عنهم الجزية شرعاً . قال : وهكذا كانت امور الدولة في ذلك العهد تجري بلا تحقيق في صحة ما يعرضه عليها مأموروها .

ولما هلك الجزائر ارسلت الدولة راغب افندي الذي صار والياً على حلب بعد

بعد ذلك لضبط متروكاته ، و كانت قوانين الدولة يومئذ نقضي بان يؤخذ كل ما يخلفه مستخدموها من املاك واموال وامتعة ، فخررت التركة مع سندات الاموال التي كان يجررها على امراء البلاد ومشايخها عدا الاموال الاميرية ، وذلك حين توليتهم وعزلهم قبل استحقاقها ، فحسبت هذه الديون الظالمة من حقوق الدولة ، ولما رأوا انها وافرة وانه من المتعذر تحصيلها جعلوها مقسطة على رعايا بلاد اولئك الامراء والمشايخ على عدة سنين ، فكان لبنان يدفع المال مضاعفاً ، فاللبن الواحد يبلغ اربعمائة كيس وكان يجبي من لبنان مال الجوالي على النصارى ومال فريضة على الدرروز ، فكان القسط الواجب على اللبنانيين اداؤه من مطلوبات الجزار يبلغ مقدار ستة اموال اميرية وصارا لاهالي يدفعون كل سنة مائتين .

ولم يعلم ما خلف الجزار من الاموال بعد حكم تسع وعشرين سنة ولكن الذي قاله المؤرخون ان احد رجاله الشيخ طه الكردي اخذ الف كيس وارسلت الدولة رجلين من الاستانة للبحث عن موجوده ، فما رأوا شيئاً مهماً غير ما كانت ارسله اسمعيل باشا للدولة مع القبطان باشي في اول الامر من مال وتحف ، يقال انها بلغت ثمانية آلاف كيس بيد ان اسمعيل باشا صرف اموالاً كثيرة على العساكر والاغوات ، وعلى كل فهي قليلة بالنسبة لطول عهده ، والغالب انه كان معتدلاً في اخذ المال غير اعتداله في سفك دماء الرجال ، او انه ادخر كميات من الذهب غير ما عثر عليه منها فضاقت عند وكلائه وخواصه .

تناوت قاعدة المبالغة في الثروة والفقير ، والظلم والعدل ، والعلم والجهل ، والقيح والجمال ، اعمال الجزار ايضاً ، ولو كان في قلبه بعض رحمة وعزوف عن سفك الدم الحرام الا بما نقضي به شريعة العقل والنقل ، لعد مصلحاً لعصره قياساً مع الصفات التي اوردها مشافقة . لاجرم ان التبعة في بعض اعماله تعود على عماله ورجاله ، واكثرهم من ابناء البلاد الذين افسدتهم تلك العصور و باؤوا بالنقص والقصور

المتغلبة على الاحكام } خراج الشام بعد هلاك الجزار مقلم الاظفار ، معروف
بعد الجزار } العظام بل مقطوع الاوصال ، سبي الخال ، واحداث

موته فرأى ففقدت به الدولة اعظم قوة تمثلها في هذه الديار ونفس بهلاكه خناق
ارباب المقاطعات المتغلبين من الاعيان وكان في سجن الجزائر في عكا رجل يقال
له اسماعيل باشا ارناؤطي الاصل ، واصله من جملة عساكر الوزير الاعظم حين
حضر الى مصر لاستخلاص مصر من الفرنسيين . ولما قام الفرنج على المسلمين
واخرجوهم من مصر وتشتت العساكر في تلك الاقطار قصد اسماعيل باشا احمد باشا
الجزائر ، فدعاه الى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا ابو المرق فقبض عليه الجزائر
وسجنه وعذبه ، كما كان يفعل بمن يقبض عليه وبقي في سجن الجزائر الى ان خلك هذا ،
نفرج اسماعيل باشا من محبسه وجعل مكاتب الجزائر فاستولى على متروكاته حتى
اضطرت الدولة الى قتاله لعصيانه في قلعة عكا وارسلت عليه حملة ودام الحصار اربعة
اشهر حتى أخذ وقتل فاستراحت الامة من احمد الجزائر ومن خلفه

ان السلاح جميع الناس تحمله ولبس كل ذوات الخلب السبع
وكان اهل وادي التيم عصوا فارسل عليهم اسماعيل باشا جنداً كبس القرى وقتلوا
زهة مائتي قتيل واخذوا مائتي اسير وكبس الامير بشير جنبلاط بعساكر المدروز بعض
قرى عكا وقتل من عسكر ابراهيم باشا جماعة ، وابراهيم باشا هو ابراهيم باشا الحلبي الذي
نصبت له الدولة مرة ثانية على دمشق وكان والياً على حلب . وكان حدث بموت الجزائر
اضطراب وخت دمشق من الاحكام ، فهدد الامور وعهدت اليه الدولة مع ولاية
دمشق بصيدا وطرابلس واوزت الى الامير بشير الشهابي حاكم الجبل ان يكون في طاعة
ابراهيم باشا وعوناً له على اصلاح حال صيدا والساحل ، فصدع والي الجبل بالامر
لانه كان داهية يراعي الدولة ولا يتأخر عن قضاء لبلاناتها ، ولا سيما الخراج والجزية
يؤديهما في اوقاتها .

حازت الدولة غير مرة القبض على مصطفى بربر متسلم طرابلس ولكنه ظل في
منصبه يسوم الناس مظالمه ، وما لبث خصمه اللدود عبد الله باشا العظم ان تولى
دمشق للمرة الثالثة بعد ان كانت الدولة غضبت عليه بوشايات الجزائر وشرده في
البادية ولكنه دعاها الى الرضى عنه وداواها بما تداوى به في العادة باكياس من الذهب .
وخرج عبد الله باشا من دمشق بالحمل (١٢٢٠) فحدثت بينه وبين الوهابيين امور

عظيمة ، وكانوا قد استولوا على الحجاز ونقدموا الى ارض الشام فهلك غالب عسكره وانتهب الحاج .

عين سليمان باشا الكرجي من ممالك الجزائر والياً على عكا فاقام حاكماً على يافا وعلى غزوة محمد اغا ابو نبوت احد ممالك الجزائر ، وبقي حاكماً الى ان طمع بالاستقلال فيها ، وعندما تحقق سليمان باشا ذلك ركب عليه بالعسكر فيهرب الى مصر ثم الى الاستانة وشفع فيه الشافعون فنال رتبة الوزارة . وسليمان باشا هو الذي اراد ان يرفع بعض المظالم عن الرعايا ويحملها على الاجانب كان يبيع الغلات والقطن والزيت من الاجانب فقط ، وفي نفس عكا خاصة بتبائع الحكومة ما يفضل عن عوز الاملين وتحزنه في مخازن لما تبعه من التجار الاجانب القادمين في مراكبهم بالاسعار التي تريدها .

ومن الاحداث في سنة ١٢٢١ ما حدث من فتنه بين عسكر الوطنيين (البرلية) و (القبوقول) في دمشق ، فحاصرت القلعة وأغلقت المدينة كلها ، ووضعت المتاريس داخل المدينة ، وجرت بين العسكرين حرب المتاريس في الأزقة والشوارع والسطوح والاسواق والمآذن فغلب البرلية القبوقول وكسروهم وهزموهم الى ما ذنة اشتم ثم ارتدوا عليهم واخذوا طالع الفضة ، ونهب الخلق تلك الجهة كلها ، وراح القبوقول مكسورين ثم عادوا وكسروا البرلية عند الشيخ عمود فنال الفريقان احدهما من الآخر على غير طائل . ولم يقف شقاء دمشق عند حد القتال بين الجند بل أسرف الوالي كنج يوسف باشا (١٢٢٢) في ظلم الناس وأراد ستر ذنوبه فأرسل الى الدولة الف كيس من المالك لانعامها عليه بإمارة الحج وإيالة طرابلس مع ولاية دمشق وذهب الى بلاد نابلس وقهر أهلها وجبي منهم أموالاً عظيمة ثم ذهب الى بلاد النصارى بين وقتلهم وانصر عليهم وسبي نساءهم وأولادهم ، وكان خيرهم بين الدخول في الاسلام والخروج من بلادهم فامنعوا وحاربوا وخذلوا ، وبيعت نساؤهم وأولادهم ، فلما شاعدها ذلك أظفروا الاسلام فعنا عنهم وتركهم في بلادهم بعد ان حاربهم شرين ونهب قراهم ، ثم رحل الى طرابلس ليقبض على مصطفى بربر متسلها ، فتحصن هذا في القلعة فوقع القتال ، وكانت الحصار احد عشر شهراً وطرابلس خلال هذه المدة خالية من سكانها وقد جمعوا في الخانات سلهم ومتاعهم وماعونهم ، ثم دخل يوسف باشا البلد

وأطلق لسكره الاكراد والارناؤد وغيرهم النهب فلم يبقوا على شيء فيها وأنزل عسكره في الدور فغربوها باخذ خشبها للدفع والوقود . وتوسط سليمان باشا والي صيدا عند الدولة فعفت عن مصطفى بربر وتسلم يوسف باشا القلعة . وأصل مصطفى بربر من قرية القلمون من عمل طرابلس وكان لاول امره من خدام الامير حسن اخي الامير بشير فتوصل بذكائه وشجاعته الى المناصب العالية وحاز اعتبار الوزراء وخشية الرعية .

لولا زمان خون في تصرفه ودولة ظلمت ما كنت انسانا

قتل سليم الثالث ومصطفى }
الرابع وتولي محمود الثاني }
وخلع في غضون سنة ١٢٢١ السلطان سليم الثالث بيد الانكشارية وقتل لانه اراد ان ينفذ خطة في اصلاح الإدارة على الرغم من حروبه مع روسيا والنمسا وغيرهما من دول الغرب ، وينشيء عسكراً جديداً يستعاض به عن الانكشارية ، وكان هذا السلطان واسع النظر لكن الدهر خانه فلم يقدر ان يطبق اصلاحه ، وكان اراد ان يخفق علم التمدن الاوربي فوق بلاده « فاستدعى اليه من فرنسا ضباطاً ومهندسين ورجالاً لم اضطلاع عظيم في فن الصناعة فبعث اليه العدد الكثير من ذلك » وتولى مكانه السلطان مصطفى الرابع فالغى جميع خطط الاصلاح ، ولكنه قتل كما قتل سلفه السلطان سليم ولم يطل عهده اكثر من اربعة عشر شهراً ، وخلفه السلطان محمود الثاني (١٢٢٣) مثبعا بروح اصلاح السلطان سليم الثالث ، يريد اخراج الدولة من سباتها ، ومعقداً انه لا سبيل الى نجاحها الا بايجاد قوة لها من غير عسكر الانكشارية الذين عراهم الانحلال منذ مئة سنة ، وأصبحوا يقتلون الملوك والوزراء ويخونون الدولة في ساحات الوغى ، ويعيثون بشغبهم ومؤامراتهم بكيان الدولة ، وذاهباً الى ان من جملة الاسباب في بقاء الدولة ان يقلد الفرنج في مناحيهم وعاداتهم . وهو الذي لبس الطربوش والالبسة الغربية . واخذ يقيم الحفلات والمراقص وحفلات السماع على الطريقة الاوربية .

وفي سنة ١٢٢٣ مرة ببلاد النصير بين طيب انكازي فقتله الزاع هناك ،

فصدرت الاوامر بالقبض على القتلة فأرسل سليمان باشا والي صيدا عسكرياً بزعامة مصطفى بربر فاختسح بلادهم وقتل سبعين رجلاً من كبارهم ، وحشى رؤوسهم تنسياً وبعث بها الى الباشا ، ثم امنع النصيرية عن اداء المال فأرسل عليهم مصطفى بربر فنكل بهم وقتل خمسة واربعين من رجالاتهم فأخذوا الى الطاعة . وكان من مقتل الطيب وسيلة الى الغارة على ضعاف الرعايا في زمن اصبح فيه شتى الغارات صناعة يحترفها أناس مخصوصون في خدمة متغلب من المتغلبين . واذا ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك .

وفي سنة ١٢٢٤ قوي الاختلاف بين والي دمشق وابن الشهابي وابن جنبلاط وكانا استوليا بالقوة على املاك عظيمة من الفلاحين في البقاع فلم يزرع احد في تلك الارحاء . وكان الوهابيون جماعة ابن سعود قد استولوا خلال هذه المدة على التجاز واخذوا يجاذبون عمال الدولة حبل السلطة في الجهات التي بين التجاز والشام . وذكر بعض المؤرخين واظنه بالغ في روايته انهم ارتكبوا في بلاد حوران سنة ١٢٢٥ افعالاً بربرية من سبي النساء وقتل الاطفال ونهب الاموال واحراق المنازل والغلال حتى قيل انهم أنفخوا في تلك البلاد نحو ثلاثة آلاف درهم . وساق والي دمشق يوسف باشا حملة على مصطفى بربر متسلم طرابلس واستنجد بالامير بشير الشهابي حاكم لبنان فلم يجده معتذراً بفتن النصيرية والاسماعيلية وان الجند اللبناني مضطرا الى ان يرابط في الجبل فنال والي دمشق من متغلب طرابلس بالاجاعة وطول الحصار .

صدر الامر السلطاني في سنة ١٢٢٥ الى سليمان
 فننه كنج يوسف باشا }
 باشا والي صيدا ان يقتل والي دمشق كنج يوسف
 باشا ويصادر امواله . لان يوسف باشا عجز عن سوق قوة لقتال ابن سعود ورأى
 كما قال جودت ، اشتغال الدولة بمشاكلها الداخلية والخارجية فرصة لادخار المال ،
 واكثر من الاعتداء على الاهلين وظلمهم ، واختلس زيادة على هذا اموالاً كثيرة
 من مرتبات الحج . ومما قاله السلطان لوالي صيدا في امره الصادر بهذا الشأن : اني
 آمل منك صداقة وحسن خدمة لانك تربية الغازي الجزار احمد باشا حتى لا يقال

ان هذا راح ولم يخلف انساناً ! . ومعنى ذلك ان الدولة كانت راضية عن الجزار اذا ذكرته تذكره بانه مثال رجالها الأمانة ، وما ذلك الا لانه كان يؤدي لها الخراج في الجلمة ويقائل اعداءها ويرشي جماعة الاستانة بالمال على الدوام . اما سوء سيرته في الرعية وظلمهم ونقتيلهم فهذا لا ينقص بزعمها قدر الرجل ، بل يجب على العمال ان ينقلوا مثاله .

ولما جاء سليمان باشا في جند من الدروز وغيرهم لاخذ دمشق من كنج يوسف باشا تعصب الدمشقيون لوالدهم القديم ، ووقع القتال في ارض الجديدة ودار يامن ادنى قرى وادي الحمم ، فانهمز الدمشقيون وظفر العسكر اللبناني والعكاوي وقتل كثير من الدمشقيين . وفي هذه الواقعة يقول المعلم نقولا اترك في مدح الامير بشير :

وخاض غمار الحرب تحمل خلفه ثلاثة آلاف تصول وتخطر

فلاقته فرسان المنايا مغيرة ننادي على الباغين الله اكبر

ونار الوغى والسيف قد قارع القنا وغطى الثريقين الغبار المكدر

فولى على اعقابه كل ظالم وفي سهل داريا الاعادي تقهقروا

وكم من سراياهم ترامت جماجم كاوران اشجار على الارض نشتر

وكان والي دمشق القديم قد جمع امواله فبلغت كما قيل اثني عشر صندوقاً من الذهب وعشرة احمال من الفضة ، فتعرض بعض الجند لجماعته اثناء خروجه ليلاً من باب الهواء في السراي ، فأفلت هو ووقع المال في ايدي الجند والعامه ، فنناسموه واغنى أناس من هذه الغارة على أموال الوالي التي سببت نكبه ، وجمعها من أموال الدولة ودماء الامة ، وتوجه يوسف باشا كنج الى مصر فتوسط له محمد علي الكبير بالعمو ثم بعثت الدولة بعض رجالها فضبطوا ما خلفه الوالي السابق من الاموال في دمشق بعد ان نهب ما نهب ، فكانت نحو ثمانية آلاف كيس من صافي الصابون وبعض اشياء كان يقجر بها . من يزرع الشوك لا يحصد به عنياً .

سليمان باشا وامراء راشيا } وعدة مشاققة من حسنات سليمان باشا ضمه اقليم
وكواثن حلب } البلان الى ولاية دمشق بعد ان كان مستقلاً

تحت لواء امراء راشيا الشهابيين قال: وذلك لان حكام ذلك الاقليم مستبدون وكانت الامالي نقاسي عناباً وجوراً لا يطاقان ، والامراء يدفعون عن الاقليم مالا معلوماً لحفظ استقلالهم به وراشيا معاً ، والحكومة مشطورة مع الاهالي الى شطرين حزب يناصر الامير فندي وآخر الامير منصوراً ، وكان كل واحد منها يراقب الآخر ويترصده الفرص ليفتك به ، فيمنح كل منها بالطبع الى عصابة ومال وحاشية . وقد اتنى مشافة على سليمان باشا وقال : انه خدم الدولة والرعية خمسة عشر عاماً بالعدل والامانة ، وكان الاسف عليه عاماً حتى شعرت الدولة بفقدته (١٨١٩ م) وقال : لما سلبت بلاد بشارة من ايدي مشايخها كثرت التعديات واضطرت حكومة صيدا الى وضع عساكر كثيرة ، فلما جاء سليمان باشا الكرجي والياً على عكا اقتصر على مائتي جندي من المشاة وخمسمائة فارس واربعائة خيال من الهوارة يتبعهم مشاة ضبطية في باب السراي وجماعة المدفعين على اسوار المدينة وأقام في كل بلدة من المدفعين والضابطه كفايتها .

وسليمان باشا من مماليك الجزائر اشترك مع سليم باشا في حرب الجزائر ولما افسد هذا العسكر على باب عكا هرب سليم باشا وسليمان باشا ، الا ان هذا عاد الى مولاه تائباً فوجه عليه متسليمة صيدا . وكان سليمان باشا هذا لا يسمع وشاية ويحبي من يعينهم من جماعته ولا يسمع فيهم كلاماً ، واذا عين احدهم لا يرفعه معها وقعت عليه من الشكاوي ، واذا توفي احد خدامه مسلماً كان او مسيحياً يضع ولده مكانه ان كان له ولد ويجري عليه رزقه وان كان لا ولد له يدر راتباً على عياله ، وكان يعطي كل واحد من خدامه اباه على حسب حاله من القرش الى العشرة قروش كل يوم ، وهذا لا كبر ما يكون من ارباب الوظائف . قال العورا مدون وقائعه : وكان عنده لما مات ٢٢ «دعبولة» في كل دعبولة الف كيس ريال فرنسا (كل ريال باربعة قروش) عدا ما كان تحت يد صرافه حابيم واخيه موسى وهو يربو على اثني عشر الف كيس وعدا الديون التي للخرينة على تجار عكا وبيروت وما عند حريمه من الجواهر والتحف وخلا ما عنده من الغلات والكراع .

هذا الرجل الذي خلف هذه الثروة وما ذلك بالامر المستنكر على ولادة عصره ،

كان يتبجح بكلام العاديين والمصلحين مع افراد من حاشيته ومن يغشون مجلسه ، ليدل على حبه لاحقاق الحق وزهده في حطام الدنيا . شنشنة معروفة في بعض من يتولون امور الناس في هذه الديار يبرؤن انفسهم من حب الدنيا وهم سراق منظمون ، ويستحلون في السر كل كبيرة وفي جهرم اعنة اتقياء . هذا الرجل قال لوكيله وصرافه حابيم و كاتبه حنا العورا يوم استولى على دمشق وخلصها من يوسف كنج باشا : انا قضيت حياة رأيت فيها الحلو والمر ، فاذا اردتم ان تتخدموني بالصدقة فانا اشترط عليكم ان لا تظلموا احداً ، فلا أريد الظلم ولا اذية أحد ولا خراب بيت احد . ولا عيني بمال احد ، واريد ما امكن سد باب الظلم ، وليس لي حاجة في غير لقمه خبز طبية وحصان مليح و«جوبق» دخان والكسوة الاعتيادية وامرأة واحدة ولست آذن ولا ارخص لاحد منكم ان يجمع لي مال عباد الله بالظلم ولا بالخطف ولا بالحيلة ولا بوجه من الوجوه ، ولا اريد الا اخذ الاموال المرتبة بامر السلطان فقط ولا اشكر من يسعى لي بجلب الاموال من غير حلها بل اغضب عليه ، وهاء نذا اشهد الله وملائكته ورسوله عليّ و عليكم بهذا جميعه ، وانا بريء الذمة من كل ما نفعولونه في هذه الدنيا وفي الآخرة ، فهل تقبلون بشرطي هذا كي اسلمكم زمام اموري واريج فكري ، فاجابوه : نعم قبلنا وسمعنا واطعنا فحينئذ قال لهم : وانا سلتكم مصلحتي بتماها تصرفوا بها بحسب صداقتكم ، وقد توكلت على الله وهو نعم الوكيل . كلام اشبه بكلام عمر بن عبد العزيز لاناس من حاشيته من زهاد التابعين وتابعي التابعين !

وفي سنة ١٢٢٦ حدثت فتنه بين الدروز القاطنين في الجبل الاعلى من عمل حلب وبين اهالي تلك البلاد وجرت بينهم وقائع كثيرة فانفق جميع اهل تلك الاطراف فارسلوا يستشفعون بالامير بشير فكتب الى حكام حلب ، وارسل مباشرين لاحضار الدروز من هناك وكانوا اربعمائة بيت واعطاهم مئة الف درهم لمعايشهم ، وفيها زاد ظلم محمد سعيد متولي جبل ريحا من عمل حلب ، والطبل علي ضابط جسر الشغرة ، وافسدا النظام فارسلت عليهما الدولة جيشاً نقانلها فانهرما .
وكثيراً ما كان يجرى الخلاف في دمشق بين اغا القلعة والوالي فيعتصم الاغا وجماعته في القلعة ويشرع باطلاق الرصاص والبارود والمدافع على جماعة الوالي ويصيب

الاهالي من ذلك خطوط جسيمة كما وقع سنة ١٢٢٧ فاخذ عسكر الوالي يحيط بالقلعة و يطلق من المآذن المجاورة النار عليها والجنود يطلقون النيران ، ودام ضرب المدافع والحصار الشديد ليلاً ونهاراً بلا فتور ، وقتل اناس خارج القلعة واحترقت بعض الاماكن ، ثم وضع عسكر الوالي سلام ودخلوا القلعة من سورها وجرت المذبحة بين المحاصرين والمحصورين ونهب عسكر الوالي القلعة ، وكان من يذهب قتلاً من الجند على نسبة من يقتل من الرعية . والقلاع آية البلاء على الرعية ولا ينفع بها عند الاقتضاء الا الوالي او المتغلب انتفاعاً مؤقتاً .

ومن الولاة الذين ملأوا حلب وارجاءها ظلاماً جبار زاده جلال الدين باشا (١٢٢٧) كان مثلاً في المصادرات وقتل من يأبى اعطاء المال ولا يكاد يمضي يوم الا ويقتل انساناً وقد احتال على ثمانية عشر شخصاً من رؤساء الانكشارية في حلب وأهلكهم فسكنت الفتن قليلاً وقطع من اوصال الانكشارية وقبض على القيادة بشدته وفلة ذمته في اهراق الدماء . وروى في اعلام النبلاء ان ابن جبار او (جبان) هذا عين اثنين يتجسس ان اخبار الناس الذين تجب مصادرتهم فكان يرسل من طرفه اثنين حاملين بلطة بأتيان بن ييج مصادرتهم ، فيزج في الحبس ويوضع في رقبته سلسلة لها شوكة ، ثم يطالب بما قرر عليه وهو جرم او جرمان ، والجرم اربعون كيساً والكيس خمسمائة قرش ، فمن لم يدفع الجرم في ثلاثة ايام يخنق ويرمي تجاه باب القلعة ، وكلما خنقوا واحداً أطلقوا مدفعاً فكان يعلم عدد الخنوقين في الليلة من عدد المدافع ، وكان الوالي اذا اراد النزول الى السوق امر فزيت له الاسواق نهاراً فينزل ومعه « البلطجية » والمساكر عن يمينه وشماله فيدور في الأسواق ، ومتى ادار وجهه الى رجل فان البلطجية يأتون ويضربون رقبة صاحب ذلك الخانوت ، يفعل ذلك بثلاثة او اربعة اشخاص ثم يعود ، ولما تكرر منه هذا العمل الفظيع سأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء وما ذنبهم فكان يقول : لا ذنب لهم غير اني اقصد إرهاب الناس . وتعذبه الناس واخذهم بالتمه الباطلة من المأثور عنه المشهور به .

وجاء بعده خورشيد باشا وكان يصلي و يصوم لكن اتباعه يفعلون كل كبيرة وهو

عنهم ساكت ، وحدث ان الاهالي هجموا على دار رئيس دائرته سليمان بك وقتلوه وحمولوا
سائر اتباعه بما عندهم من ادوات الفحش والخمر الى القاضي فعد الوالي ذلك نشوزاً على
السلطنة من اهل حلب فاستدعى عسكرياً فجاءته جملة مستكثرة منهم ، ف وقعت وقعة
بين العسكر والعصاة في محلة قسطل الحرامي (١٢٣٥) فانكسر العصاة وهاجم العسكر
البلدة واخذوا يطلقون المدافع على اسوارها فغربوا جانباً منه ودام الحصار ١١١ يوماً
وجرى القتال داخل البلد في الشوارع والاسواق ، وكان القتال سجالاً بينهم الى ان
فر العصاة من الاهالي ودخل الولاية مع مامعهم من العسكر واحتلوا البلدة وقتلوا سبعة
من كبار العصاة وارسلوا برؤوسهم الى الاستانة . وقد قال الاهالي : انهم ناروا لشدة
ما كانوا يلقونه من العنف وما كانوا ينوون تحته من ضربة اللور التي ضربت عليهم
في سنة قحط وغلاء ، وقد قتل بالطبع من الثائرين والاهالي والجند مئات . والشاة
المذبوحة لا تألم السليخ .

تولى دمشق سنة ١٢٣٢ صالح الكوسا باشا « وكان عادلاً حليماً فهاً » ورافت
البلاد في ايامه ولم يحدث فيها الا نشوز عرب فليجان فارس عليهم جنداً فمحصنوا في
الحياة فقتلهم العرب ولم يسلم من الجند الا القليل ، وبعد سنتين تولى دمشق سليمان
باشا وكان عادلاً الا انه محب للمال . وذكر جودت ان جماعة من الحشاشين والاشقياء
(١٢٣٥) اخاروا بالامن في مدينة حلب حتى كان الولاية يضطرون ان ينزلوا خارج
البلد في مكان اسمه الشيخ بكير وانه لم يمض على الثانية عشر شقياً الذين كانت قتلهم
بالخدة جلال الدين باشا جبار واليهما ، حتى عاد الاشقياء فكثروا وارادوا القيام بشورة ،
فتدارك الوالي الامر باستدعاء الجنود الكثيرة ، وحسم هذه النازلة قال بعد ان
ذكر اربعة ابرياء قتلوا في حلب بدلاً من اربعة مجرمين بواسطة احد الاعيان :
كان على ذلك العهد بين اعيان البلاد ووجوهها كثير من الاردياء الاشرار ، وهذه
الحالة لم تكن خاصة بالاستانة ولا بالولايات ، وكان قتل الانسان في سهولته كقطع لحم
الدجاج ، حتى حدث مرة ان الاراجيف كثرت في الاستانة وبنما كان مجلس الوكلاء
ينظر في طريقة لحسم مادتها قال حالت افندي على ما اشتهر : ان احسن طريقة ان
يقطع رأس الحلاق المقيم في « اوغبلر باشي » وبذلك يحدث للناس خوف ودهشة

وإنقطع مادة الاراجيف فقال له احد الحضور : عفواً ان هذا حلاقي فقال حالت
افندي : ليس هذا الذي اردت ان اضرب عنقه بل الحلاق الذي يسكن في الطرف
الآخر وبذلك يحصل التقصود . قال وبالجملة فقد كثر في تلك الايام في الاستانة
وخارجها من اسودت فلوبهم وقست افئدتهم من الناس ، وكانت الادارة من كل
وجه مختلة بحيث لا يتيسر وصفها ولم يبق من وسيلة الاتجديد الاصول واصلاح
امور الدولة وتظيمها ، وقد نال هذا الشرف والي مصر محمد علي باشا والنضل
للمتقدم اه . وهذا كلام مؤرخ رسمي يكتب للسلطنة والحقيقة ان حالة البلاد كانت
اسوأ مما وصفها به .

* * *

وقعة المزة واستسلام } تولى دمشق سنة ١٢٣٥ درو يش باشا ، وفي ايامه
الدولة لوالي عكا } اعندى جماعته على مزارع ابن شهاب وابن جنبلط
في البقاع فاضطر والي الجبل الى ارسال جند لمحاربتهم ، وارسل والي عكا جنداً
لمعارنته على والي دمشق ، وجمع هذا عسكره ووقع القتال فانصر والي الجبل على والي
دمشق ، وبشت الدولة والي حلب للنظر في هذه الفتنه بين الولاة ، فرأى ان السبب في
ذلك عبد الله باشا والي عكا ، فحاصره والي حلب في عكا على غير طائل ، ثم عزل
درو يش باشا عن ايا التي دمشق وصيدا وعفي عن عبد الله باشا ، وهلك جمهور من
الجند والناس في هذه الفتن التي كان منشأها فيما قيل دسيسة من بعض الاسرائيليين
هلك احد انسابهم ونقروا من درو يش باشا فأثروا فيه . وذكر الشهابي في هذه الوقعة
المعروفة بوقعة المزة لان هذه القرية حرقت فيها ، ان عبد الله باشا استمال بعض
مشايخ جبل نابلس ووقعت الفتنه بين اعالي تلك البلاد فانقسموا فنتبين ووقع القتال بينهم ،
وقالوا ان سبب هذه الفتنه ان درو يش باشا كان يريد استلام عكا من عبد الله باشا
واليها بامر الدولة فتشيع الامير بشير الشهابي لوالي عكا ، وسار في عسكره من المشاة والفرسان
من اهل الشوف والمناصف والمنتن ، وعسكر عبد الله باشا في الدالاتية والهواره ، وجعلوا
مصافهم من كوكب الى المعظمية من ادنى قرى وادي العجم ، وخرج درو يش باشا
الى المزة فاقبل الامير بشير ، فلما علم عسكر درو يش باشا بقدمه تحصنوا للحصار ،

وانتسب القتال بين الطرفين واطلقت عساكر دمشق المدافع والزنبركات اية المدافع الصغيرة ، فهجم الامير بعسكره هجمة واحدة وهدم اسوار البلدة ، وكانت مبنية باللبن وامتلكها ، ففرت عساكر دمشق وقد قتل منهم نحو مائتين وخمسين رجلاً واخذوا منهم خمسمائة اسير ، وغنم عسكر الامير خياماً وذخائر وخيلاً وسلاحاً ، ورجع الى المعظمية وبلغت اسرى عسكر دمشق من اهلها ٣٧٤ رجلاً عدا من قطعوا رؤوسهم . ومضت عدة ايام وفي نهر بردى تطفو الزرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم الف رجل ومائتي رجل بين قتيل وجريح ، وقتل من عسكر عكا نحو سبعين رجلاً . وانتسب القتال بين الامير خليل بن الامير بشير وبين فيزوا باشا احد اتباع والي دمشق وهو قادم من نابلس في قرية مرجانة فقبض عسكر عبد الله باشا على مائة وخمسين اسيراً وقطعوا خمسة وعشرين رأساً وانهمزم فيزوا باشا الى دمشق .

وأرادت الدولة ان تضرب على يد عبد الله باشا (١٢٣٧) والي عكا فأمدت والي دمشق بوالي حلب واذنة ليتعاونوا على ضرب والي عكا وقد تحصن فيها بالني جندي ، فحاصره الولاة المذكورون تسعة أشهر فلم يستطيعوا الاستيلاء على عكا مع انهم كانوا في ستة عشر الف جندي . ولما عجزت الدولة عن أخذ عكا من عبد الله باشا واصبح في يده معظم القطر الشامي حقيقة رتب عليه خمسة وعشرين الف كيس وهي تساوي نحو نصف مليون ليرة ، وذلك بدل نفقات عسكرها في حصار عكا ، وكان عبد الله باشا يوقع كتاباته هكذا « امير الحاج السيد عبد الله والي الشام وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزرة ويافا ونابلس وسنجاق القدس الشريف حالاً » .

تولى دمشق مصطفى باشا (١٢٣٧) وفي	} سياسة الامير بشير مع ارباب السكينة في لبنان وتقاتل الولاة وارتباك الدولة
أيامه حدثت فتنة بين الامير بشير وابن	
جنبلاط وعلي العماد وكتبت النصره فيها	

للأمير ، وهرب المشايخ المذكورون الى حوران فأمسكوا وقتلوا ، واضطر الامير بشير الشهابي بعد ذلك الى التغيب في دمشق وحوران ، ثم عاد بعد مدة الى لبنان

واستلم زمام الامر وطلب الاموال المتأخرة من اللبنانيين فناروا عليه في اثني عشر الف فارس وقيل في ثلاثة عشر الف مقاتل وليس معه فينا قيل سوى ثلاثمائة ، فقتل منهم على قلة عديده وأخضعهم لسلطانه ، وعازنه الشيخ بشير جنبلاط على كبح جماحهم وكذلك والي عكا ارسل اليه عساكر الارناؤد والهوارة والمغاربة والاكراد فنشب القتال بين الفريقين فقتل من جماعة الامير بشيره ارجالا وأحضروا ٢٩ رأساً من رؤوس محاربيهم . ثم قلب الامير بشير الشهابي ظهر الجحش للشيخ بشير جنبلاط وسعى بقتله ، كما قتل أناساً من اهله وحاشيته وسمل عيونهم ليأمن شرهم بزعمه ، وذلك لان ابن جنبلاط قويت شوكة واثرى وكثر مشايعوه ، فما كان من امير الجبل الا ان سعى باهلا كه والقي الذئبة بين الحزب اليزيدي والجنبلاطي ليحلوا له الجوارح وسلم معظم لبنان لأناس من مشايخ الموارنة يحكمونه ويأتونه بالجزية والخراج ليدفع هو المقرر عليه لوالي صيدا او عكا ، ويأمن جانب الدولة فتصفو الولاية له . وكان من سياسته ان يظاهر صاحب الظهور والقوة شأن الامراء اللبنانيين في معظم ادوار تاريخهم .

وكثر الخلاف بين والي طرابلس ووالي دمشق ووالي صيدا ووالي عكا والناس يقتلون بسبب هذا الاختلاف بينهم وحاكم دمشق يحاصر حاكم عكا ، والدولة ترضى عن هذا وتغضب على ذلك ، وتسلب ولاية زيد لتعطيتها لعمرو ، تلاحظ في ذلك التوازن بين القوات ، وتناشئ رجوع الذين يعصون أمرها من الولاية . وأعقل الولاية وأدهام من كانت تدوم ولايته سنين وكانت الوظائف الحسابة في هذا الدور على الاكثر بيد الاسرائيليين والكتانية بيد المسيحيين في كل ايلات الشام ، وكان الولاية يصادرون بعض الاسرائيليين ويحبسونهم وربما يقتلونهم لاستئصال المال فيجئال هؤلاء لتمشية امورهم ، وحدث ان معظم الحامية والموظفين في دمشق كانوا مرة من اهل بغداد والموصل وكر كوك فغضب الوالي عليهم فأمر بترحيلهم فهلك بعضهم في الطرق .

كانت الشام تحتبط بايدي الولاية وارباب الاقطاعات ، والدولة غير مستريحة في داخلتها وخارجيتها ، فاستقلت اليونان (١٨٣٠ م) بعد حرب هائلة فقدت فيها الدولة اسطولها وذهب قسم من الاسطول المصري ، وكان الاسطول اليوناني ضرب

بيروت (١٢٤١-١٨٢٥) ، وتوسعت اختصاصات إمارتي الافلاق والبغداد (رومانيا) حتى بلغت الاستقلال او كادتا ، وفتحت بروسيا لها طريق البحر الاسود ، وما زالت حال الدولة على ذلك حتى نشأت ثورة الانكشارية في الاستانة (١٢٤٢) وكانت الدولة أخذت تنظم جنداً جديداً على الاصول الحديثة ، فاستراحت الدولة بعض الشيء بعد إهلاك الانكشارية وكذلك حال الامة المسكينة التي قاست الاحوال من اعتداءاتهم ، وكان الفضل الاكبر في ذلك لمصلحة الدولة السلطان محمود الثاني الذي أظهر من الثبات وقوة الارادة في هذا الشأن ما لم يعرف به اجداده الذين قتلوا بابيدي الانكشارية ، واستنموا لما يأمرؤن به مخافة ان تزهدق ارواحهم . وقضى ايضاً على اهل الطريقة البكداشية في الاستانة وما اليها مما ذكره له التساريخ بالاعجاب ، وعاب بعضهم عليه شدته وعجب باعماله معاصروه من الاعظم . فقد قال سفير روسيا في الاستانة بعد سنين من قرض جيش الانكشارية : ان السلطان محموداً بقضائه على هذا الجند المخلل الذي تصعب ادارته قد ظفر بنور من النبوغ بمثله نخبو الممالك من الممالك . وقال دي لاجونكبير : اذا كان السلطان محمود أقل سعادة من بطرس الاكبر — امبراطور روسيا الذي أصلح بلاده على الطريقة الاوربية — في ارادة التجدد فان منشأ ذلك بان بطرس الاكبر قد وجد امة لا تزال في حالة العمجية اي جديدة ، وكان من الاسهل ان ننظم وتصاغ ، وعلى العكس في محمود فانه صادفته عقبات من الاوضاع القديمة ، اوضاع نشأت وكبرت مع المملكة وكان منها فيما مضى قوتها وقدرتها ، اوضاع وضعها السيف وأيدها الظفر وقدمها الدين .

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحولا

تولى دمشق صالح باشا ثلاث سنين وثلاث مرات كل مرة سنة وأظهر شدة زائدة ثم تولها ولي الدين باشا (١٢٤٢) وكان أحق مغفلاً مهملاً ثم عزل ونصب عبد الرؤف باشا (١٢٤٣) وكان عادلاً لطيفاً وطمعت الشام به لعدله وفي سنة ١٢٤٣ أحدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الامير أهل تلك القرى اللبنايين ان يرجعوا بهم الى بلادهم فرجعوا فخرّب البقاع فارتضى وزير دمشق

حينئذ باخذ عشرين الف قرش من تلك القرى وكتب الى الامير انه رتب العشرين الف قرش عوضاً عن المال الميري والقسم اي الثلث .

محاولة الدولة قتل النصارى } وأرادت الدولة ان تنقم من مسيحي الشام بل
وفتنة بلاد نابلس } من المسيحيين في انحاء المملكة لثورة اليونان
عليها ومطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة (١٢٤٤) وجزائر البحر الابيض ، فأمرت
والي دمشق ان يقتل المفسدين من كهنة طائفة الروم ، فعقد مجلساً من أعيان دمشق
وتلا امر الاستانة على مسامعهم ، فكان جوابهم انه لا يوجد من النصارى عندنا
المفسدون وجميعهم ذميون ساكنون بشروط الذمة فلا تجوز اذيتهم بل لهم ما لنا
وعليهم ما علينا وان الرسول عليه السلام اوصى بالذميين وقال : من آذى ذمياً كنت
خصمه يوم القيامة . ونحن لا نقدر ان نحمل هذه التبعة وكتبوا محضراً للدولة بحسن
سلوك نصارى الأيالة وطاعتهم ودفعهم المرتبات الاميرية وانهم يستحقون حسن
الرعاية والمرحمة من السلطنة السنية . ولعمري اي علاقة للثائرين في جزائر البحر
والمورة مع الآمنين من الرعايا في الشام ، فقد ابان عقلاء دمشق اذ ذلك عن رأي
سديد ، ولكن لا ندري اذا كان رأيهم راق لدى ولاة الامر في الاستانة . واي
امر جائز اكثر من هذا كان النزاع الى الاستقلال من اليونان كانوا يصدرون عن
آراء مسيحي الشام او آسيا الصغرى ، او ان هؤلاء يحثونهم على نزع ايديهم من ايدي
الدولة ، ولو استطاع المسلمون انفسهم في ذلك الوقت ان يستقلوا عن الدولة لينجوا من
خلل ادارتها لما تأخروا عن ذلك ساعة .

وفي سنة ١٢٤٦ (١٨٢٩) طلب والي عكا من الامير بشير الشهابي ان يفتح قلعة
صانور بين جينين نابلس وكان اهل نابلس عصوا عليه وتحصنوا في قلعة صنفد واعجزوه
فلم يقدر عليهم لان معظم اهالي البلاد انضموا الى الثائرين ، وكانت صانور منذ القرن
الماضي تشغل بال رجال الدولة في عكا وصيدا والقدس ، فنشبت بينه وبينهم عدة
وقائع وبعد حصار ثلاثة اشهر وتحريب عدة قرى ، امر الوزر بهدم القلعة ودكها
الى الاساس ودك مغائرها وهدم آبارها ، وسبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها

والي دمشق على الثائرين ولما عجز عن جمعها أحييت الى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع الف كيس وامر بجمعها من اهل نابلس وكانت من زعماء النابلسيين اذ ذاك اسعد بك طوقان والشيخ القاسم الاحمد ، وفشل النابلسيون ولم يبق في القلعة عند تسليمها كما قال معلوف سوى ٣٦٧ وكان فيها اكثر من الف ومائتي نسمة قتل بعضهم وضرب الآخرون وقتل من عسكر الامير بشير ٣٧ وجرح ١١ وذكر مشافة ان سبب عصيان بلاد نابلس سلخ عبد الله باشا لها بامر الدولة عن ايلاله الشام ، لان والي الشام ادعى ان المطلوب منها ستائة كيس لا تحصل الا بسوق حملة تستغرق المبلغ المتحصل منهم ، فتعهد عبد الله باشا بان تضم اليه ويدفع اليه كيس عنها ، وان عسكر امير الجبل الذي جاء نجدة لعبد الله باشا كان نحو خمسة آلاف رجل ، وان النابلسيين نزلوا على حكم الامير بشير الشهابي فعفا عنهم جميعاً وهدم القلعة وحصل الاموال الاميرية بعد مناوشات طفيقة .

* * *

مقتل سليم باشا } انقضى النصف الاول من هذا القرن او كاد والقطر نهب
والي دمشق } ابدي الظامعين من الولاة والمسلمين ، يسيئون في
الرعية الاستعمال ، ويعتوث بها خولتهم دار الملك من السلطة فيمتلون اعظم مظهر
من مظاهر الحكم الاستبدادي الفردي الجاهل ولم يكن يختر في بال الدولة ان
رعاياها يقوون على الانتقام من اعظم عمالها وهم الموصوفون في معظم ادوارهم بالطاعة
للولاة والزعماء ، والرضى بما نقضي به الاقدار ، ولو صححت عزيمه المظلومين مرة او مرات
ان يهلكوا من يحاول اهلاكهم وخراب ارضهم وديارهم ، لما ساءت الحال وبلغت البلاد
ما بلغت من الاختلال والاعتلال ، نريد ان نقول ان الرعايا طالت ايديهم فقتلوا واليا
عظيماً من ولاة السلطنة ونعني به سليم باشا الصدر السابق مبيد جيش الانكشارية .
نصبت الدولة هذا الشيخ واليا على حلب ثم على دمشق سنة ١٢٤٧ ، وكانت
ظاهرة شجاعاً مهيباً وباطنه جباناً ، فهم ان يقتال بعض اعيان المدينة فبدأ بذلك من
حمية ، وقتل بعضهم فايقن القوم ان هذا القاتل لا يصعب عليه ان يهلك انساناً في
دمشق ليصفو للدولة الحال بزعمه ، فلما جاء عاصمة الشام اراد ان يضع على كل سكرة

اي عقار في دمشق « مصر يتين » كما هو الحال في الاستانة فنارت باشارة الاعيان وكانوا عند المصائب الشديدة نتجد على الاغلب كلمتهم انقاء شر عظيم يقعون فيه او تقع البلاد ، وكثيراً ما كانوا يدخلون الاوهام على الولاة لثلا يسترسل هؤلاء ويشتطوا في مطالبهم وتكون المغانم مناصفة بين الاعيان المتلغبة والحاكم المنصوب — فضرب الوالي العامة من ابراج القلعة بالقنابل حتى اذا ضاق عليه الخناق جاء في بعض رجاله الى دار قرب باب البريد فتأثره العامة وهدموا على رأسه سقف الخدع واحرقوه .

وذكر بعضهم ان هذا الوالي تحصن برجاله في جامع المعلق اولاً والسكان بالقلعة فبدأ الحريق من باب الهواء واخذ يمتد ، فلما رأى ذلك داخله الوهم لقله رجاله وكثرة الدماشقة فتحصن بالقلعة ، واخذ يحرق دار الحكومة ليشغل الناس ويفوز بنفسه وكان الحريق هائلاً خرب كثيراً ، ثم اعتمدوا على حصار القلعة واخذ الوالي يطلق المدافع على البلد ، واقام الناس متارين حول القلعة ثم في الحارات وحاصروا العسكر المرابط في جامع المعلق ، وقتل في هذه المناوشات اناس كثيرون من الاهالي وجماعة الوالي ، وطال المطال وتألّب الناس على الوالي حتى ان والي عكا اخذ يقوي اهل دمشق عليه ولما ضاق به الحصار خرج الى بيت القاضي بجانب دار المشورة فجاء سبعة رجال كسروا الباب والنافذة عليه والقوا النار بعد ان اخرجوا من عنده ابن اخيه والكيخية ثم قطعوا اعناقها اقتراء وعدوانا كما قال مدون هذه الوقعة اذ ليس لها ذنب يوجب القتل حتى ان الباشا نفسه اقتروا عليه لانه لم يظهر منه اذى اذى اليهم غير تمسكه بالتمام الاوامر التي يهده من الاستانة ، وربما كان يضمم للاعيان شراً لانجمله واما في الظاهر فليس لهم عذر سوى انهم اقتروا عليه وعلى جماعته على نوع مستغرب مناف للشرائع كلها ثم اخذوه عرباناً الى القلعة ، مع الاثنين خاصة بعد ان داروا برؤوسهم اغلب البلاد ودفنوه داخل القلعة وتولى الشرابي الداراني ورشيد نسيب الشوملي امر البلد ، وبات الناس يتوجسون خيفة من رجال الاستانة ، ولو كان ما اتوه في حالة راحة الدولة لارسلت عليهم جنودها يفعلون بالابرياء والجناة الافاعيل المنكرة ، ولكن الدولة كانت لتوجس خيفة من محمد علي والي مصر وما بلغه من القوة بجنده وبحريته

واستعداده ، ولها مشاكل في اوربا تخاف ان لتجزأ قوتها اذا ارادت تأديب الدمشقيين
ولذلك لم تحب ان تناقش الاهالي الحساب ولم تسوها لجمعيتها بسخ هم قاتل ، والقاتل
مبشر بالقتل ، ومن عادة الدول على الاغلب ان تفتك بعد حين فيمن اسلمته آلة للفتك
ولذلك نرى مؤرخي الترك قد نطقوا بلسان الحكومة ولم يحركوا ساكناً كأنهم رأوا
لعمل الدمشقيين مبرراً من حسن نيتهم .

وقال مشافة : لما قتل الدمشقيون سليم باشا اجتمع اعيانهم ورتبوا حكومة موقفة
واخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم ، فورد الخبر بخروج عساكر مصر
لتأقي الشام فسكن روعهم بعض الشيء ولما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر
عما عمله اهالي دمشق وارسلت والياً عليهم اسمه علي باشا . واخذت الدولة تؤول
عمل اهل دمشق واصبحت كالحامية عنهم تخلق لهم الاعذار عما بدر منهم لان السياسة
اضطرتها الى ذلك . فقد جاء في تاريخ لطفي نقلاً عن جريدة تقويم الوفائع الرسمية
ان سليم باشا لم يعمل بحسب الوقت لما جاء دمشق ، وقد عين الحاج علي باشا والي
قرهمان لاستئصال الفتنه التي كان شبوبها يتراعى الى المسامح ، بيد ان سليم باشا
قتل قبل وصول خلفه ، وتبين ان للغرباء بدأ في هذه الفتنه وان تأديب المشاغبين
بسوق قوة على دمشق بضر باهاليها .

وقال المؤرخ : ان سبب عصيان الدمشقيين ان سليم باشا مر بجماة عند شخوصه
الى دمشق وقتل بضعة رجال من عرب عنزة وقيد البرازي في القيود واتى به معه
الى دمشق فدهش اهالها وكان اقتراحه وضع ضريبة مما اوقد جذوة الفتنه . وذكر
ان الاهالي هجموا على السراي اولاً واغلقوا دكاكينهم واصبح الامر فوضى . وقد
كتب السلطان على محضر قدمه بهذا الشأن عاطف بك ابن خليل شقيق سليم باشا
قال فيه ما تعريبه : قد يتبادر الى الذهن ان لبعض الاطراف بدأ في حادثة دمشق
ومن الجائز ان يكون ذلك بصنع والي صيدا لان هؤلاء ليسوا على ثقة تامة من دولتنا
العلية وهم ينفرون منها على الدوام ، وعلى هذا فان امور اباله الشام اذا دخلت في
النظام على ما يجب يحدث ذلك ضرراً لم وقد عرفوا هذا حق المعرفة فيجوز ان يكونوا
سبب هذه الفتنه لا يصال الحالة الى تلك الصورة .

وقد ظهر من الاوراق الرسمية الاخرى التي نشرها لطفي في تاريخه ان السلطان ذهب مذهبين في هذه الفئنة فكان يقول في بعض اوامره قبل مقتل سليم باشا القائم بتطبيق قانون رسوم الاحتساب سداً لنفقة الجند ان اهالي دمشق وحواليها وان كانت ارضهم مباركة ، لا يستنكف اكثرهم عن عار ولا يعرفون الحياء ، وظاهر انهم اشرار وسيرون بحول الله وقوته من اسباب التأديب ما يقفون به عند حدهم . وقال في كتاب آخر : ان وقوع هذه الحادثة في دمشق ليست منبعثة من جسارة الاهالي فقط ، بل نشأت بلا ريب من اغواء الاطراف وتحريكها . وذكر المؤرخ ان السبب في فئنة سليم باشا تحريك محمد علي والي مصر ليجعل مقدمة لدخوله الشام وفي رواية اخرى ان والي عكا عبد الله باشا كان هو السبب في ذلك .

وقصارى القول ان سليم باشا مبيد جيش الانكشارية الذي عجزت طينته بالدماء فقتله اعيان دمشق مخافة ان يطش بهم كبطش بهم كبطش في حماة خافوه ووجدوا فرصة للنيل منه لما جاء يطبق قانون الاحتساب ، فاثاروا الرأي العام عليه ففعلوا وربما كانوا يريدون الاكفائة بتهديده ليحملوه على الحرب ولكن الامر خرج من ايديهم الى ايدي العامة فقتلوه غير حاسبين للعاقبة حساباً فكان قتله على غير رضى العقلاء من الاعيان بهد ان قتله كان تخيفاً لمن يأتي بعده من الولاة .

* * *

الحكم على موقف البلاد } ويجوز لنسا بعد نقل حوادث نصف قرن ان
في نصف قرن } تلخصها واستنتج منها على الصورة التالية (١) كان
الظلم يقع على المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء . ولما كان المسلمون هم السواد
الاعظم من السكان كان تأثير الظلم في مجموعهم اقل من تأثيره في مجموع الاسرائيليين
مثلاً . (٢) اؤغل ارباب الاقطاع في الظلم فقام الجزار من اظافرهم ليستأثروا وحده
بالظلم والقتل ، فخالفه التوفيق بطول المدة الى الضرب على ايديهم بعض الشيء ، فلما
هلكت عادة الحيازة الاولى الى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين . (٣)
مررت حملة نابوليون بوناپرت على جنوبي الشام كالسحابة ، وكان من الجزار ان ضم
قوى البلاد برأي انكثرت التي تولت حربه بجرأ باسطولها وساعدت حكومة

الديركتوار في باريز استدعت نابوليون فعاد أدرجه مسرعاً لا يلوي على شيء كما
رجع ريشاردس قلب الاسد ملك انكيترا في الحروب الصليبية بعد ان عقد مع
صلاح الدين يوسف ميثاقاً أنقذ به الصليبيين ومحاربهم من اهل البلاد من القتل
والقتال . (٤) الظلم الواقع على النصيرية وارادتهم على تغيير معتقداتهم واتخاذ مقتل
رجل غريب ميت بنسبه الى دولة اجنبية قوية ذريعة الى تخريب بلادهم وقتل
زعمائهم بدون تحقيق ، على حين كان زعماء الارحاء الاخرى من القطر يفعلون
فعلهم وزيادة ، ولا من يرد عنهم او يقوى على نزع سلطانهم وتخفيف وطأتهم ، مثل
محمد باشا ابو مرق الذي عجزت الارض الى السماء في فلسطين من مظالمه حتى اخذ
الناس يبيعون اولادهم كما تباع الجوارى والاماء فراراً من ظلمه وقياماً بما يفرسه عليهم
من المغارم . (٥) قيام مصطفى انا بربر متسلم طرابلس واستعانه بكافل عسكاً على
كافل دمشق وظلمه الرعية ومحاوله الدولة غير مرة ان تستريح من تسلطه فلم تستطع
ذلك الى ان هلك حنق انه . (٦) انقضاء دولة بني العظم بهلاك عبد الله باشا آخر
من ولي منهم سنة ١٢٢٣ ولم يبق بعده احد من ذريتهم لتولي الاحكام . (٧)
اشتغال الدولة بالعوائل التي اصابها ولا سيما استقلال اليونان ومحاولتها لما نال اليونان
ما أرادوا ان نلتقم بمن يدينون بدينهم في الشام ، فرد حزم الخازمين ارادة الخنليلين
من ولاية الامر الظالمين بحجة دينية ايضاً . (٨) عدم توفيق السلطان سليم الثالث في
تطبيق خطط الاصلاح وكذلك مصطفى الرابع حتى تولى السلطنة محمود الثاني فبدأ في
انفاذ اصلاحه بقياس واسع كان اوله مقتل جيش الانكشارية في العاصمة اوليات ،
فعد مصطلح عصره الذي ادخل دولته في المدنية الغربية طوعاً وكرهاً ، وجعل لها مقارناً
بين الدول لم يكن لها من قبل على اتساع اقاليمها ، وخروج اكثر القاصية من حكمها
فتبين لها ان عظمة المالك بحسن ادارتها وكثرة مدنياتها لا بعظم رفعتها وخصب
بقعتها ، وان دولة غناماها في عنفوانها وبذخها كما هي في ضعفها وشيخوختها ، تولى
رقاب الامة ولو بالصورة الظاهرة ، وجبوة خراجها ولو بالغااضي عن بعضه للجابة
لا للرعية لا تصلح ويصلح أهلها .

وان الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد

دور الحكومة المصرية

« من سنة ١٢٤٧ الى سنة ١٢٥٦ »

—>>><<<—

حالة الدولة العثمانية عند اذلال جيش محمد علي الكبير لها } كانت الدولة العثمانية الى اواخر منتصف القرن الثالث عشر جسماً كبيراً تعرفه نوبات عصبية من حين الى آخر فيردها بقوته ، او يطول زمنها عليه حتى تنتهي بطبيعتها . وصاحب المرض اذا طال عليه معاودة النوبات قد يأنفها و يظن انه بريء من كل خطر ، على حين كثرت آلامه ، والادوار العصبية أشد ظهوراً في أم الجسم ، واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع ان يدفع ضراً ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية اذا نظر الى ظواهرها يظن معها قوة ، وفي الحقيقة هي الى الضعف لكثرة ما استحكمت فيها من أمراض عضالة ، وساورها من أوجاع ، غفلت الدولة عن تعهد قوتها الحقيقية منذ وضع مؤسسوها بنيانها ، فكانت تعلق وتسفل وتطفو وترسب ، بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلاطين ، تقوم بالفرء ولا شأن للجماة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأصول إدارة ، واهم ما امتاز به جندها الطاعة للرؤساء فأصبحت في حروبها تستهلك أكثر مما تستحصل ، لان جيش الانكشارية وهم مستندوها في قوتها عراه الانحلال فعدت الوقعة التي كان يكتفي فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق اليها ثلاثين الفاً ثم يشعب ولا يعمل عملاً . ولا عبرة بالعدد اذا كان المجموع أقرب الى النسخ ، ومعنويات المقاتلين الى الضعف . ان بعض العوائل التي أصيبت بها المملكة والشام من حملتها في هذا القرن والذي

قبله كانت بصنع جيش الانكشارية وتمرده على رؤسائه ، وبضعف الزعماء واختلافاتهم المتصلة مع الولاة في الخارج ، والوزراء والملوك في دار الملك ، فكان وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني وصدور الامر بقتلهم في الولايات مما نفس خنات الامة من عريديتهم . وان كانت العقوبة التي نزلت بهم بالشام أخف ، لان بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من أبناء البلاد فاعتصموا بهم وغيروا القابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم ، وبعد ان تحلصت الدولة والامة منهم صعب على العثمانية في بضع سنين ان تصلح مافسد في عشرات بل في مئات ، وهل من سبيل الى ارتجال جيش منظم الا اذا ساد السلام اعواماً طويلاً ، وانتشر العلم وتعلم القواد على الاقل ، وكيف يتسأ في ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام لا تنتأ منتقلة من أزمة الى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهاية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان .

ولم يحظر بيال الدولة يوم قام محمد علي في مصر — ومصر لعمرى أم كل عجيبة — ان يتدرج بعد قتل المليك في مراتب القوة والسيادة ، حتى يقبض على زمام الامر (١٨٠٤ م) وينظم قوته البرية والبحرية ، وينشط الزراعة والتجارة وتتمو به المهمة ، ان لا يكتفي بما يملك بل ينزع الى التوسع في فتوحه ، اذ أيقن ان الدولة وان كانت في صدد ادخال الاصلاح على اوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل ، لا تستطيع ان تلحق غبار مصر التي جرت على الاصول في تنظيم جيشها وإدارتها ، ونشر المعارف بين افرادها ، وسلطان العثمانيين على اتساع مملكته وكثرة خيراتها ، يتعذر عليه ان يقوم في بلاده بما قام به محمد علي في ولايته ، لان الاصلاح في الجسم الثقيل الخدلف الامراض ، أصعب من مداواة جسم له مرض واحد ، اذا عولج كان أقرب الى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير الى الارتقاء بخطى واسعة سريعة ، والدولة العثمانية انظر الى هذه المظاهر باهتة ، وقلم يبدو لرجالها ان يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ، ان لم يجاروهم في هذا المضمار . فأصبحت دولة ابن عثمان لا تكفي عادية دولة من دول الغرب الا اذا استعانت باخرى عليها ، واستنادت من تحالفهم وتباين أغراضهم ، بعد ان كانت أيام شبابها تنال من دولها مجتمعات

ومنفردات بعدادها وعددها . ولكن الجيش الذي يصل الى أسوار فينا على عجلات البقر ، ويقا تل المحاربين والمسلمين بالسيف والنشاب ، غدا يحتاج الى أسباب في النقل أسرع ، وسلاح في الفتك أقطع ، غدا يحتاج الى علم وعُدَد ، أكثر من احتياجه الى أسماء ضخمة وعدَد ، وأصبحت السياسة والادارة والحرب علوماً عملية ، والدربة والتنظيم رأس كل أمر ، والجيش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المتشبع بها أفرادها ، فكيف ننجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة وكيف لا تُنجلي الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ، ودول تحركت ونمت وربت ، وبين أمة فتحت بلاداً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها ويصارعونها ، وهي عنهم غريبة وهم عنها غرباء لم تمثلهم ولم تمثل فيهم كما فعل محمد علي فتمثل في مصر والمصريين .

* * *

لما ذا تراجعتم } نسب ميسو انحطاط الدولة العثمانية وإخفاها في حكم
الدولة العثمانية } البلاد التي افتحتها الى عدة أسباب أهمها الجهل والجهود
والغرور قال : « ومن حسن طالع النصرانية انه لما فترت الهمة في الحروب الصليبية
التي يراد بها حماية اوربا ، أخذ الاتراك يضيعون شيئاً من قوتهم العسكرية التي أخضعوا
اسلطانها الشعوب النصرانية ، فكان العثمانيون بأذي بدء الأمة الوحيدة التي كان
لها تحت السلاح جيش دائم منظم ، وبه أحرزت الدولة النفوق على الامم التي تريد
إخضاعها لسطوتها . وغدت اوربا في القرن السادس عشر ، ولمعظم ممالكها جيوش
يقادمون بها اعداءهم ، وانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية .
وأخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاماً ورفيقاً في الغرب ، على حين كانت
الانراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون
بتاتا من العلوم التي انتشرت بين اعدائهم وجيرانهم ، ويزاد على ذلك ما عبث بكيمان
الانراك من الغرافات وقلة النسامح ، فحال ذلك دون فتوحهم . فكانوا اذا استولوا
على ولاية يحاولون ان يحكموها بنظاماتهم ، ويغرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم ، فافنضى
لهم من ثم ان يبدلوا وجه كل شيء ويقضوا على حياة كل شيء في البلاد التي ينزلونها ،

وان يقضوا على اهلها او يضعوهم بحيث لا يستطيعون ان يناجزوهم الشر ، ويرفعوا رؤوسهم فيهم ، ولذلك يلاحظ ان الاتراك استولوا مراراً على بلاد المجر ، فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ، ولم يستطيعوا بحال ان يؤسسوا فيها مستعمرة او موطناً ثابتاً . وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف اسكنى اقطار ابعده والاحتفاظ بها ، وبهذا نجت المانيا وايطاليا من غارات الاتراك ، وربما استطاع العثمانيون ان يفتحوا العالم لو قدر لهم ان يخلقوا البلاد التي ينزلونها باخلاقهم وينزلوا فيها كثيراً من ابنائهم .

قال : « من الاسباب الرئيسة التي اضعفت القوة الجندبة في الاتراك ، الحروب التي كانوا اعلنوها على اوربا وفارس . فقد صدم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى وجاهدوا في النصارى اضر بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت طريقة الاتراك في حربهم الفرس والشعوب المسيحية مختلفة متباينة ، فبعد ان قاتلوا زمناً مقاتلة ما وراء النهر وقوقاسيا ، اصبحوا عاجزين عن قتال اوربا فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من ام الغرب . وظلوا بعدئذ بين عدوين ثقرباً بهما زوالهم و يتحسمان بالحماسة الدينية . حمل الاتراك معهم مثل جميع البرابرة الذين اتوا من شمال آسيا نظام حكومة الاقطاعات ، وكان اول عمل ياتيه اولئك الشعوب الرحالة تقسيم الاراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الاقطاعات . والفرق بين الاتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو ان استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك مجالاً قط للاقطاعات ان تكون وراثية ليكون بجانبهم طبقة من الاشراف كما هو الحال في الحكومات الاوربية المطلقة ، وهكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق الى جانبها ديمقراطية عسكرية .

« شبهوا الاتراك بالرومان . وكانت بداءة عذبة الشعبين واحدة ، وما اشبه اشباع روملوس باتباع عثمان . وبنفاوت الشعبان في نظر التاريخ . وذلك لان العثمانيين ظلوا كما كانوا في الاصل ، اما الرومان ايام فتوحهم فلم يزهدهوا في معارف من فتحوا بلادهم . ولم يستنكفوا من الاخذ بعاداتهم ومعبوداتهم ولم يقتبس الاتراك من الامم المغلوبة شيئاً ، وتشددوا في ان يظلو على بربريتهم . ولم نصل الارستقراطية

الوراثية في جانب الاستبداد المطلق ، وربما كان ذلك احد الاسباب التي قضى بها على الامة العثمانية ان تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير الاجتماعات بدر كون ان بالارستوقراطية تهذب الاخلاق وتثقف عادات الشعوب ، وبواسطة الطبقة المتوسطة تنشر المعارف وتبدأ المدنية .

« ان فقدان الطبقة الارستوقراطية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط ، بل انه حل لنا معنى جمود الفكر الانساني في هذا الضرب من الحكومات ، وكيف لم يقدم قيد غلوة . وما كان في المساواة المطلقة ، ومن حكومة تغار من كل ما لا تكون هي منشأه ومصدره شيء من المنافسة والقدوة وحب المجد ، وبدون هذه الاسباب يقضى على كل مجتمع ان يبقى في الجهل الاعمى الذي كان عليه لاول امره ، وان يفقد معظم مزاياه ومصالحه . وبالنظر لزهده الاتراك في العلوم والآداب ظلت اعمال الصناعة والزراعة والملاحة في ايدي مواليزم وكانوا في الحقيقة اعداءهم ، وذلك لانهم كانوا يشتمزون من كل جديد ، ومن كل ما لم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا ان يلجأوا الى الاجانب في كل ما اخترع ونظم في اوربا ، وهكذا لم يكن لهم نقض ولا إبرام في مصادر سعادتهم وقوتهم ، وفي متانة جيوشهم واساطيلهم . ولا يخفى ما اضاعه الاتراك بونائهم عن السير في معارج الرقي العسكري الذي اصاب منه الاوروبيون قسطاً موفوراً ، ولما كان الشأن في حروبهم بجيوش متحمسة بالتعصب كانت القلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم البشرية وما ابرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات ، كان العقل المساعد هو الخفيف للشجاعة .

شبه بعضهم جيش الانكشارية العثمانية بطوائف البرتوريان من الرومان ، في حين كان هؤلاء منتخبين وما جرى قط على خاطر الاتراك ان يختاروا اميرهم سواء في ذلك شعوبهم وجيوشهم . وكانت مصلحة الانكشارية تقضي ان يلحقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من الجديد . اما الاتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة اكثر من غيرهم ، كما يحترمون الاوهام وحب البلاد التي ينزلونها . ولما استولوا على مدينة الاستانة كانوا يوجهون انظارهم على الدوام الى البلاد التي انشأتهم وناسلوا فيها ، فكانوا اشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في

اوربا : من وراثتهم قبور اجدادهم ، ومهاد عبادتهم وكل ما يقدر سونه ويحترمونه ، وامامهم شعوب يكرهونها ، واديان يريدون القضاء عليها ، وبلاد يتراى لهم ان البارى تعالى يلعبها . واهم ما اخر الاتراك وقادهم الى انحطاطهم ، ذكره مجد سالف ، واعجاب وطني لاناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم ، فكانوا يستمبنون ، ولم القوة ، بالاخطار التي تهددهم فاذا كتب لهم النصر سكرروا وقربوا القرايين واذا غلبوا حملوا على رؤسائهم .

هذا رأي المؤرخ الافرنسي في العثمانيين وعلته انحطاطهم وقال غيره واغرق : ان شأن الاتراك العثمانيين في البلاد التي يفتحونها اذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلاً مؤقتاً ضربوا خيامهم فيه ، اذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم سيف الارض التي نزلوها سوى آثار اطنابهم ، وعمد خيامهم فقط .

حملة محمد علي على الشام } اظهر محمد علي الكبير للدولة العثمانية وهو بعض
وهزيمة الاتراك } عمالها مثلاً مجسماً من التجدد في الممالك ، وبدت
امارات قوته بعد ان قرض المماليك من مصر ، فلم يسع الباب العالي الا الاعتراف
بسلطته ومراعاته ومحاسنته ، شأنه مع كل عامل احرزه قوة ، على شرط ان يؤدي
الجباية في اوقاتها ، ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم . وكان محمد علي
أسعد طالعا من سلطانه ، لانه لم يصطدم يوم قام باصلاحه بما اصطدم به السلطان
محمود في تطبيق الاصلاحات ، ورأى من المصر بين قبولاً لدعوته ، واستعداداً
لمدنية ، وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التي استخدموها
للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون
تعصب لقومية ولا عصبية شعوبية .

فقام بما أراد في مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد ، بل
فتحت مصر بفضل صدرها لذلك . بيد ان محمد علي لم يقف عند الحد الذي بلغه من
الاستئثار بوادي النيل ، وطمح الى التوسع في الملك ، شأن عطاء الفاتحين المدوخين
للملك الطامعين في بسطة السلطان ، ولكن اي البلاد يفتح ؟ هل يتوسع في افريقية ؟

في صحراء ليبيا وصحراء النوبة وهي أصقاع لا توازي العناية . وربما صدمته دول
الاستعمار عن التوغل في شمالي افريقية او في أواسطها ، ام يقصد الشام وهي مفتاح
كل فتح ، وفيها من العمران ما يوازي العناية في استصفاؤها ، وبينها وبين سكان مصر
من وجه الشبه ما لا ينكر محله ، ثم لا يصعب عليه اذا خفقت عليها أعلامه ، ان
ينقدم الى الامام ، ويملك من بلاد العرب والترك ما طاب له ، ولا يعلم
ما تحذره الايام .

بحث محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد ان خلق له سبباً معقولاً
لفتح الشام ، وذلك ان بعض فلاحي الشرقية بصير ضاقت نفوسهم من إعنات عماله
بالجندي والضرائب ، فلم يسعهم الا ان يهاجروا الى جهات غزرة ملتجئين الى والي
عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي إرجاعهم خوفاً من كثرة عدد
من يتبعهم الى الشام ، فامتنع الوالي من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان
واحد ، فاستشاط محمد علي غضباً خصوصاً وهو الذي استرضى خاطر الدولة على والي عكا
وكانت غضبت عليه ، ودفع عنه ستين الف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه ،
فالتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فأمر سنة ١٢٤٧ هـ باعداد جيش للسفر اليها
عن طريق العريش وطريق البحر في آن واحد ، وذلك لمحاصرة عكا من جهتين ،
وعين ولده ابراهيم باشا قائداً عاماً للجيوش ، وسليمان بك الفرنساوي قائم مقام له ،
وجند ستة الاليات من المشاة واربعة من الفرسان ، ومعهم اربعون مدفعاً وكثير
من مدافع الحصار الضخمة ، وما يلزم ذلك من الأعتاد والمؤن . فوصل ابراهيم باشا
مع الاسطول الى حيفا وفتح له غزرة ويافا والقدس ونابلس ، وكان أهل حيفا
يبلغون اذ ذلك ثلاثة آلاف نسمة ، وعكا اشهر مدن الشام بمحصاتها وفيها خمسة
آلاف مقاتل ، فدام حصارها سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة
بالمدافع الكبيرة ، ومن البر ثلاثون الف جندي ، وبريطانيا سلطنة البحار متغاضية
عنه طوعاً او كرهاً ، اذ كان لمحمد علي من فرنسا نصيرة وظهيرة ، وليست بريطانيا
حرة مطلقة في البحر المتوسط لتضرب اسطول محمد علي منذ أطلع من المواني المصرية
الى السواحل الشامية .

وبعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين الف مقاتل بقيادة عثمان باشا والي حلب ، فترك ابراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا ، والنقى في ضواحي حمص مع القسم الآخر بالجيش العثماني الذي كان كأخلاق الزمر لا نظام له ولا دربة ، فأبلى المصريون بهلاء حسناً حتى أوصلوا العثمانيين الى العاصي وغرق كثير منهم فيه ، واخفى عثمان باشا في حماة ، ثم احتل ابراهيم باشا بعليك وعاد الى عكا وشدد الحصار عليها ففتحتها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين أتوه بانفسهم طوعاً بعد ان ظهر على الاتراك في أرض حمص ، وأتاه الامير بشير الشهابي الى المعسكر يريد الدخول في طاعته . ففتح عكا بضرب المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الابيض فاستسلمت الحامية ، وأخذ عبد الله باشا واليها اسيراً وحمل الى مصر مكرماً ، ثم فتح الاسطول المصري سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور . وبعد ان فتح ابراهيم باشا عكا قصد دمشق ومعه الامير بشير وأمراء حاصبيا وراشيا فجمع علي باشا والي المدينة عسكرياً من الاكراد وأحداث البلد قدر بعشرة آلاف ، وكشف ابراهيم باشا بمنظاره خيول الاكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادي لمقاتلة الاكراد ، ونبه على العسكر النظامي ان يقاوتوا الدمشقيين ولا يؤذوهم ، بل يطلقون البنادق في الفضاء ، فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا وقاتل الاكراد جهودهم حتى غلبوا ، وفي أثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم .

* * *

تقدير مؤرخين وشاعر } يؤخذ مما قاله البيطار ان ابراهيم باشا قد ساعده الامير
لغلبة محمد علي } بشير الشهابي ورؤساء جبل نابلس ، لان عبد الله
والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها ، وحصل منه ضرر لاهل نابلس وكان
ذلك من اسباب الغلاء الذي وقع في الديار الشامية ، وان ابراهيم باشا يئنا كان
جيشه على عكا يقاسي الأهوال ويتجندل منه الرجال اثر الرجال ، جاء عباس باشا بن
محمد علي باشا الى البقاع وحصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر
العثمانية الآتية لقتالهم ، واقترق اهل جبل لبنان وتلك النواحي فرقتين ، فتابع النصاري

منهم الامير بشيراً المنفق مع ابراهيم باشا ، وخالفهم الدرروز وأظهروا الطاعة للسلطان ، ثم قصد ابراهيم باشا الى طرابلس وحصص ودخلها بلا قتال .

قال وتوجه ابراهيم باشا الى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والذخائر ، وعاونه اهل الجبل من المسيحيين والدرروز ، وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع اليهم ابراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ، ثم دخل عسكر ابراهيم باشا عكا من الابراج على السلام . وذكر بعضهم ان من جملة من قتل من عسكر ابراهيم باشا اثنا عشر الفا ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ أرسل ابراهيم باشا الى دمشق يطلب منهم ان يكتفوا من الدخول اليها فلم يرسلوا اليه جواباً ثم طلب ثانياً فأرسلوا اليه انا لا نتمكنك من الدخول اصلاً ، وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه الى قرب قرية داريا فخرج الي اقامتهم خلق كثير من اهل دمشق فقاتلوهم قتالاً يسيراً ولم يقصد كل من الفريقين اضرار الآخر وقتل من كل فريق رجل او رجلان ، ثم دخل ابراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليهما علي باشا وعسكره والقاضي والفقي والنقيب ومحمد شوربجي الداراني وجميع ابناء الترك الموظفين وغالب اعيان دمشق ، ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو اربعة آلاف وفر باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين الفا وغنم أموالهم وعتادهم وسار بعد ذلك الى حماة فحلب فلما حاربها بلا قتال ، ثم جاء انطاكية وعينساب واللاذقية واستولى على حصن الاسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينها مقتلة عظيمة .

وفي البهجة التوفيقية ان الدولة جيشت جيشاً آخر بلغ عدده ستين الف مقاتل بقيادة حسين باشا فالنقى الجيشان أمام حمص وانزعم الجيش التركي وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والامري ٣٠٠٠ ونهزم الجيش التركي الى حلب ، وحاول حسين باشا الدخول الى حلب فمنعه اهلها خوفاً من انتقام ابراهيم باشا فنقمقر الى بيلان فنقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين مدفعاً وكان غنم منه اولاً اثني عشر مدفعاً ثم غنم اربعة عشر مدفعاً آخر وقتل من العثمانيين اربعة آلاف وقتل من المصرين خمسمائة وخمسون ووقع في يد ابراهيم باشا

القان من العساكر النظامية اسرى من الارناؤد والهواراة فأعطاهم الامان وأدخلهم في جملة جنده ، راخني حسين باشا ولم يعرف له اثر ، واجتاز ابراهيم جبال طوروس وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين الف مقاتل آخر - وفي رواية أخرى مئة وخمسين الف عسكري بالمدافع والمهمات - ولم يكن مع ابراهيم باشا سوى ثلاثين الفاً فالنقى الجيشات في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا اسيراً في ايدي المصريين وانهمز الاتراك وغنم المصريون منهم في هذه الواقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر واسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون الفاً .

و يقول مشافة : ان جيش حسين باشا لم يكن سوى اربعين الفاً من الترك ، على حين لم يكن مع ابراهيم باشا سوى اثني عشر الفاً وكانت ابقى من عسكره جانباً للحماظة في البلاد المفتحة وهلك الآخر في الحرب او الوباء فغلب وهذا اقرب الى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لم لم تستطع الدولة ان تجميش في الحال نحو عشرين الى ثلاثين الف جندي من حلب ودمشق وترسل اسطولا الى عكا يصد عنها اسطول محمد علي او يقيم العثرات في سبيله ، كما انه استغرب كيف ان العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقفاً يردون به عادية اعدائهم وانهمزوا تحت نيرانهم الى الاسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعاً والني اسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جندياً .

وقد وصف الشيخ امين الجندي الشاعر صاحب الدبوان فعال الاتراك وهناً عزيز مصر وولديه ابراهيم وعباس بفتح الشام فقال من قصيدة :

والله غير ما بهم من نعمة	لما تغير حالهم وتبدلا
وقد استباحوا المنكرات فلا تسل	عما توقع منهم وتحصلا
وقضاتهم للسحت قد اكلوا فهل	أبصرت حياً من مضرتهم خلا
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم	وطغوا وزادوا في الضلال توغلا
وتمسكوا بالبدعة السوداء لا	بالسنة الغراء فارتدوا على
ومشايع الاسلام اصبح علمهم	جهلاً فلم ترقط منهم اجهلاً

وقال في وصف وقائع المصريين مع الترك :

فترى الحكمة مبددين على الثرى
أضحت طعاماً للطيور لحومهم
واختلَّ عقد نظامهم رعباً وقد
وقال : واتى بهم للرسن المشهور اذ
حيث الجهاديون حل وزيرهم
قامت بخدمته وطاعة امره
لما رأى سيف الاله أحد من
التي السلاح تأدياً وتواضعاً
حتى اذا نفذت ذخائره وما
امضى الى ارض القصير ركابه
وهناك حاربهم وفرق جمعهم
وقال : هل يغلب الاسد المجرب ثعلب
والى حماة الشام سار وبعدها
حتى اذا اقيم المضيق بياسه
تركوا الذخائر والخيام وكلها
من يخبر الاترك ان جيوشهم
والعز بالعرب استنار مناره
ياحبذا جرثومة الفضل الذي

والخيل من وقع القناير جفلاً
ودماؤهم للمشرفية منهلاً
غطوا الرؤوس ولم يغطوا الاسفلا
بين المقابر قد تستر واختلا
في باب حمص وقداني ان يدخل
حمص اذا امثلت ولم تبد القلا
كل السيوف مدى الزمان واطولا
عند المزار وللضريح استقبلا
التي يحمص للعساكر ما كلاً
يبغي العساكر ان تقوم وترحلا
في صولة والبر بالقتلى امتلا
مهما استعانت بمكره وتحبلا
لمعة النعمان يخترق القلا
وعلى الجبال سما واشرف واعتلى
يخشون منه لدى الفرار ثنقلا
كسرت وان حسينهم وآى الى
ببزوغ شمس مراحم لن تأفلا
طابت فروعاً حسبا قد اصلا

سقوط الاناضول وتضاؤل
السلطان العثماني امام الجيش
المصري
وما زال الجيش المصري يتقدم في الاناضول
حتى وصل الى كوتاهية واراد ان ينزل بورصة
بجحة ان ليس له في اواسط الاناضول حطاب
ومؤنة في الشتاء ، وكانت الطريق الى الاستانة امامه مهيباً لا يقف فيها ما يوقف سيره ،
واهل الاناضول والاستانة راضون عنه واشاع ابراهيم باشا ان مقصده من غزوه هذه

توطيد دعائم السلطنة . وكانت حاشيته من الاوربيين تحته كل الحث على ان يواصل السير ويفتح الاستانة ، وان لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما اخذه من آسيا الصغرى ولو استمع اليهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلاً من دولة الاتراك ، فاعاد محمد علي بذلك الدولة العربية . قال دي لاجونكبير : ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد ، وهذا الطموح ، بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك . وبقيت هذه المشكلة التي كان يتأقن ان يكون منها عراقك بين قوميتين العربية والتركية ، مقصورة في دائرة معينة من الحرب ، لم تُنعد حد القتال بين ملك واحد وعماله الناشزين عليه .

ولما رأى السلطان محمود ما آت اليه حاله ، عرته الدهشة وداخله الفزع ، فطلب معاونة الدول العظمى علناً لتعينه على محمد علي ، وحرص خصوصاً على معاونة روسيا التي اصحبت بعد معاهدة ادرنة ترى نفسها حامية الدولة العثمانية ، وليس من مصلحتها ان تكون هذه الدولة قوية مقاومة ، فاخرجت روسيا الى الاستانة اثني عشر الف جندي ، واستدعي فيلق البغدان وهو مؤلف من اربعة وعشرين الف مقاتل ليأتي الى الاستانة ، وعقدت معاهدة في كوتاهية على ان تبقى الشام واذنة وجزيرة كريت لمحمد علي و يرحل عن الاناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل انه ستون الف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمد علي غير ذلك ، والخطبة تلي في المساجد باسم السلطان . وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين ، دعيت معاهدة « خنكار اسكاهسي » وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضائق في قبضتها فبلعت قلوب اوربا لذلك واخذت انكاثراً تحسب لهذه المعاهدة الف حساب .

ولما انتهت شؤون الفتح جعل ابراهيم باشا مقره في انطاكية ، فكان يحضر احياناً الى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب عن أم حالة بلاد الاكراد ، وكانت مننقضة على الدولة العثمانية اذذاك . وكان ابراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية (الحاج ابراهيم والي جدة والحبشة ومرعسكر حالاً) وبعد فتوح عكا صار توقيعه هكذا (سر عسكر عربستان) اي قائد جيوش بلاد العرب وفوض محمد علي ولاية دمشق الى شريف باشا نسيب ابراهيم باشا وماليتهما الى حنابك البحري وكان هذا من المقرين جداً من محمد

علي ، ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨ م) واقامت والياً عليها اسمعيل بك ابن عم ابراهيم باشا حاكماً مستقلاً ، ورجح مشاقفة ان السبب في ذلك الثورات التي حدثت في البلاد والقلاقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي والحروب التي افنت معظم الرجال لانها كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي دمشق ، ولذلك حصل للحاكم العام عشرات حجة في تنفيذ اوامره في انحاء البلاد للبعد . وعهد لتنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري شقيق حنا البحري ، وقيل ان حكومة محمد علي كانت الى الرفض بدمشق اكثر منها في حلب ، لان الحلبيين قاوموا ابراهيم باشا بعض المقاومة ، ولم ينزلوا عن القلعة حالاً ، وقال مشاقفة : بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية وغرمهم مالا لاحتكار بعض الاصناف حتى يستفيد من ذلك اعوانه .

* * *

اعمال ابراهيم باشا } وكان من اول اعمال ابراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام
في اصلاح الشام } ترتيب المجالس الملكية والعسكرية ، واقامة مجلس
الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية ، فجعل نظاماً لجباية الخراج ومعامله
الرعايا بالمساواة والعدل لانفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الامراء
والمشايع وارباب النفوذ ان استنقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين
ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وينالهم من ذلك مصة الوشل ، مع
ان البلاد رأت في ايام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك وتوطد الامن
في ربوعها ، واحييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعممت تربية دور الحرير ودود القز
واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن النجم الحجري سيفي قرنايل (لبنان) وفرض
على لبنان ٦٧٨٢ كيساً ينقاضي الامير ضعفيها ويدخر في خزائنه الخاصة المال الزائد
على المفروض .

واكد كثيرون ان عمله هذا استعادت اكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص
وغيرها من اعمال الشام عمرانها القديم . واخرت بعض القلاع التي كان يعتصم فيها
الثائرون احياناً مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ،
ورخص للاجانب في ارسال ممتدبهم الى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل

وكلاؤم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . ويقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه ابراهيم عملاً بايعاز ابيه لمجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب — واقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً واعظمها خمسمائة قرش — فان هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل اهل حلب واهل دمشق .

فتوق وقتن وحصار } لم تقع حوادث مهمة في السنين الاولى التي قضاها
الفلسطينيين لابراهيم } ابراهيم باشا في الشام اللهم الا ما وقع في القدس سنة
١٢٤٩ من فئنة بين المسيحيين قتل فيها خلق كثير وما كان من عصيان النصيرية
فانتدب الامير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكرياً خيم في البهلوية فهرب
النصيرية بقضهم وقضيضهم وتركوا مواشيهم وغلالهم وامتعهم ففتحها العسكر واحرق
لهم خمس عشرة قرية وقطع اشجارها ثم احرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين
اخرى من مطل حمد ودارت مناوشات بين عسكر الامير والنصيرية . وعلل مشافة
هذه الوقائع بان المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر ، وطلب اموال اميرية زيادة
على ما اعتادوا دفعه ، نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يتنون رجوع حكم الاتراك
وابتداً الناس ينقضون عليهم ، واضطر المصريون الى الاستكثار من الجند لحفظ
مركزهم الجديد فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فأرسل الحاكم عسكرياً
لقتالهم من لبنان وحاصبها وراشيا فتوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال ولعدم
العناية واستغنائهم بالخصم آت الحلال الى تراجعهم وقتل كثير من رجالهم وآبوا الى
اللاذقية يتعمرون بأذيال الخجل الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة
عسكرياً كثيراً وقهرت اهلها .

واوعز ابراهيم باشا الى الامير بشير ان يرسل ولده بالنفي مقاتل الى طرابلس سنة
١٨٣٣ م ١٢٤٩ يجتمع هناك بسليم بك احد قواد المصريين لتأديب العكار بين
والحصبين والصابيتين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير
من الاعيان وجرت بينهم عدة وقائع . والغالب ان وقائع جبال النصيرية امتدت منها الى

صافينا وعكار والحصن او امتدت من هذه الى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت وانطاكية ، واشتغل ابراهيم باشا بادخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية ، فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الاعمال ، وطلب من نابلس انفاذ قانون الجندية فخرج اهلها عن الطاعة وحاصروا ابراهيم باشا في القدس نحو شهرين وكان لبيت ابي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الفتنه ورئيسها الشيخ قاسم الاحمد حاكم نابلس فما ضاق الحصار بابراهيم باشا حتى اضطر محمد علي ان يجيئ بالذات الى يافا ارسل الى قاسم الاحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بمال جسيم ويقول انه لا يأخذ منه عسكرياً ولا مالاً فرضي قاسم الاحمد وفك الحصار وخرج ابراهيم باشا حتى وصل الى يافا فوجد العساكر قد وصلت لتجدته فرجع على عقبه في الحال واشتغل بالقتل والنهب والسلب فيهرب قاسم الاحمد الى الخليل فلحقه ابراهيم باشا بعسكره واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يذر ثم دار على الساحل فأدب العصاة من اهلهم ولم يزل يتابع آثار قاسم الاحمد حتى قبض عليه وقتله في دمشق وقتل اربعة من اولاده بالسيف وامر بجمع السلاح من جميع البلدان .

وفي تاريخ فلسطين ان ابراهيم باشا لما قضى باخذ اموال ورجال من فلسطين ندم اصحاب الاقطاعات على سكوتهم واجتمعوا في قرية بيت وزن (غربي نابلس) وانفقوا على محاربه فنكت جماعة منهم مالوا معه ودلوه على الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل ان ينظموا حركتهم وفتح طريق طول كرم ثم نابلس وعطف على القدس فاحتلها وقد تهافت الاهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن اهالي الخليل هزموه عن مبرك سليمان وحصروه في القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية وظفر بهم .

لا جرم ان ابراهيم باشا أخطأ في تطبيق قانون	} خطأ اداري ل ابراهيم باشا ووقائعه في اللجاة ووادي التيم مع الدروز
التجنيد في الشام على نحو ما فعل ابوه في مصر	
وكان عليه ان يقنع والده بالعدول عنه الى حين ،	

لان صاحب البلاد الاصيل لم يقطع آماله من استرجاعها وهو يسمي بكل ممكن الى

استخلاصها من غاصبها ، وكل ما ننفرد منه قلوب الرعية يفرح به لانه يخدم مصلحته .
 فسألة التجنيد قلت من انصار الحكومة المصرية في البلاد لقلّة اعتماد الناس الجندية
 في ذلك العصر ، اذ أصبح الناس يعدون التجنيد من باب القاء النفس في التهلكة ،
 وزال من الافكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف ، وهذا الروح
 كان قد ضعف في الامة بعد ان حكمها الغرباء قروناً بالعنف والقهر . قال في
 المعلة الاسلامية : ان تجنيد الشعب في الشام ادى الى هجرة عدد عظيم من اهلها الى
 آسيا الصغرى والعراق . ووضع اليد على الحيوانات للاعمال العسكرية ، نتج منه
 انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الامن قد استتب في أنحاء البلاد فان الغضب
 العام لم يكن اقل منه : وجاء في تاريخ حماة ان ابراهيم باشا كان يحشر الناس لبناء
 الثكنة العسكرية في حماة ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا ينرون منه الى
 رؤوس الجبال وتارة يخبثون في الانهار وربما قلع الانسان عين نفسه او قطع اصبغه
 ليعفى من الخدمة العسكرية .

ولقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وابوا تجنيد
 اولادهم ، فأرسل والي دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فاللقوا به في جنوبي اللجاة في
 وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ، ثم أرسل عليهم قائداً اسمه محمد باشا
 فقاتلوه وقتلوه وفتلوا خلقاً كثيراً ، ثم أخذ ابراهيم باشا احد رجاله شريف باشا الى
 قرية ام الزيتون في وادي اللوى في اربعمائة فارس فقتلهم الشيخ حمدان الدرزي
 عن آخرهم ولم يبق الا على مقدمهم . وذكروا ان سبب هذه الوقائع ان ابراهيم باشا
 طلب ١٨٠ نفرأ للجندية من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان
 وأرسلهم الى عكا ، فطلب المشايخ ابدال ذلك بالمال وأومموه الطاعة فلما عادوا الى
 بلادهم قلبوا له ظهير المجن ، فتوجه اليهم الجند بقيادة علي اغا البصلي كبير طائفة
 الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر اغا ابو جيب ففقدوا هناك مع كبراء الدروز
 مجلساً للشاورة في هذا الامر فامتنع الدروز من تسليم الاتفار وأرادوا الاستعاضة عن
 الاشخاص بالبدلات العسكرية . فقال البصلي : اني أرسل مراسلة استشير بها افندينا .
 وعلى ذلك قرّر القرار . وفي تلك الليلة كبست الدروز العساكر وأذاقتهم كؤوس المنية ،

وقتل ابو جيب وكان المسلم في حوران وجبل الدروز، ولم يسلم من القتل سوى البصلي وخمسة عشر نفرًا ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا الحجة فجاءهم عسكر ابراهيم باشا وقتلوه وهذه هي الوقعة التي قتل فيها الفريق محمد باشا . وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف . وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم ان المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومعهم مائتان من عرب السلوطة أحلافهم . وكانوا يربطون الطرق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق و يقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامي .

وروى مشافة ان العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلاً من الهوارة قتلوا الا قليلاً ، فأرسل ابراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع مع ان الدروز يومئذ لم يكونوا اكثر من ١٦٠٠ مقاتل . ولما هجز شريف باشا والي دمشق عن كنج جماع الدروز جاء ابراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الاتراك فساق قوة أخرى ، فرأى الرعب قد دب في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد الى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الاكراد . ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى ان قادوهم الى سهل دامة ، وهناك رجعوا عليهم واعملوا السيف فيهم وفتكوا بجموعهم ، ولما عرف ابراهيم باشا ان عسكره ذعر من شجاعة الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل الى الدكتور كلوت بك يستنصر منه محاولاً قاتلاً فرفض هذا إجابة طلبه وحاول ان يمنعه من استعمال تلك الوسطة لما فيها من القسوة التي تشمل الحرث والاطفال معاً ، اما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة اولاً والرعية ثانياً ، ولما هجز عن اخضاع العصاة الزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليفاني القاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشاً وأتوا الى اقليم البلان .

وكان دروز وادي التيم و اقليم البلان ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان ولما ضاق بهم ذرع ابراهيم باشا استدعى من مصر عسكراً من الارناؤد فأمدده ابوه باربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعرة

ايضاً فلم يظفروا بهم . وكانت دروز البلاد يُجند دروز حوران سرّاً أولاً ثم أخذت تُجندهم علناً . اما نصارى لبنان فتجنّدوا أولاً مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصر بين والدروز في حوران ووادي التيم . وتجمع العصاة في قرية حينسة من اقليم البلان ، فأطلق الامير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم ١٥٠ رجلاً وبلغ شبلي الدير بان ذلك فحضر بعسكره من الوعرة وحاصر العسكر المصري في سراي حاصبيا فقتل من امراء حاصبيا الامير علي ثم أرسل العريان الى الامير محمود خليل ان يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين ، واضطربت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ، ففر الجند المصري منهزمين نحو البقاع فتبعهم العريان بن معه وأعمل في أوقيتهم السلاح فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل وتشتت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون ، ثم جمع ابراهيم باشا ما تشتت من عسكره في البقاع وعاد نفيم في قرية عيما قرب راشيا ، فأثبته الدروز وتحصنوا قبائله في غابة هناك ، وانتشبت الحرب بينه وبينهم فلم يظفروا بهم ، ثم اشتبك الدروز مع عسكر ابراهيم باشا في وادي بكا فهجم عليهم ابراهيم باشا بعسكره وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب ، فقتلوا من الجندي المعري وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطروا عقبيها الى الفرار . قيل انه قتل من الدروز في الواقعة الاولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم ابراهيم باشا وقتلهم ، ثم حدثت وقعة في قلعة صخور ونفرت الدروز ، وطلب العريان الامان من ابراهيم باشا فأجابته اليه وجعله قائداً على الف فارس هواره . وفي سنة ١٢٥٢ توجه الامير مسعود الشهابي لحرب العرب العصاة في الصفا فاستسلموا له ومات من عسكره خمسون جندياً دقاً .

نعم بدأ الاشمئزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر امره الى ابنه ابراهيم باشا باحتكار اصناف الحرير للحكومة ، وبضرب ضريبة جديدة على الاهالي ، وبتهجير عدة الايات من سكان الشام ، وزاد الحنق لنزع السلاح من الشاميين ، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطئ الاردن ، وفي هذه الواقعة التي انتهت بقتل قاسم الاحمد حاكم نابلس بدمشق ، قتل ابراهيم باشا كثيراً من زعماء الاثراك ممن كانوا ساعدوا العصاة عليه ، واخذ الدروز والتصيرية والموازنة يستعدون للثورة

يهيئهم عليها عمال الدولة العثمانية ، و بريطانيا تحرض العثمانيين وتعلمهم كيف يسلكون . وقد روى كامل في تاريخه ان ابراهيم باشا فقد من جيشه في السنين التاليين لامر التجنيد نحو عشرين الفا . ومن انقض على ابراهيم باشا اهالي انكره فانه لما فتح بلادهم ونظم ادارتها وجعل لها حامية من جنده ، فلم يمض الا قليل حتى تمرد السكان وذبحوا الحامية والموظفين على بكره ابيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آية الى مصر ، فأخلوها الطريق وأهلكوها الا قليلاً .

سياسة الاتراك والدول } وكانت الدولة العثمانية بمعاونة بريطانيا العظمى
مع محمد علي } لانفتأ منذ دخول المصريين الى الشام ندس
الدهانس في البلاد ، وتتميل رؤساء العشائر وارباب الزعامات والاعيان ، بالمال
تارة والوعود الخلافة أخرى ، وبعد ان عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد
الثاني وهو خمس سنين ايضاً ومضى أكثره وأدى المقرر عليه من المال ، ارتأى
العثمانيون بايعاز بريطانيا ان يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأرسل السلطان
محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين الف مقاتل وفي رواية مئة الف مجهزين
بمدفعية مهمة ومعها من كبار طائفة من ضباط روسيا وبروسيا وزحف ابراهيم باشا في
اربعين الفا حتى انتهى الجيشان الى سهل نزيب من عمل البيرة على الفرات ، واشتبك
القتال بين الجيشين ثماني ساعات ونصفاً فتراجع الجيش العثماني بعد ان قتل منه ستة
آلاف وقيل اربعة وأسر اثنا عشر الفا ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه
الوقعة ١٦٦ مدفعاً و ٢٠ الف بندقية ، وقتل من المصريين اربعة آلاف وقتل
المصريون من الاتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة أسداسهم .
انتهى خبر الهزيمة الى الاستانة بعد ثمانية ايام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلس
ابنه السلطان عبد المجيد وهو فتى في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد
وسلطنته مهددة بجيوش محمد علي ، وليس للدولة جيش وقد فقدت اسطولها في
الاسكندرية ، سئله محمد علي امير البحر احمد فوزي باشا ، فرأى السلطان ان
يسادد ويقارب ، فارادته الدول على ان يترهبص ريثما يتوفى الى حل مرضي .

باجماع الآراء بينهم ، فكان من ذلك حل المسألة المصرية العثمانية بالطرق السلمية الحربية ، فانفتحت الدول العظمى ما خلا فرنسا ان لا تُتجدد معاهدة « خنكار اسكلمسى » بين العثمانية والروسية ، وان السلطان اذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول على ان تبقى المضايق والدردييل تحت اشرافهم ، وكان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي ان تكون مصر والشام واذنة ملكاً وراثياً له ولاولاده من بعده فأرضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاضدة فرنسا ، وقضى على محمد علي ان يخرج من اذنة والشام في عشرة ايام ، وان لا يبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا اي فلسطين من ارض الشام . نقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بيد ان محمد علي ابي ان يخرج من الشام ، فبعثت انكلترا باسطولها الى سواحل هذا القطر بقيادة روبرت ستونفوردي فضربت بيروت واستسلمت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور وقاومت عكا ، وبعد ان اطلقت عليها البوارج الانكليزية قذائفها ثلاث ساعات اصابت مستودع البارود فانفجر وقتل عدداً كثيراً من الرجال ، ثم اضطرت العساكر المصرية الى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وهي الى جنب محمد علي تبرر عمله ، واثناصره برأيها ومعاونتها الادبية .

وكان السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ - ١٨٣٩) نشر خلال هذه المدة خط كلفانه او البراءة السلطانية وهي اول قانون اصلاحي في السلطنة العثمانية يقضي باعطاء العناصر العثمانية حقها وحريةها ، وبضع نظاماً لاستيفاء الضرائب على نظام واحد ، وتطبيق القانون العسكري وغير ذلك من الامور الادارية ، فصفت اوربا لقانونه ورجت الارتقاء لمملكته . وكان هذا القانون مما اوحت به بريطانياً واملاه عقلاء الساسة من الاتراك في العاصمة .

انتراط عقسد } ولما احس اهل لبنان بواسطة دعاة البريطانيين ان الدول
الحكم المصري } ازمعت اجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة ان لم ينجل
مخبراً ، اخذوا يناوشون الحامية المصرية وقتلوا بعض المسلمين من المصريين ، وكان

الامراء الشهابيون والممعيون بقوون العامة سرأويحئونهم على الثبات ، والافرنج يخبرون الناس بانفاق الدول الاربع النمسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، وان المراكب الحربية قادمة اليهم ، واشتدت الفتنة بين اهل الجبل والامير بشير واخذت البلاد بالخراب المتصل ، وحرق ابراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبي حريمياً .

وكان امير لبنان في ظاهره مع ابراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته ، وقبض المصريون على ٥٧ رجلاً من اعيان لبنان بينهم اربعون من امراء الشهابيين كانوا يدعون اهل بلادهم لخلع طاعة المصريين ، فنقاهم ابراهيم باشا الى مصر ومنها الى السودان ، واخذ اعوان امير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح والخيول وطرح المغارم ، وجاء على الاثر الاسطول العثماني والاوربي في اربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة آلاف وخمسمائة جندي عثماني والي جندي اوربي ، فاخذ ابراهيم باشا يجمع شمله في داخلية البلاد ، ويستدعي جنوده من الساحل ، وبجسب تقارير ضباط الانكليز ان المقتول والمجروح والضائع من العسكر المصري لم يكن اقل من عشرين الف جندي .

وخرج ابراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد ان فرق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبهوت الارامل والايتمام ، واخذ معه جميع الحبوب والمواشي خارجاً من باب الله ونزل في سهل القدم ، ومنها قصد الى مصر عن طريق البر . وقبل رحيله عن دمشق ارسل خالد باشا التركي من الساحل احمد اغا اليوسف في شردمة من الجيش فخرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل وهزمه شرهزيمة ، فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوفيرة ، اما احمد اغا فنزل بعسكره بعيداً عن دمشق في احدى قرى الزبداني ينظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، ثم خرج ابراهيم باشا صادعاً بالامر الذي جاءه من والده بالجلاء عن الشام فخرج اهل دمشق لوداعه وخطبهم وحرصهم على الاخلاص الى الطاعة والسكينة ، ريثما تعود الحكومة العثمانية ، وعينت الدولة علي باشا الذي كان والياً على الشام يوم دخول ابراهيم باشا ، وكان اشد الاتراك تعصباً ، وبقي فصل بريطانيا المستمر ودد الذي اثار الموارد على ابراهيم باشا مفوضاً من الدولة

التركية بمراقبة اعمال عمالها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله ونصب ذلك فننصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة أمر مطلق .

اراد محمد علي ان يقاوم دول اوربا ويظل في الشام ، ولكنه علم بعدم نظره ان ذلك متعذر ، وان اسطولاً ضرب بيروت واحرق الاسطول المصري ونزل تسعة آلاف جندي الى سواحل الشام ، وان المواردت بعد ان كانوا عضد ابنته ابراهيم اصبحوا يعاونون الاوربيين على طرده من الشام ، وتقدم اميرالبحر بابيه امام الاسكندرية واخذ من محمد علي معاهدة لم يترك له بها سوى مصر ، وانه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لبريطانيا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة فرض الشام . ومساعدة كل من اراد خلع طاعة المصريين ، والرجوع الى الدولة العلية ، وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل ، كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والبريطانية ، وان يكون لمراكب روسيا والنمسا وبريطانيا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

فضل حكم محمد علي } كانت حسنات محمد علي في الشام اكثر من سيئاتها ، لانها
وضعت اصول الادارة والنجابية ورفعت ابدي ارباب الاقطاعات
واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك الا الامير
بشير الشهابي والي لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد علي في مصر ، وظل يتصرف
بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والامراء المستبدين . قال مشافة : وكانت
الدولة التركية خبيثة باحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية فبعثت تدس الدسائس
الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة . ثم ما
بارجاع نفوذهم وكان التصيرية اول من شق عصا الطاعة وتبعهم الدروز في حوران
ووادي التيمر ففضى المصريون معظم ايام دولتهم في الشام بالحروب والقتال .
ومن مآثر الحكومة المصرية التي عددها مشافة تجفيفها المستنقعات وتصريف

الاقذار في مجار خاصة وتحديد اسعار اللحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف ادبائهم وطبقاتهم ، لانكاف صاحب الحق نفقة لتخصيل حقوقه. وانفاق كل مال في وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة وبنافسها الحساب ، لانه اعتاد ان يكون محكوماً لا حاكماً نفسه ، عبداً لا حراً . وأكد ان البريطانيين استخدموا رجلاً من رجالهم السياسيين اسمه المستر ودد بجاء كسروان بدعوى انه يريد تعلم اللغة العربية واخذ بث الدسائس حتى اعلن الكسروانيون العصيان وقاتلوا جيشاً من جيوش ابراهيم باشا وجيوش الامير بشير فدام القتال اياماً وتغلب العصاة على جند ابراهيم باشا مراراً وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار .

ومدح مشافة الامير بشيراً الشهابي الذي كان تضداً قوياً لابراهيم باشا ، وقد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة لما استولت على الساحل الى مالطة وبقي منفيًا فيها زمناً ولم يستطع ان يعود الى امارته . وقال : انه كان شجاعاً مقداماً ، وفائداً محنكاً ، وسياسياً داهية ، خدم الجزائر بكل امانة ونشاط ، وخدم خلفه وحفيده مثله ، وخدم الدولة التركية والدولة المصرية ، وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها ، وكان صارقاً اذا وعد اميناً على واجبه ، ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر . وانتقد مشافة على حكومة محمد علي نقاعها عن اشهار استقلالها عن الدولة التركية ، مع انه كان من اسهل الامور بعد ان اكتسحت البلاد ، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكاً مستقلاً وأرسل سفراء الى عواصم الدول الاجنبية وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان ، ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية ، لاجبرتها على الاعتراف بسيادته لانه استمال عليها اخراج جنوده من الشام ، او صد هجمات ابراهيم باشا ونقدمه الى قلب عاصمتها ، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم او لكانت على الاقل اضيفت الشام الى مصر وأصبح حظ القطر بين واحداً . ولم يظهر سر امتناع محمد علي من الاقدام على هذا الامر الخطير ولو فعل لغير حالة هذا الشرق القريب لا محالة .

رأي الغرباء في حكومة محمد علي } أثبتت حكومة محمد علي في فتوحها ان المصريين
 بل العربي اذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن }
 الغربيين في سيرته وجلادته ، وانه لم يضره في القرون الماضية الا فناؤه في الحكومة
 التركية ، بدعوى ان الاسلام لا يفرق بين الاجناس والعربي والتركي أخوان
 وان الظلم اذا جاء من مسلم كان مقبولاً . وكانت حكومة محمد علي من أفضل
 ما رأته الشام من الحكومات منذ ثلاثة او اربعة قرون ، بل ان الشام في القرون
 الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما ياتلها . كتب المستر برانت تفصل
 بريطانيا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ م ما تعريبه : لما كانت
 الأريالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المشجورة ، والى
 حراسة الاراضي الممثلة ، وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الارحاء الواقعة حوالي
 حمص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية وفي هذه الاماكن أكره العرب على
 احترام سلطة الحكومة ، وجعل السكان يأمّن من اعتداءاتهم . وكان الشام بأسره
 تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندي من
 منظم وغير منظم بأمره ابراهيم باشا ، فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين
 وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطرد الامن ومدّ
 رواق الثقة ، وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ،
 اذ كان عليها ان تصلح عدة امور مخلة ، وان تبدل الفوضى والتعصب والقلقل التي
 كانت سائدة بالعدل .

« فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات امتعضوا كثيراً من ذلك لانهم
 كانوا يثرون من ابتزاز اصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر
 هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذي أنوا تحت عبئه طويلاً ، واعتبط المسيحيون
 خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم الى درجة من الذل لا تطاق . ولو
 لم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفي بكل
 شدة فلم يكن يستوفي منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وظلالهم ولا يؤخذ منهم
 شيء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة

العسكرية على المسلمين وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات وكم من مرة ذهبت الجنود بأمره ابراهيم باشا لانلاف بيوض الجراد وما نقف منها وبفضل هذا الحكم الخازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاج والنماء ، فلو طال عليها الحكم المصري لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء وأصابت شظراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة في جهات حوران . وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون .

قال : « ولم يكدم المصريون يطردون من البلاد وينقلص ظل سطوتهم — وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد — حتى عاد القوم الى نيل الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ومنتبت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان نخلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالتدريج حتى أمكن القول انه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والاملاك وكل شيء بدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التي تركها المصريون » .

هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها انكليزي . وقال بر بيه الافرنسي في كتابه الشام على عهد حكومة محمد علي ما تعرب به : « ما من بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والمجد في كل مظهر من مظاهر الحياة ، وليس مثلها في البلاد قضت الشقاء من تقلبات الزمان ، وسقي أديمها بالدماء ، فان خصبها المدهش وجمال اقليمها وثروته ، ومركزها المعنى الذي يقرب اليه جميع الاجزاء القديمة التجارية من الارض ، كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ، ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نهبت أطماع الفاتحين وسجلت غير مرة على الشام ويلات الحروب . » وكانت الشام على عهد الاتراك العثمانيين مقسمة الى اربع إيالات حلب وطرابلس

وعكا ودمشق ، وقبل مجي ابراهيم باشا الى الشام كانت حكومة هذه البلاد من الممالك العثمانية التي تعب السلطنة فلا يمكن حصر السلطة في يد واحدة لان معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد وجعله بحيث يستطيع العصيان ، وكثيراً ما كانت السلطان سلطاناً بالاسم مع ان الشام كانت مقسمة الى اربع ايالات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة وكثيراً ما كان الباشوات يشتقون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابران ولطالما شنت عليه باشاوات بيد الاهالي كما أحرقوا باشا دمشق .

« وكان الدم يجري لأقل شبهة والعذاب الاليم يحل فيُشَدَّق الباشاوات وتسلل أرواحهم من أسفلهم ويجهلون العصاة على الحديد ويحزون الرؤوس وبذلك كانت يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا والا أصبحوا عرضة للحرق والشق . قال : ومن المحقق انه ليس الا طريقة الارهاب والقوة التي تؤثر الاثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم الى الطاعة وقد عرف ابراهيم باشا كيف يؤثر في الشاهين وذلك بان استمال اليه قلوب أشرفهم وأعيانهم والقي بينهم الشقاق ضمناً عند الانضاء وبذلك تيسر له حكم البلاد ووضع ضرائب شديدة عليها ما كان القوم يتحملونها ولم يكونوا من عناصر وأديان مخنفة وكان شريف باشا حاكماً على الشام كله وتحت يده الحكام وكان طمأناً في المال اه » .

حكمتنا على انفسنا } هذا هو الانصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا
وعلى غيرنا } وما هي في الحقيقة الا روح محمد علي الكبير التي كان
يستمد منه ابنه ، ولا يصدر الا عنه في الخطوب ولا يتطع امراً دون الرجوع الى رأيه ،
حتى جاءت احكام المنصر بين نموذجاً في الادارة ، ولو ارادت الدولة العثمانية ان تستفيد
من هذا الدرس لارادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الاصلاحات التي
قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال
والغرور ، لا يمدون الى حسن الادارة وتظاهرون بالاحسان الا يوم الشدائد ، فاذا
زالت عادوا الى طبائعهم في إعانت الرعية والقاء الجبل على الغارب ونسوا ما اعطوا

من عهود وماوضعوا من القوانين . وهذا مادنا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار ، وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأينا لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام ، لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتسامحها سياستها احيانا . وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها من البحر المتوسط واذا اردنا ان ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على امانى محمد علي بل امانى العرب من انشاء دولة عربية كما اوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة ان تدعو الدولة العثمانية الى حرب الوهابيين في نجد والحجاز حرباً عواناً لانه كان يخشى ان يؤسسوا ايضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عشرة في سبيل امانى تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب . ولو نظرنا الى ما وقع لابراهيم باشا في الشام لاول الفتح ، لم نره الا قتالاً مع العثمانيين اى قتال الجيش المصري مع الجيش العثماني ، واذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا او عن دمشق او يوم حمص مثلاً اناس من الاكراد والموارنة فهؤلاء ليسوا من ابناء البلاد وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم ويرزقهم ، على نحو ما وقع لابراهيم باشا من هذه الفئة أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم الى صفوفه فاخذوا يقاتلون معه ، ولم يلبثوا القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع الاجانب واخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيمر وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، واما المدن والسواد الاعظم من الناس فقد استقبلوه واخلصوا له وشعروا بحسن ادارته ولا سيما المسيحيون والاسرائيليون وكلهم ادر كوا الفرق بين حكومته وحكومة الترك .

وقد قال السيد محمد نسيب بن حمزة من علماء دمشق وساداتها قصيدة يقرظ بها محمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا ويذكر وقائمه بها ننقل منها ما يدل على مبلغ اعجاب القوم بصاحب مصر والشام :

يبنائك يمين الرعايا وحبذا ويسراك يسر للرايا وحسبها
جمعت شتات الجحد في كفك التي تعودت الحسنى وحازت تقدما

ففي ظهريها للحاسدين مقبل
 فسبحان من أعطاك عزاً مؤبداً
 وسماك باسمي مصطفىا وحيدر
 وأهداك ردة النصر شبلاً مظفراً
 وقام بأمر الله في فتح بيته
 وحانت ركاباه إلى المورة التي
 فلاحت سعود الفتح عند قدومه
 ومذ بزغت في الشام أقمار سعده
 وفي الحفظ جد السير منها مجيلاً
 فأوردهم كأس المنون بهيمة
 وعاجلهم يقفون منازل ظعنهم
 ومن بعدها جرت الخيمس مقابلاً
 فلما رأوا أن لا تنال لأمهم
 تبادل ربط الصلح صاحب رأيهم
 على أن حكم العرب تحت لواء من
 وقد ألحقت بالعرب آونة التي
 وعاد أبو الفرسان تزهو بنوده
 وعن له من حمص إذ كثر راجعاً
 ومن يك ذا مجد فذلك فعاله
 أيا كعبسة الراجين فاقبل هدية
 وقال نسيب أرخوا بمداخي

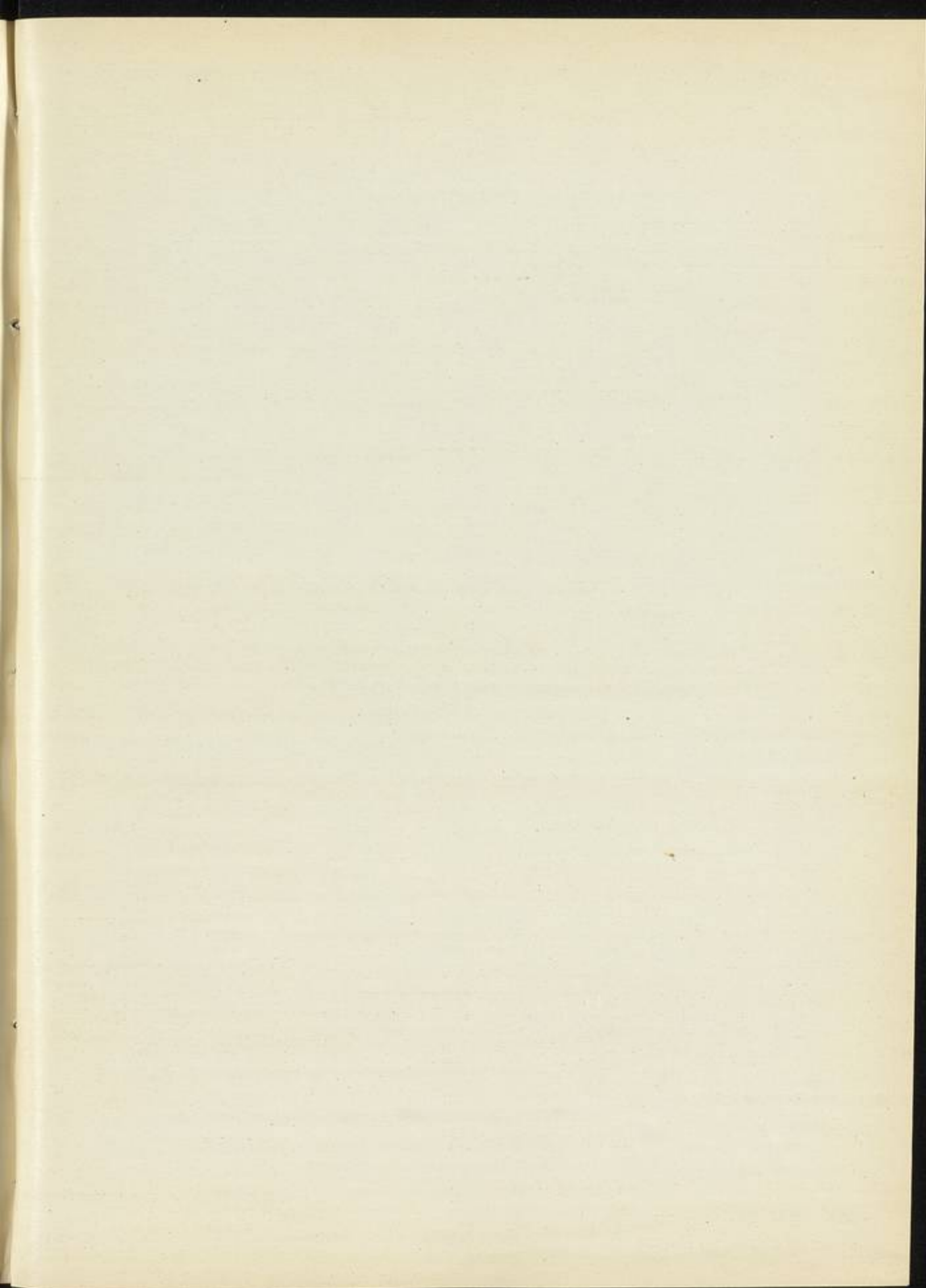
وفي بطنها ما بيننا الأرض والسماء
 تصول به بين الخلائق قدر ما
 فحزت بهذا حمداً وفزت بهذا سما
 به دم قرير العين دهرأ مسلماً
 فسيور نار الحرب فيهم وأضرما
 عصت قبل سبعا لا نليل الميما
 وقد عقدوا صلحاً وعاد مكرماً
 تباثرت الأهلون والعدل نجماً
 إلى العسكر الجرار عند حمي حما
 يرى دونها رأس الشوامخ منسما
 إلى أن أتى بيلان وانقض قشعا
 بقونية الصدر الوزير الذي سما
 وان كلما شادوا بناءً تهديماً
 وساد ولما عاين الأمر مبرماً
 له صولة الأقيال والله سلماً
 تجاورهم والجار بالجار أكرماً
 إلى الشام في تاج الفخار معماً
 إلى الساحل المعمور كيما يهنديماً
 ومن لا فدعه في الفلاة مهوماً
 من العاجز المقلال أن يتسكماً
 وجودك في أفق السماكين خيماً

(١٣٤٨)

وانقد تجلي في وقائع محمد علي في الشام تجلياً لا مجال للريب فيه ، ان اختلاف
 المذاهب وتباين التربية ، كان من العوامل القوية في الفناء الفنية بين أبناء هذا الوطن
 وان دول اوربا عند اغراضها تستعمل بث بذور الشقاق بين المتألفين وتستخدم وسائل

غريبة في تكدير صفاء الآمنين ، وتعبث بعقول السذج المساكين ، وانها قلما اهتمت
 لمصلحة أمة من امم الشرق ، بل تهمها مصلتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركنه
 بسعد و يرقى بحكم محمد علي الذي كان باقرار رجالها من ارقى ما عهدته البلاد منذ
 قزوين ، ولعل أبناء الشام ايقنوا بخطأهم في الانتقال على الحكومة المصرية التي
 هي مثلهم عنصراً ولغة وعادات انهم كانوا على ضلال في الخمين الى حكم العثمانيين ،
 وما كان من حقهم ان ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون في الاثم
 والعدوان . وكان على الشاميين منذ عهد المصريين ان يدركوا ان الدولة دب فيها
 ديب الفساد وان من الفساد رياضة الهرم وان الهرم اذا نزل في الدول لا يرتفع .





العهد العثماني

من سنة ١٢٥٦ الى ١٢٧٧

« من خروج المصريين الى مذابح لبنان ودمشق »

رجوع الشام الى سالف
بؤسها على العهد العثماني
وفتن الدروز والتصاري
اشبه الشام بعد الحكومة المصرية حال من كان
في محنة مستديمة وشظف عيش ، ثم حسنت
حالته بان علم النظام والسكون ، ومتع ببعض
الراحة ، وغذي بالاطياب ، فتغيرت طبيعته وتبدلت نفيسته ، وبجأولة ارجاعه الى
سابق مألوفه ، عدا من يحاول ذلك جانبا عليه . وما كان يحلم اولا بان يستمتع بغير ما
كان له ، ورجوعه سيرته الاولى تجلي له الفرق وتغص عيشه .

تبين الفرق بين الادارتين المصرية والعثمانية ولو طال عهد المصريين اكثر —
وكانوا في صدد الفتح يتخوفون بأدرة العثمانيين كل حين — لسعدت البلاد حقيقة
وابقن حتى من كانوا يتمتعون من دماء الامة على العهد العثماني ان طريقة المصريين في
المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة في انفاذ القوانين وتقليد الغرب في
كل امر جوهرى افضل طريقة لراحة البلاد وكان يرجى ان يألفوا في مدة قصيرة ما
تأصل في فطرم على توالي الترون وتعودوه من حكم ارباب الاقطاعات الذين صدم
المصريون عن تجارتهم الشائنة التي القوها زمن العثمانيين ، وهي الاتجار بالجباية يجنونها
اضعافا ، ويسلبون الباقي من دم الامة بمرأى من الحكومة ومسمع
وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

لم تكذب تخلي الجنود المصرية بلاد الشام حتى رجعت الى حالتها قبل المصريين وثارَت العداوات القديمة في الصدور ، وزادت الدسائس الاجنبية ، واخذت فرنسا تساعد الموارنة وبريطانيا تعاون الدروز ، فتعدى هؤلاء على الموارنة في سنة ١٢٥٧ ودخلوا دير القمير وارنكبوا فيه الفظائع المنكرة وزحف الدروز (١٢٥٧) على زحلة بثمانية آلاف ، وانتشبت القتال بينهم وبين اهل زحلة ، ومعهم اهل بعلبك فانهمز الدروز شر هزيمة ولولا تدخل الجيوش بشدة لامتدت الثورة وانجملت حادثة دير القمير عن مائة وتسعة قتلى من المسيحيين ، وعدد كبير من الدروز قدره مشاققة باكثر من خمسمائة لانهم كانوا مهاجمين قال : ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفروا منهم نفوراً تاماً ، وطلبوا من الوزير حاكماً عليهم ورفع سلطة المشايخ عنهم فاجابهم الى ذلك ، لان هذا ما كان يرغب فيه ، ولولاه لما كان الاتراك يختمون العروض قطعاً على امراء الجبل ويحضون اهله على الفتن .

عاملت الدولة العثمانية بعد عودتها الى البلاد كل من ساعدها على مقاصدها وخدمها او تظاهر بخدمتها وتجنس لها زمن الحكومة المصرية المعاملة التي ترضيه ، فرجع ارباب النفوذ والاقطاعات الى سالف مجدهم ، المبني على تقطيع اوصال الشعب والتغذي بلحمه . واقامت بدلاً من الامير بشير الشهابي الامير بشير قاسم الشهابي حاكماً على لبنان . وكان دون سلفه ادارة ومعرفة ، واقصت الامراء الشهابيين عن حاصبيا حاضرة وادي النسيم ، واقامت شبلي العريان مسلماً لها لانه خدم الاتراك في حرب المصريين فاخذ ينزع من المسيحيين سلاحهم ويقدم للدروز باروداً وذخائر ، وكان يرى سلب القرى المسيحية واحراقها من عوامل الخدمة لطائفته ودولته ونسي ما قيل « من اكل مرقعة السلطان ، احترقت شفتاه ولو بعد حين »

ولم يكن من مصلحة الدولة ان تسود الألفة بين الطوائف ، وان يتعامل اهل الوطن الواحد بالحسنى ، فكان اكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني ويساعدون الدروز على المسيحيين في لبنان ، حتى يتيسر للدولة ان تنزع الحكم من ارباب الاقطاعات وتقيم له والياً كما لطرابلس وصيدا والقدس وحلب ودمشق ، ولذلك كثرت الفتن والمناوشات بل الاحن والحن بين المسيحيين والدروز ، فقد اثار الامير قاسم الشهابي الدروز

على الموارد (١٨٤١م) فارتكبوا فيهم القتل والنهب فتدخلت الدولة وعزلت الامير قاسماً الشهابي لتقيم مكانه والياً عثمانياً فنصبت عمر باشا النمساوي ثم عزلته ، وجعل الجبل قائم مقاميتين الاولى نصرانية والثانية درزية فلم ترتض الطائفات ذلك ، وأصبحت الاولى بيد فرنسا والثانية بيد انكلترا واختل الأمن في أرجاء الشام لان الدولة حاولت ان تنزع السلاح من فئة او أهل ناحية وتبقيه في ابدي آخرين ، فكتب قنصل انكلترا في دمشق سنة ١٨٤١م (١٢٥٧هـ) الى نجيب باشا كتاباً قال له فيه : « فاذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استنباب الأمن في وسعها ان تبدأ باظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى وتدمير اماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق . ان نزع السلاح من يد السور بين عامة امر مرغوب فيه لو تسنى اتمامه دون التخوف من حدوث ثورة عامة ، بيد اننا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحي لبنان الغربي ولبنان الشرقي على حين سمح لساير اتباع السلطنة بحفظ أسلحتهم ، ومع ذلك لا ينبغي ان يغرب عن البان ان الباب العالي اعترف بصدق رعاياه المسيحيين وأمانتهم في هذه النواحي اذ لجأ اليهم قبل الجميع فوزع عليهم أسلحة لطارد عدو الطرفين (يريد ابراهيم باشا المصري) كما ان احتلال جنود حضرة السلطان الآن للشام هو نتيجة مساعدة اللبنانيين » .

قبض عمر باشا النمساوي (١٨٤٢) على زعماء الدرروز فاجتمع اتباعهم وهجموا على سراي بيت الدين وكان هناك فتهددهم ، وحضر شبلي العريان بجنده المنظم واجتمع في الطريق بفرقة من الارناؤد قادمة الى عمر باشا ليرسلها لتأديب الدرروز فوقع بين الفريقين موقعة فهزمهم جند عمر باشا في أقل من ساعة .

فتن أهلية في الجبال } وظلت تغلي مراحل الأحقاد في لبنان والحكومة
والمدن } تجهل او تتجاهل السبيل لتقطع شأفة الفتن من الجبل
وغيره من الأصقاع الشامية وقد عينت سنة ١٢٦٠هـ رجلاً اسمه علي بك لجباية
الأموال الاميرية من جبل النصيرية ومطاردة بعض الاشقياء فلما بلغ ناحية البهلوية
طلب مقدمي الكلبية ورؤساءهم فارسلوا اليه رجلين وهما اسماعيل عثمان وحبيب

مخولوف فارسلها في الحال الى اللاذقية مقيدتين وأخذ في تعذيبهما ، وانتهى الخبر الى الجبل فجمع نحو خمسمائة رجل من أهله ومضوا الى اللاذقية وهاجموا دار الحكومة ثم كسروا السجن . وأخذوا السجينين ومن معها من المأمورين ، فصدر الامر بان تجهز العساكر التي معه مع جميع الاهالي النازلين بين انطاكية وصافيتا ، وعسكر الجيش في القرداحة ، فأرسل النصيرية بعض نسايتهم الى القائد علي بك يحملن اعلام الامان ويطلبن العفو ، وان يضمن لمن سلامة الانفس والأموال والعيال ، فأبى الا انزال العقوبة بالتأثرين ، وكان عددهم نحو ستائة وعدد العسكر النظامي والمقسانلة من الاهالي نحو عشرين ألفاً وقيل ثلاثين ألفاً ، وكان في قرية المران شيخ من أهل الدين والصلاح يعتمد العلويون عليه وكان يعرف علم النلك فأخذ الطالع وقال لهم : انه لن يفقد منهم الا رجل يصاب برجله ولا يموت وسألوه عن موعد الهجوم فقال : غدأ الظهر فنزلت الطمانينة على قلوب التأثرين خصوصاً وقد وعدهم انهم لا يصابون بأذى ، ولما حان وقت الظهر تجهيز التأثرون وانقسموا ثلاث فرق وهاجموا العسكر ، ولم تلبث ان دارت الدائرة على الجيش وقتل علي بك وقتل من عسكره على ما قيل نحو ألفي رجل وغنم النصيرية جميع الذخائر فأرسلت الحكومة على التأثرين وفدأ يدعوهم الى الطاعة بصورة لطيفة ويضمن لهم سلامتهم فأطاعوا وسلموا الذخائر بأسرها الى الحكومة على ما جاء من مصدر علوي .

وفي سنة ١٢٦١ (١٨٤٥) قام الدرّوز ثانية في لبنان وقتلوا المسيحيين واستمرت الفتن الى سنة ١٢٧٧ (١٨٦٠) . وفي سنة ١٨٤٥ أرسل والي دمشق الى درّوز حاصبياً يخضهم على رواية مشافة على قتل النصاري ويمدهم بالسلاح والذخيرة ، وأوعز الى درّوز حوران ان يقدموا لمساعدتهم ، وسأل مثل ذلك مسلي البقاع فيرب نصاري حاصبياً قبل الايقاع بهم فاقض عليهم الدرّوز في جهات راشيا وفتكوا بمعظمهم وتشنّوا في تلك الارحاء ومنهم من سلم فجاء زحلة ومنهم من عاد الى حاصبياً ومنهم من قتل ، وعينت الحكومة احد امراء الشهابيين حاكماً على حاصبياً لكنها لم تسمح له بمعاينة المعتدين وزعماء هذه الفتنه .

وفي غمرة المحرم سنة ١٢٦٧ وقعت فتنسة بجلب سرت الى حي باب النيرب وهي

قراق و بانقوسا فنهبت احياء النصارى وأحرقت ثلاث كنائس وقتل نحو خمسة عشر مسيحياً ودام النهب ثلاثة أيام ، ثم قام الاهالي على الوالي وطلبوا منه رفع « الفرديّة والنظام » فامتنع من ذلك فصر به الاوباش ، ثم انكسر سكان الحارات وانتشر الحريق في الاحياء المذكورة والنهب والقتل فقتل من الحلبيين نحو خمسمائة رجل كلهم من الرعايا ومن العسكر نحو ذلك وقبض على مثل هذا المقدار من الناس ، ثم بحثوا عن أمتعة المسيحيين المسلوحة فأرجع اليهم غالب ما نهب منهم .

وفي هذه السنة عصى الامير محمد الحرفوش امير بعلبك وجمع عسكراً من بلاد بعلبك ووادي العجم ، فأرسلت عليه الدولة قوة بقيادة مصطفى باشا فانتهزم أمامه الى قرية معلولا في جبل قلمون وتحصن بها مع اخوته وأولاد عمه فحصرهم الجنود الى ان دخلوا عليهم بدلالة أهل القرية ، فأخذ الامير محمد وأسر . وطوّق القائد العثماني بعلبك بثلاثة آلاف جندي فاستسلم امرأؤها فقبض عليهم وأرسلهم الى دمشق فنفوا الى كريت ، وقضى بذلك على عامل من عوامل حكومة الاقطاعات .

وفي نكبات الشام ان الحروب الأهلية التي حدثت في دير القمر وزحلة وغيرهما من انحاء البلاد سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥) انتهت بقتل ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن ونحو اربعمائة رجل من الدرّوز ، ولولا محاربة الدرّوز المسيحيين بالخيانة ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح اكثر عدد القتلى وزاد على هذا القدر ، واما الخسائر المالية فلم نقدر في ذلك الحين .

وفي سنة ١٢٦٨ (١٨٥١) امتنع درّوز حوران عن دفع الخراج فندبت الحكومة لاختصاصهم والي دمشق محمد باشا القبرصي بفرقة من الجنود فوقعت بينه وبينهم معركة دامت بضع ساعات فانتهزم والي دمشق ووضع الدرّوز أيديهم على مهات الجنود والمدافع ثم توسط فنصل برطانيا فأرجع الدرّوز مسلّوحت العسكر ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة صاري عسكر (سر عسكر) انتهت سنة ١٢٦٩ .

حرب القرين منشأوها في الشام } وفي سنة ١٢٦٨ حدثت في القدس امور
وكوائن درزية ونصيرية } تألّف منها الاسباب لنشوب الحرب العظمي

بين الدولة العثمانية وروسيا وهي الحرب المعروفة بحرب القريم (١٢٧٠) وذلك لاختلافات قديمة بين الروم واللاتين بسبب كنيسة القيامة وبعض الاماكن المقدسة فكانت كل من الطائفتين تدعي حق الرياسة والنقدم على الاخرى باستلام مفاتيحها ، واذ كانت روسيا قد جعلت الشرق مطمح انظارها وقامت تطالب بحماية الروم الارثوذكس ابناء مذهبها كما كان لفرنسا حق المطالبة بحماية موارنة لبنان ونصارى الشرق من الكاثوليك منذ منتصف القرن الثامن عشر ، حاولت الدولة ان تغفل عن مطالبة قيصر روسيا ، فاتخذ من ذلك حجة وقام بريدانفاذ وصية بطرس الاكبر القاضية بافتتاح الارض العثمانية والاستيلاء على الاستانة .

فهم الاسطول الروسي في البحر الاسود على الاسطول العثماني وحطمه ، فنشبت الحرب بين الروس والعثمانيين فانصر الروس وكادوا يبلغون الاستانة ، فارسلت انكترا وفرنسا جيشا واساطيل الى ارجاء البحر الاسود ، وقانلت الروس وانصروا عليهم في سواستبول — وكذلك بعثت ساردينيا فرقا من الجند الايطالي ولم يكن قد انظم عقد الوحدة الايطالية — وقد دفع الدول الى ذلك امر غير حب المحافظة على الدولة العثمانية وهو الخوف من خروج روسيا الى البحر المتوسط وبخروجها خطر على اوربا بل خطر على بريطانيا العظمى وطريق هندها ، وبعد حرب ثلاث سنين (١٨٥٦) ظفرت الدولة مع الدول بالروس ودفعت بريطانيا نفقات الحرب ، وحصلت الدولة الروسية على مطالبها وامتيازاتها ، ومن شروط المعاهدة ضمان استقلال المملكة العثمانية وسلامتها ، والحظر على اية دولة ان تدخل في شؤون تركيا الداخلية ومساواة المسيحيين مع المسلمين في الحقوق . ولما رأى رجال الدولة ان الطريقة البالية القديمة في ادارة الملك العثماني تؤدي بها لاحماله اقتنعوا السلطات بنشر الخط الهمايوني وبه قبلت الدولة (١٨٥٦) في عداد الدول الاوربية . فكان هذا العامل النافع من نتائج حرب القريم بيان للدولة وجه خطأها في اعتبارها عن السياسة الدولية .

وفي سنة ١٢٧٣ وقعت فتنة بين الدرروز والحوارنة في الحجة فاز فيها الدرروز وتعرف بوقعة امسيكي . وفي سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨) قهرت الدولة بلاد النصيرية بقهر زعيمهم اسمعيل هواش وجردتهم من كل رعاية وخصوصية ، والسبب في هذه

الفننة ان طائفة الكلبية عصت اوامر الحكومة فارسلت هذه خمسمائة فارس وضربوا قري الساحل ، واتصلت الاخبار بالنصيرية فهاجموا الجند فقتلوا منهم اثني عشر جندياً فجزت الحكومة بعد ايام عسكرياً عظيماً وهاجمت الطائفة وجعلت قوة لها في الساحل وزحف العلويون (النصيرية) ولم يلبثوا ان احاطت بهم العساكر من كل جهة فدافع العلويون حتى فقدوا خمسة وعشرين رجلاً وفي اليوم التالي التهم القتال ودامت المناوشات والمقاومات اربع سنين حتى ارسلت الدولة عسكرياً جراراً ، وندبت كامل باشا لاجراء الصلح بين الدولة والعلويين فتم ذلك على يده .

* * *

استطال المسيحيون بعد حرب القرم	} مبدأ مذابح النصارى المعروفة بمحادثة سنة الستين وحادثة بيت مري ودير القمر
في هذه الديار ولا سيما في لبنان ، واخذت الدولة تثير الدروز على المسيحيين على	

ما يؤكد الغريون والمسيحيون من ابناء هذه البلاد ، وبقيت الحوادث لنوالى والاصابع العثمانية والاجنبية تعبت بعقول المغفلين ، وكانت الثورات على ما في تاريخ زحلة نوالى والخصام يزداد اتساعاً ، وعوامل الحقد تسكن القلوب فتحركها على جراويل واهراق الدماء ، وكان ذلك من اهم ذرائع النفاذ والتناهد بين المسيحيين والدروز ، وكان البلاد ألفت التعصب فتوالى عليها من العصبية القيسية والبيانية واليزيدية والجنبلاطية والمعروفية والكارمية والزحلية والقنطارية ، ثم بدأت العصبية المسيحية والدرزية ، فكانت الاخيرة اشهر من الاولى ، وتحفز الدروز للتكيد بالمسيحيين ولا سيما سكان زحلة ودير القمر الذين اوغروا صدورهم ببسالتهم وتفوذ كلمتهم لدى ابراهيم باشا والامير بشير ولما ضدتهم اياماً .

بدأت الفننة العظمى بهجوم سرازم من الدروز على قرية بيت مري في لبنان يوم ٣٠ آب ١٨٥٩ فانهمزم الدروز واحرقوا ثلاث قري مسيحية وقتل بعض رجالها ، وفي اربع التالي بدأت الدروز تغد على الخنارة مركز آل جنبلاط كبار مشايخ الدروز . قال مشافة : وفي شهر نيسان من تلك السنة ورد امر الى خورشيد باشا من السلطان باهلاك المسيحيين واطلاق ايدي الاوباش وذبح النصارى عن آخرهم ، فألح خورشيد

باشا على سعيد بك جنبلاط ان يصدع بالامر فأوعز الى رجاله بالهجوم على النصارى ، فقتل الدروز بضعة عشر من النصارى في الطرق ، ثم وقعت مناوشة في دير القمر عادوا منها مخذولين ، وأرغم طاهر باشا قائد الحامية في دير القمر نصارى الدير على تسليم سلاحهم له ، وبعد ان جمع سلاح المسيحيين سمح للدروز بالهجوم على المدينة فسالت الدماء انهاراً ثلاثة ايام فلم ينج من المسيحيين الا عدد قليل ، ثم احرقوا المساكن وارتكبت الجنود التركية مع النساء على عاداتها ما ارتكبت ، وبلغ عدد قتلى الدير على رواية مشافة ما يقارب النفي نفس من الرجال البالغين والنساء والاطفال ثم اعلم الدروز سيوفهم في اهل جزين . فحوادث الشام سنة ١٨٦٠ بدأت اذاً ببيت مري في السنة الماضية وثبت بدير القمر ومن هناك انتشرت في الاطراف .

وطلب والي دمشق الخراج المتأخر من دروز حاصبيا	} مذابح حاصبيا وراشيا ورأي انكايذين في اصل المذابح
وعين احد الشهابيين في فرقة من العساكر لشد	
ازره ، فتألب دروز وادي التيم واقليم البلان على	

الشهابي في حاصبيا وهاجموها ولم يلاقوا مقاومة شديدة من النصارى اقله عددهم ، وكان عدد القتلى متساوياً بين الفريقين ثم نزع من النصارى سلاحهم ، واخذ الدروز يفتكون بهم ويحرقون مساكنهم ، ثم نفخ العسكر التركي وترك الدروز وشأنهم مع النصارى فقتلوا منهم ٧٢٤ مسيحياً وقتل من الدروز والأتراك اربعون رجلاً . وفي اليوم الذي جرت فيه مذبحه حاصبيا باغت دروز حوران نصارى راشيا الوادي في بيوتهم وفي السراي على مرأى من الجنود التركية وبمساعدهم فاجهزوا على جموعهم وقتلواهم مع امراء الشهابيين ولم ينج منهم سوى اميرين ثم نهبوا بيوتهم ، وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة .

وهاجم دروز حوران بقيادة اسمعيل الاطرش مدينة زحلة فردم اهلها مراراً ، وطال القتال يومين فاضطر الدروز الى الرجوع عنها ، ثم عاد الدروز ومعهم الجند العثماني واحرقوا جانباً من المدينة واخذ الجند يرتكب الفاحشة واغتصبوا الراهبات ونهبوا الكنائس والاديار ، فلم يبق لدى قناصل الدول شك في ان الدولة العثمانية

هي التي تربد هذه المذابح وتديرها حتى لا تطالبها الدول بحماية المسيحيين وتجد سبيلاً الى مراقبة اعمالها الجزئية والكلية مما يسقط من منزلتها ، وقد هلك من الزحلمين نحو مائة انسان لانهم لم يمكنوا الدولة من ادخال جندها الى بلدهم . واسماعيل الاطرش هذا قتل يوم جاء لمعاونة ابناء مذهبه في وقعتي راشيا وزحلة ١٣٥٠ مسيحياً التجأوا من اقليم البلان الى شيخ المسلمين في قرية كناكر من عمل وادي العجم .

قال اللورد دوفرين : « لم يبق ادنى ريب يحول دون نسبة المذابح الاخيرة وجميع الحروب والاضطرابات والمنازعات التي انثابت لبنان في مدى الخمس عشرة سنة الاخيرة الى استياء الحكومة العثمانية من الاستقلال النوعي الممنوح للجبل ، فجعلت مرمى سياستها أن تبرهن على انه يتعذر العمل بطريقة الحكم التي منحتها الدول لبنان في سنة ١٨٤٥ ، ولهذا كان الاتراك يعثنون الفرصة لاثارة دفائن الاحقاد القديمة بين الدرروز والموارنة ولما ازداد تعجرف المسيحيين وتعصبهم بقوة المساعدات الاجنبية التي فازوا بها ، ثقل على الاتراك احتمال وطأة استقلالهم ، فعقدوا العزم على اتخاذ الدرروز آلة ليقوموا بهم ويضربوهم ضربة اشد ايلاماً مما تقدمها ، بيد أن ما حدث في حاصبيا وراشيا ودير القمر قد جاء مجاوزاً الحد المنوي لعدم توفر شروط اللباقة في خورشيد باشا واعوانه لانقاذ سياسة دهاء كهذه ، فافرطوا فيها بحيث افتضح سر سياستهم وكان له دوي هائل في الاندية الاوربية »

وقال أيضاً : « لما زرت هذه البلاد (لبنان) قبل استيقاط الفنتة ببضعة أشهر شاهدت أماراتها بادية في عواطف الفريقتين ، فالدرروز كانوا مستعدين للقتال والوارنة كانوا يعتقدون ان قداً ذنت ساعة فوزهم ، كما أن دخل الجمارك يثبت أن قداً دخل الى لبنان من كانون الثاني ١٨٥٧ الى الربع ١٨٦٠ أكثر من ١٢٠ الف بندقية و ٢٠ الف مسدس وكان من المشتهر انصراف المطران طوبها وشركائه الى ايقاظ الفنتة ١٠٠ الى أن يقول : فمن العيب وصف المسيحيين بانهم شهداء قديسون فهم يضاؤون جيرانهم الدرروزي في حروبهم «حجيجة وظلمة» الى الدماء ، فكثيراً ما كانوا يقتلون بعضهم مع بعض ولا يعفون عن النساء . يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الخازنيين منذ سنتين ، ومثل هذه المعاييب كثيرة في تاريخهم ، بيد ان الدرروز هم من هذا القبيل أكثر شفقة من

غيرهم فلا يقتلون بعضهم مع بعض ويحترمون النساء ، وعليه فمن الخطاء وصف القتال الذي جرى بين الدروز والموارنة بمثابة اعتداء وتبني برابرة على اتساع دين المسيح الودعاء ، بل هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في العهوية ، انزل الفانزوف في اعدائهم ذات البلية التي كانوا مهددين بها فيما لو تغلب هؤلاء ، واذا كان الدروز ارتكبوا في هذه الحروب فظائع أكثر بربرية من المعتاد فالسبب فيه تدخل الاتراك وشدة حقنهم على المسيحيين وقد أثاروه بتهديدهم وعجزتهم .

وقال فنصل انكلترا في دمشق على ذلك العهد : « لقد بقي من كل ما رتبته المصريون شيئا واحدا سالما وهو عتق المسيحيين من رقهم على ان هذا ربما يصير عاملا جديدا لاستئناف الاضطرابات لضعف الادارة العثمانية وثقلها ، لان الظلم يدفع الى المقاومة والضعف يزيد في التمرد ، والسكان مؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة ومن طوائف مسيحية متعصبة يعادي بعضها بعضا والحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع ولهذا أمست مضطرة الى إثارة طائفة على أخرى بايقاد جذوة التحاسد والبغضاء بينهما ، وبمثل هذه الوسائل تمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها بيد انها تخسر ثقة الرعايا بها وتعكر كأس الوئام بين العناصر المختلفة ، فتجول دون كل تقدم ونجاح » .

مذابح دمشق ورأي الغريب } وبعده هذ النصوص المعتبرة لم يبق شك في
والوطني في تعليقها } ان الدولة هي التي وضعت الخطة العوجاء
لذبح المسيحيين ليتيسر لها ان تمتلكهم وتضعف من ضلواء المسلمين أيضا شأنها في معظم
أحوالها في كل بلاد نزلتها .

لا يحكم الصياد أمثرا كه الا اذا عكر بطن الغدير .

وان الموارنة كالدرروز لا يخلون من المؤاخذة الشديدة ، اغتر كل فريق بين كان يزين له الشر ويحسن له العاقبة بعد ارتكابه فأتى ما أمر به ، فكان ذلك وبالاً عليه وعلى جاره ، ولم يخسر الدافع لها شيئاً . وما كان يحظر بالبال ان هذه الشرارة

تسري الى دمشق مدينة التسامح واللطف ويقوم رعاي المسلمين بمعاونة الدوروز يؤذون من أمروا بالاحسان اليهم بعد ان عاشوا و إياهم ثلاثة عشر قرناً في صفاء وهناء .
ويؤخذ مما قاله مشافة : ان مذبح دمشق لا علاقة لها بمجواث لبنان على ما قيل ولا تعزى لها الاسباب التي عزيت لتلك وان من أسبابها الاولية عبث النصارى بالشرعية التي أحدثتها الدولة على أثر حرب القريم مكرهة من دولة الروس ، وهي مساواة الرعايا بالحقوق المدنية واعفاء النصارى من الخدمة العسكرية ، وقيل ان الدولة رغبت في وضع هذه الشرعية التي يقال عنها المساواة وهي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبيها على النصارى وتجعل لهم سبيلاً الى بغضهم ومقتهم ولو كان النصارى وقتئذ على شيء من الحكمة لرفضوا إعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم من الوطنية وأبكت لسانهم عن المطالبة بحقهم .

قال : وكان مسلو دمشق عامة وسورية خاصة يسفهنون عمل الدولة التركية الذي قامت به مضطرة عقب حرب القريم وكثير تدمر المسلمين من السدولة مع القريم ، فأجابتهم انها لم تفعل ذلك الا مضطرة وبلغ من حقد المتعصبين انهم تأمروا وأنفوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية وإبدالها بدولة تعيد مجد الاسلام ولا تخضع للمسيحيين وبلغ الاتراك أمرهم فأوغروا صدورهم على النصارى ليلهمهم ويخلصوا من شرهم .

وبعد ان فصل هجوم النصارى على مطران الروم بدمشق ير يدونه على ان يرفع عنهم حيف الحكومة وطلبها بدل الخدمة العسكرية منهم ، وذكر كيف عرض المطران على والي بان النصارى تجمهروا جميرة العصاة وأرادوا الايقاع به قال : ان والي لم يشأ ان يردع النصارى رأساً وأناط بتأديبهم رعاي المسلمين الذين كانت الحكومة تخشى بطشهم ولا تجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب ، وكانت الحكومة غير راضية عنهم لفتكهم ببعض وزراءها وامتناعهم عن اجابة مطالبها ، ورغبة احمد باشا (والي دمشق) بانارتهم على النصارى كي يتخلص منهم او من بعضهم فيقتل عددهم وتضعف شوكتهم ويصبح إخضاعهم لاوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دولته

الخطر الذي كان يهددها به مسلمو دمشق الذين جاھروا بخلم دولة الاتراك عنهم وراسلوا دولة مصر لتأتي لنجدتهم ولم يفلحوا .

« فرأى وائي دمشق للوصول الى هذا الغرض ان ينصب المدافع على أبواب الجامع الاموي وقاية للمسلمين الداخلين اليه في أوقات الصلاة من غدر النصارى ! وأمر في عصر اليوم التاسع من تموز ١٨٦٠ باخراج الرعاع المسجونين من المسلمين بقصد تطوافهم في الشوارع وهم مكبلون بالقيود إرهاباً للثوار من المسلمين والدروز معاً ، فلما وصلوا الى باب البريد هجم بضعة من المسلمين على الخفر وبطشوا به وخلصوا رفاقهم ونادوا بالجهاد ، فهجم الاوباش على المسيحيين في بيوتهم ومحلاتهم ووضعوا السيف فيهم ، قتلوا الرجال وسبوا العيال وهتكوا الاعراض وراحوا بالعروض والأموال وقتلوا بعض الرهبان الفرنسيسكانين » .

وذكر برانت فنصل بريطانيا ان السبب الرئيسي في ابقاء جذوة الفتنه ان اولاد المسلمين أخذوا يرسمون صورة الصليب في الطرقات وبدوسونها ويهينون المسيحيين المارين ، فقبض عليهم « التفكيكي باشي » وقيدهم بالسلاسل واكرههم على تكليس الطرق ، فهجمت الغوغاء وأنقذتهم فاشتعلت الفتنه . قال : وعندي ان احمد باشا مخطي في ضعفه مع جلسته وعدم تحجازه الاحتياطات التي أشير عليه بها غير مرة ، وإصراره على ابقاء رئيس التفكيكية في مركزه ، مع اشتهاره بعدم الكفاية رغمًا عن تحذير عدة أشخاص من جميع الطبقات منه قبل ايقاظ الفتنه بعدة أسابيع ، وإهماله إنقاذ مسيحيي حاصبيا وراشيا نكتًا بوعوده لما أخبر بالخطر المحدث بهم ونقاعده عن استدراك مهاجمة زحلة وقلة اكراماته بذبح الدروز المسيحيين ان لم نقل بتواطئه ، وهو القائل على ما روي انه يوجد في سورية آفان كبيرتان هما المسيحيون والدروز فسكما ذبح احدهما الآخر استفادت الحكومة العثمانية . وإن حظر حمل السلاح على المسيحيين والسماح به للمسلمين والدروز لا يمكن تأويله الا بان حكومة تلك الايام كانت لاثمت لفتنة تحدث اذ انها تود إحداثها او لا تجسر ان تعامل الجميع بالسوية . وقال الماجور فرازر ان فؤاد باشا قال له : ان الدهشقين

يكرهون الاتراك وان من الضروري القاء الرعب في قلوبهم توطيداً لاركان الحكم العثماني فيتهجنون ركوب متن الفتنة .

وقد علل مشاقفة سبب فنسنة دمشق تعليلاً مقبولاً فقال : انه لم يكن لها تعلق بمحاذنة لبنان بل لها أسباب خصوصية نشأت عن تصرفات جهلة النصارى عندما عجز عقلاؤهم عن ردعهم ، فلما وضعت الدولة قوانين المساواة بين رعاياها من أي مذهب كانوا توسع جهلة النصارى في تأويل هذه المساواة بان معناها انه لا يجب على الصغير الخضوع للكبير ولا للوضع ان يحترم الرفيع ، وتوهموا ان أدنياء النصارى هم بمنزلة عظماء المسلمين ، ولم يريدوا أن يفهموا ان المساواة هي في الحقوق الشرعية والنظامية وان من الواجب حفظ اعتبار أهل الاعتبار بالدرجة اللائقة بهم من أية طائفة كانوا خصوصاً النصارى نحو المسلمين ، وعليهم ان يعرفوا بان كبراء البلاد ومعتبريها هم منهم والسلطنة مع وزرائها وعسكرها وجميع عظمائها من المسلمين ، وان النصارى في سورية هم الجزء الاصغر والاضعف في كل شيء ، وبكل الوجوه يجب على المسيحيين تقديم الاحترام الوافر نحو المسلمين ، والطاعة التامة لاولياء الامور فيما يرسمونه لهم اه . وفي الامثال « لن يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساوا هلكوا » .

ضحايا مذابح دمشق } وقد رقتصل الانكليز عدد من ذبحوا من مسيحيي
وتخر بها } دمشق بزهاء ٣٥٠٠ نسمة ، والغرباء الذي لجأوا الى
المدينة طلباً للنجاة نحو ٢٠٠٠ نسمة . وقال لورتيه : ان عدد من هلك من المسيحيين في
فتن لبنان وحوادث دمشق بلغ اثني عشر الفا ، وان في دير القمر وحدها تربة بناها ابناء
وطنه فيها ستة آلاف من المهالكين وهو عدد فيه نظر . وقد قتل بعض المسيحيين في محال
منفردة مثل مسيحيي جباع من عمل صيدا ، فان الدروز انقضوا عليها وحرقوا بيوت
المسيحيين ونهبوا القرى ، وات مائتين وخمسين نسمة من جزين كانوا في الغابات
فطاردهم الدروز من محل الى آخر وأتلوا بعضهم ، ولم يصل منهم الى قرب صيدا
الا خمسة عشر رجلاً فقط . وحرقت ميمس والكفير من عمل حاصبيا وهلك فيها
مائة وعشرون مسيحياً ، وخربت ثمانى قرى للمسيحيين في البقاع وحرقت ، وقتل من

بقي فيها من الشيوخ والاحداث بينهم النساء والاطفال واعتدي على العذارى ، وشوهدت من بيروت ثندان وثلاثون قرية تحترق وذلك يوم ٢٨ و ٢٩ وامست بعض البلدان الزاهرة في لبنان مهجورة .

قال كراهام : ان ستين قرية وبلدة في لبنان قد دمرت واصحج هذا الجبل بلقماً ويتعذر معرفة عدد المسيحيين الذين قتلوا في مذابح جبل لبنان فالخمسينات متباينة فيقدر بعضهم القتلى باربعة آلاف ، وآخرون بعشرة ، وهذا العدد الاخير مبالغ فيه كثيراً . قال : وارجح انه لا يتجاوز الاربعة آلاف فقد جمعت عدة انباء موثوق بها وعارضتها بعضها على بعض فتبين لي ان عدد القتلى في دير القمر يختلف بين ١١٠٠ الى ١٢٠٠ وفي حاصبيا وراشيا ٧٠٠ وفي صيدا ٥٥٠ واذا اضفنا اليها ٢٠٠ لاجيء قتلوا في ٣١ و٣٠ ايار في جوار بيروت والفس مسيحي ذبحوا في بيوتهم على ما ارجح فلا اعتقد ان عدد القتلى يتجاوز ٣٥٠٠ ذكر ، وفقدتم يحرم البلاد ايدي عاملة كانت يتوقف عليها نجاحها .

وزعم لنورمان انه يريد ان يكتب تاريخاً لارواية خيالية ، ولكنه كان الى المبالغة واستعمال اساليب الخطابة والخيال ، ومع هذا ننقل بعض ما ذكره مما عساه قد فائنا تفصيله . اما المبالغات في الارقام فما نكته الى فطنة القاري يرددها ببصيرته لان قناصل الوقت في هذه الديار اصدق قبيلا ، ورواياتهم اقرب الى الصحة والسداد خصوصاً من لم يكن لدولهم رأي خاص الا الحقيقة . فقد ذكر لنورمان ان ستين قرية في الغرب واليمن اصحجت في ثلاثة ايام خراباً بباباً ، وانه قتل في مقبرة صيدا مائة واثنان وعشرون رجلاً وقتل الضبطية ١٧ شخصاً على أبواب صيدا ، وأن الفاً ومائتي مسيحي اختبأوا في غابة على اربعة فراسخ من صيدا فأحرقها الدروز والمسلمون فلم ينج منهم انسان وهلكوا ذبحاً وحرقاً ، وانه قتل في دير الخصل على مقربة من صيدا مائة وخمسون راهباً وأخاً ، عدا ما سلب منه من العروض والاموال التي جاء بها سكان الجوار واودعوها الدير لانه كان محترماً من الكافة قبل هذه الحوادث ، وانه قتل في حاصبيا تسعمائة وخمسة وسبعون مسيحياً لم ينج منهم انسان ، وقتل من امراء الشهابيين في وادي التيم احد وثلاثون رجلاً ولم ينج منهم سوى ثلاثة لان ضلعهم كان مع

فرنسا ، وانه احرق في أرجاء حاصبيا قربنا الكفير وشويا وفي عمل راشيا قرى بيت لهيا وكفر مشكة وعيحا وحرقت حاصبيا كراشيا عن بكرة أبيها ، ولما جاء جيش الاحتلال الفرنسي في شهر ايلول سنة ١٨٦٠ الى زحلة رأى نحو ستائة جثة من جثث الدروز ملقاة على الارض الى جانب جثث قتلى المسيحيين ، وان المدينة خربت ولم يحدث فيها قتل الا في دير اليسوعية والباقي من أهلها هلكوا في الدفاع عن بلدهم وانه قتل في دير التمر ٢٢٠٠ انسان وان ثلثائة انسان كانوا مختبئين في دار فلما جاء خورشيد باشا قائد بيروت قتلهم عن آخرهم ، وان مسلي بيروت وفي مقدمتهم عمر بهيم أعظم تجار تلك المدينة فتحوا بيوتهم للاجئين اليهم من المسيحيين ، واخذوا يوزعون عليهم الاطعمة وحالوا بحمكتهم دون تدخل الرعاع من ابناء طائفتهم في الامر فحفظوا من غلوائهم .

وذكر ان عدد الهاككين من ٣٠ ايار الى ٢٠ حزيران في لبنان وسورية المجوفة كان اربعمائة انسان في المتن والغرب وجوار بيروت ، والفأ وثمانائة في صيدا وجزين والبلاد المجاورة ، والفين وخمسمائة في قضاء حاصبيا وراشيا ، ومائتين وخمسين في زحلة ، والفين ومائتين في دير التمر ومئة واحد وعشرين في بيت الدين ، وخمسمائة في بلاد بعلبك اي ٧٧٧١ شخصاً من الرجال والنساء والاطفال ، وانه خربت ٣٦٠ قرية وهدمت ٥٦٠ كنيسة ، وحرقت ٤٢ ديراً ، وهدمت ٢٨ مدرسة كان فيها ١٨٣٠ تلميذاً ، وخسرت البلاد التي وقعت فيها الفتن جميع محاصيلها السنوية ، وقدر مجموع ما فقد من اموال المسيحيين وعروضهم في تلك البلاد بخمسة وتسعين مليون فرنك يدخل فيها اربعة ملايين قيمة تعطيل التجار عن اعمالهم مدة شهرين .

اما بشأن دمشق فقد أغرق في التقدير ايضاً فقال : ان الحريق والنهب والقتل دام خمسة ايام من اليوم التاسع من تموز الى اليوم الثالث عشر قتل في خلالها ٨٥٠٠ مسيحي ودمرت ٣٨٠٠ دار ، وقدرت الخسائر بمائة مليون فرنك ، ثم قدر عدد من هلكوا من المسيحيين بالامراض والقلة بعد المذابح بثلاثين الف نسمة ! وقال : اذا اضفنا هذا العدد الى من نكبوا في هذه المذابح بلغ من هلك في دمشق ولبنان ٤٦٣٠٠ انسان خلال سنة واحدة بتعصب المسلمين والدروز . قلنا وجميع التقديرات ثبت ان

القتلي ومن هلكوا بسبب مصائب تلك الفئنة والامراض لا يتجاوزون ربع ما قدره صاحب كتاب مذابح الشام على ان هذا العدد لا يستهان به أيضاً .

عمل الدولة والدول } ولما ترامت هذه الاخبار المشؤومة الى الغرب أرسلت
عقبى الحوادث } الدولة احد كبار وزراء ذلك الوقت فؤاد باشا لانزال
العقوبة بالفاعلين من المسلمين والدروز ، وأرسلت فرنسا عشرة آلاف جندي للحفاظة
ومنع التعدي وكذلك باقي الدول الاوربية ، منها من ارسل مراكب حربية ، ومنها
من ارسل نواباً لاصلاح الحال . وخيم جند فرنسا في البقاع تسعة اشهر وظلت السفن
الاجنبية راسية في مواني الشام وعددها عشرون بارجة ، وعقد في بيروت مؤتمر دولي
مؤلفاً من وكلاء الدول الخمس انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا ، وضعت
اساس نظام جديد للبنان اقره السلطان عبد المجيد ووافقت الدول عليه (١٨٦١ -
١٢٧٧) ثم عدل هذا النظام سنة ١٢٨١ واشتركت به دولة ايطاليا مع الدول
السابق ذكرها .

واعاد فؤاد باشا الامن الى نصابه ونفى بعض الاعيان من دمشق لانهم لم يحولوا
دوت الاشقياء والسفلة وما اتوا من المنكرات ، وقتل ١١١ مسلماً رشقاً بالرصاص
وشنق ٥٦ ونفى ١٤٥ وحكم بالاشغال الشاقة على ١٨٦ استخدموا في انشاء الطرق
وقضى غياباً بالقتل على ١٨٣ وفي عداد الذين قتلوا ١٨ شخصاً من كبار أسرات البلاد
واناس ذوو وجاهة ، وسمح لجميع المسيحيين الذين دانوا بالاسلام كرهاً ان يعودوا
الى دينهم وعددهم خمسمائة ، وأخلت ثلاث حارات في دمشق لسكنى المسيحيين
وجند ثلاثة آلاف جندي من هذه المدينة وجعل البديل العسكري مائتي ليرة ،
وارسل زهاء الف رجل للنفي والسجن الى الاستانة وغيرها ، وقتل والي دمشق المشير
احمد باشا رمياً بالرصاص لتساهله في اطفاء النينة وقال هذا يوم قتل : اني مظلوم
وسماه الاتراك بالشهيد ، وكان من عطاء الدولة تربي تربية عالية في مدارس الغرب .
وقيل ان فؤاد باشا عجل بقتله مخافة ان تشيع الاوامر التي وردت اليه من الاستانة
ونفذها ، وانه لذلك بادر باخذ حقبة اوراقه منه ساعة اجتماعه به ، وقتل قائد حي

النصاري وقائدي حامية حاصبيا وحامية راشيا ، وعزل خورشيد باشا قائد الجند في الساحل ، وعوض على المنكوبين من مال الدولة والاهلين . وقد قال قنصل بريطانيا : ان الخسائر المالية بدمشق من حريق ونهب واعلاق وعروض وغيرها لا تقل عن مليون وربع ليرة ، وكان يرى ان خمسة ملايين ليرة لا تكاد تكفي للتعويض عن تخريب الاملاك ، وعن خسارة الاموال والحلي والجواهر والامتعة الثمينة والسلع والملابس قال ذلك لفيؤاد باشا لما قال له ان يفرض غرامة قدرها ٢٥ مليون قرش اسيك زهاء مائتي الف جنيه . هذا عدا ما اصاب النساء من هتك الاعراض وفض الابكار وركوب العار وبهمن من الاكراد واهل البادية كما يباع الاماء كل واحدة بمئة الى مئة وخمسين قرشاً .

اما الدروز في لبنان ووادي التيم ودمشق وحموران فقد نفي منهم نحو مئة الى طرابلس الغرب ، ولم يقتل احد من الدروز لان المسيحيين طلبوا محامتهم بالشرع ولا بد في الشرع من شهود عدول ، والمسيحيون في هذا الحادث لانصح شهادتهم ، والدروز لا يشهد بعضهم على بعض ، والا فان فيؤاد باشا اراد فيما قيل ان يقتل منهم خمسمائة رجل . ولاحظ الماجور فرازر بقوله انه اذا لم يحكم على غير سبعة وخمسين قاتلاً فيستنتج من ذلك ان معظم من اشتركوا في المذابح لم يزالوا مطلقاً سراحيهم ، لانه من المستحيل ان يعتقد بان اكثر من ثمانية آلاف شخص ذبحهم سبعة وخمسون رجلاً دع النساء السبايا واللاتي عبث بطهارتهن . وذكر آخر ان الدروز لم يرتكبوا الفاحشة مع النساء وتركوا ذلك لرعاي المسلمين .

وهنا لا بد من التنويه بعمل اكثر عقلاء المسلمين	} عمل العقلاء في دمشق وبيروت ورأي مؤرخ منصف في المسلمين
في دمشق وبيروت خاصة ، وما بذلوه لحقن دماء	
ابناء ذمتهم من مسيحيين ومسيحيات ، فقد اقتدوا	

الوقفا منهم على ما يقضي بذلك الدين والشرف ، ولولا ذلك لم يبق منهم ديار ، وفي مقدمتهم الامير عبد القادر الحسيني ، فشكرته الدول النصرانية جمعاء ومما قالته الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند في شكر صنيعه : انها عرفت من سلوك سموه

الفرق بين المسلم ذي العقل الراجح ، والجبناء المتظاهرين بالتدين الذين عملوا باثارتهم التعصب على إبادة كثيرين من المسيحيين العزل . وقد كان للشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي ومحمود افندي حمزة واسعد افندي حمزة والشيخ سليم العطار وسعيداغا النوري وعمر اغا العابد وصالح اغا المهابني وعمر بيهم الى عشرات غيرهم من اهل العلم والسرادة في دمشق وبيروت ممن فتحوا بيوتهم لايواء مواطنيهم المسيحيين يد طولى في هذا الشأن تذكر فشكر ولولا الوثام لهلك الانام ولقد قال السيد محمود حمزة من قصيدة في تقبيح ما صدر عن رعاة الدمشقيين من افعال القتل والنهب :

يا وحوشاً صادفت في غابها آمناً فاستقبلته بالسهام
ويحكم ما خفتم سلطانكم ان مولاكم عزيز ذو انتقام

الى ان قال :

اذ قوام الدين والدنيا معاً بابتعات الرسل او عدل الامام
بئس مصر قد دخلت من حاكم جور سلطان ولا عدل العوام

قال مشافة خلال كلامه على فلاح مسلم رأى مسيحياً بين القتلى الذين اهلكهم الجزائر على باب عكا فاخذته الى قريته وضمده جراحه ولما عوفي حمله الى دمشق لئلا ينقل خبره الى ذلك الطاغية : فهذه القصة ذكرني ما ورد في الانجيل الشريف عن السامري الذي ضمد جراحات الواقع بين اللصوص ، ولكن ما عمله هذا المسلم مع المسيحي هو اعظم لانه خاطر بنفسه لكي ينقذ الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه قبلاً ، وهكذا يوجد من الصلاح والمروءة بين المسلمين من يسدون المعروف للغريب عنهم ، وكفى دليلاً على ذلك ما شوهد بالعيان من اعمال حضرة الامير عبدالقادر الجزائري والمرحوم صالح اغا المهابني والكثير غيرهم من ائقياء المسلمين من طبقات مختلفة في حادثة سنة ١٨٦٠ فقد صانوا ستة عشر الف نسمة مسيحية عن الذبح بسيف الاشقياء والثائرين الذين لم تضمنهم حكومة دمشق لغاية لم تعد مكتومة وهي لم تعترف بها ولكن القرائن اثبتتها والنفوه بها ممنوع اه .

من المسؤول عن هذه
الفننة الشعواء } وقد كانت هذه الفننة سبب خراب قسم عظيم من
مدينة دمشق ، كما خربت مئات من القرى في
لبنان ، وخربت زحلة وحاصبيا وراشيا ودير القمر الا قليلاً ، وأهم ما خرب الكنائس
والاديار القديمة والبيوتات التاريخية الجميلة ، وهام كثير من المسيحيين من دمشق
وغيرها على وجوههم في البلاد ، ومنهم من هاجر الى مصر وقبرص واليونان والاسنانة
وأصيب المسلمون باضرار كثيرة ولربما نجا المجرمون وقتل من كان جرمهم خفيفاً .
والذنب كل الذنب على الحكومة وعمالها اولاً لما أبدوه من الضعف ثم على الاقرب
فالاقرب من الاعيان والمشايخ والخاصة ثم على العامة .

ولو قام كل واحد من الأعيان والمشايخ بواجبه خلف الشر كثيراً في دمشق ،
وربما امتنع عامة الاشقياء عن الاعمال على الرغم من تحريض الحكومة لهم سراً او من
ابدائها تساهلاً ظنوا معها انها تدعوهم الى عمل ما عملوا . فقد ثبت ان والي دمشق
قال للامير عبد القادر الجزائري وهو استأذنه للمحافظة على المسيحيين واطفاء الفننة :
ليس لي من الامر شيء ، واذا كنت تستطيع انت ان تحافظ بجماعتك الغاربية فلك
ذلك فأجابه : ان السلاح ينقصني ، فأعطاه سلاحاً لاربعمائة مقاتل . وفي تحفة الزائر
ان الامير عبد القادر استأذن الوالي يوم فننة لبنان ودمشق في طلب المشايخ الدروز
الى بعض القرى خارج البلد والاجتماع بهم ليعظهم ويحذرهم سوء عاقبة ما اعتزموا
عليه فأذنت له وخرج اليهم وتكلم معهم بما أثر فيهم فأذعنوا لنصائحه ووعدوه بانهم
لا يجر كون في دمشق ساكنين ولا يثيرون فننة ، ولما كانت امر الله لا يرد قويت
بواعث الفننة ولم ينجع فيهم نهي الحكومة ولا أثرت فيهم شدة انتقامها . قال :
واستمرت الفننة قائمة ونارها موقدة اربعة عشر يوماً في دمشق ، وما أوقع احمد باشا
الشهيد وجماعة من رؤساء الجند الا اغتزاره باقوال من كان يستبعد ان يقع في
دمشق ما وقع في الجبل ، لدعوى وجود البواعث المقتضية لذلك بين اللبنانيين
وعدمها في دمشق .

ومن القران القوية على ان الحكومة الاستانة بدأ في إثارة هذه الفننة ، انها
أرسلت بعض رجالها قبل وقوع المذابح باشهر الى الشام وبعد ذلك تبدل وجه كل

شيء وتغيرت معاملة الحكومة للمسيحيين . ومن يحسن الظن بالحكومة التركية ينسب ما جرى الى إهمال العمال والى ما كان لديهم من الوسائط القليلة والرجال ، وان الحكومة أرادت ان تنقم من كانوا يتطلعون الى دولة أخرى تحكمهم كالدولة المصرية ، ولسان حالها في الحقيقة بشأن هذه الفئنة المثل المشهور « لم أمر بها ولا ساء لني » وما ذا بهمها قتل نحو احد عشر الف نسمة وخراب قدر بيضعة ملايين من الدنانير وغير ذلك من المقايح والمساوي ، اذا كانت في ذلك تأييد سلطانها على بلاد ما زالت سلطتها عليها اسمية منذ فتحها .

وقد ذكر العارفون من العرب والفرنج انه لولا اندباب الدولة لمثل الداهية فؤاد باشا لعقوبة الرعاع وغيرهم لكانت اربا اشتطت في معاملة الدولة وسلبتها بعض ولاياتها او لمزقتها الا قليلا . ومن حسن الحظ ان هذه الفئنة لم تعد دمشق وأواسط لبنان ونها منها شماله بفضل رجل اسمه يوسف كرم حال دون انبعث الدروز الى جهاته ، ولو انصلت نيران الفئنة باقاليم الجنوب والشمال ولم تبق محصورة في الوسط لكان الهول أعظم والخطب أدهى وأمر . ونجت جنوب أرض الشام وشمالها لضعف الحكومة فيها ، ولان القول الفصل في كل بلد كان لجماعة من عقلائها ووجوهها فان الرعاع حدثهم أنفسهم ان يبطشوا في حمص وحماة وحلب وطرابلس واللاذقية ويافا وغيرها فحال عقلاء تلك المدن دون الايقاع باحد من أهل وطنهم ، ولم تبطل بلادهم بما ابتليت به سورية المحوفة .

سوء أثر حوادث الشام في الدولة } سبع عشرة سنة مضت على الدولة وهي
ومنازعة الدول لها في سلطتها } تحرك النعرة الدينية لتضرب الدرزيين
بالمسيحي والمسيحي بالمسلم ، حتى وصلت الى هذه النتيجة المرمضة من إهلاك من أهلك
وإضعاف من أضعفت ، فانقمت من أهل البلاد الذين قتلوا بعض ولايتها قبل دخول
المصريين ثم عاونوا محمد علي الكبير معارضة فعالية وأدبية وبالغت في عقوبتهم حتى
أنستهم ما استمتعوا به على عهد حكومته الرشيدة وخلصت من حماية فرنسا وانكلترا
للموارنة والدروز ، ولكن السياسة التي اتبعتها كادت تفشل وتخرج البلاد كلها من الحكم

العثماني ، لولا الشدة في عقاب من قضت السياسة بعقبه ، والامراع بتنفيذ الاحكام والتعويض على المنكوبين . ولم لم يقو فؤاد باشا الا على المسلمين لانهم لا سباج لهم الا الدولة العثمانية ، يؤثرونها على غيرها مع اعتقادهم نيلها وسوء ادارتها ، اما الدوروز فان لهم كالموارنة سنداً قوياً يحميهم . ولذلك لم يؤخذ أشقيائهم بما أجرموا ، وهذا من غرائب السياسة في هذا العصر ان يجعل القاتل في حل مما أتاه . ولكن المسلمين من جهة ثانية انفعوا بهذه العبرة التي وقعت لهم وان كلفتهم كثيراً ، فأصبحوا لا يتقون برجال الدولة على الجملة ، ويعتقدون ان الظاهر من أقوالهم غير الباطن ، وان الدولة متى اقتضت مصلحتها تهلك أمة حتى تستفيد فائدة صغيرة ، وتخرّب بلداً اذا كان من ذلك منعم ترجوه . وبهذا العمل الأخرق الذي قصدت به الدولة التقرب بين اجزاء قلوب أبناء الوطن الواحد المشتركة منافعهم ، المتحدة مرافقهم ، قد سلبت شطراً من سلطتها فتفتحت ابواب بلادها للدول اوربا بان اعطيتها الحق لحماية طوائف من رعاياها ، وكانوا لا يرون غيرها مرجعاً لهم في الشام ، وأوجدت مسألة « حماية الاقلية » على مقياس واسع ، فنتج من ذلك انشاء حكومات داخل حكومة ، واصبح رؤساء الدين من المسيحيين يراجعون العمال في شؤون طوائفهم في التافيات والمهات ، ويريدونهم على تأييد مطالبهم وان كانت جائزة احياناً ، وصار العامل اذا لم يخفض جناح الذل للرئيس الروحي على ما يجب بقبيله من وظيفته بما لديه من الوسائط الفعالة . وامست دور القناصل بعد الحادثة محاكم دائمة للنظر في قضايا من علقوا آمالهم على الدولة التي تمثلها تلك الدار . وغدا قنصل روسيا مسيطراً على مسائل الروم الارثوذكس ، وقنصل فرنسا الحاكم المتحكم في قضايا الكاثوليك ، وقنصل بريطانيا العظمى مهيمناً فيما يعرض للبرستانت والدوروز وغدا اهل كل نخلة يعملون من الدولة التي يمتون اليها معقد آمالهم ، ويدعون في سرهم وجهرهم ان يقرب ايام حكمها مباشرة عليهم ، ونزل كثير من الطوائف عن شخصياتهم فأصبحوا عرباً بالدم متفرنجين بالتربية والعادات ، يحتقرون ما كان عليه اجدادهم ، ويغالون في اقتباس ما عند غيرهم ، خصوصاً اذا كانوا يتقبلون نخلتهم ويرون في الآخرة رأيهم . على ان الحادثة فتحت لجميع السور بين ابواب الاخذ عن الغرب وما كان ذلك مما اضر على اطلاقه ، بل جاءت منه فوائد

مهمة في باب الحضارة . والعبرة المهمة التي اخذها الناس من هذه الفئنة المشؤومة ايقان
 جمهور تلك الطوائف التي عبث بها العاشون ، ان النبعة على قدر الفهم وان القتلة
 وارباب المتارة نال شرهم الابرياء من طوائفهم ، وانه لا يؤخذ اذا جد الجسد غير
 اهل المدارك وعيون الناس .

وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب
 وجرم جره سفها قوم فحل بغير جازمه العقاب



العهد العثماني

« من سنة ١٢٧٧ الى ١٣٠٠ »

— ٣٥٥ —

البلاد بعد فننة }
سنة الستين } خرج الناس في دمشق ولبنان بعد المذابيح الفظيعة في
تلك السنة المشؤومة ، سنة الستين بعد الثلاثمائة والالف
ميلادية ، وقد خسروا مادياتهم ومعنوياتهم . هلكت النفوس التي حرم الله قتلها ،
وهلك الوف من المسيحيين ومئات من المسلمين والدروز ، وخسر أهل المدن والقرى
اموالهم ، وخرت الدور والقصور ، وحرقت البيع والاديار . وكانت الخسائر في
المعنويات اشد لأن الغرب أساء الظن بأهل هذه الديار ، واجمل حكمه عليهم كافة
وعدتهم متوحشين ظالمين ، ولم يستطع احب الناس من الاوربيين للمسلمين ان يدافعوا
حق الدفاع عنهم ، مع علمهم بان الفننة امر دُبر بليل ، والدولة هي المسؤولة اولاً وقد
رجحت كفة الدروز في مدينة دمشق بما جاءهم من نجات الخورانيين ابناء مذهبهم
فكان من الدروز ان اشتركوا اكثر من المسلمين في هذه المذابيح . وكان للجنود
النظامي وغير النظامي من الاجناس المختلفة يد في قتل المسيحيين في ضواحي صيدا
وببروت وديرا القمير وحاصبيا وراشيا وجزلة ودمشق وغيرها ، وهم الذين هتكوا الاعراض
على الاكثر فباؤا بالخزي والعار ، واخذت اوربا بعد ان قويت علاقتها التجارية بالشام
تسعي الى ثقليلها ، لان كابوس الفننة استولى بعد تلك الوقائع على الناس في الغرب
والشرق سنين كثيرة ، وربما دام حتى انقرض من شهدوها وسمعوا بفظائنها .

جمعت الدولة للكنوئين غرامات حربية من الاهلين بما زادت عن طاقتهم ، ولم يصل الى المصايين كما قال مشافة اكثر من ربع الذي تكلفت له الدولة ، فضاع الربع الثاني في النفقات اللازمة ، والثالث اختلسه أمور والحكومة ، والربع الرابع ربحه صيارفة اليهود ، وبالجملة فان الخسارة وقعت على الدولة والمسلمين والنصارى ، ولكن الدولة استعاضت عما فقدت بتذليل الرعايا واخضاعهم لكل ما ترسمه عليهم ، حتى لقد جبي فؤاد باشا بقايا الاموال في دمشق التي اعيا الولاة تحصيلها على ايسر وجه ، ولم يبق للعشائر رؤساء تُعيب الحكومة بمعارضة او امرها .

وخرج لبنان من فنننه ممنوحاً سنة لآلاً ادارياً ، واخذ يستمتع منذ سنة ١٢٨١ بنظام خاص فينتخب له الباب العالي متصرفاً مسيحياً بموافقة الدول الست العظمى ويعطي الدولة بالاسم ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس خراجاً سنوياً وبقيت تسد العجز في موازنة الجبل مدة طويلة ، واهم ما ربحه لبنان القضاء نهائياً على سلطة ارباب الاقطاعات . واصبح كما قال بعضهم في عهده الجديد ملجأً للاحرار من كل نحلة كما كانت بفضل الامراء المتولين عليه من آل عساف وآل معن وآل شهاب ملجأً للطوائف الكاثوليكية .

اما مسلمو دمشق فبدأت ايام ذلم بالقضاء على كبرائهم ، وكان في قتلهم وتشريدهم عبرة لمن خلفهم او نجا من المعصية ، واصبحوا عميد الدولة حقيقة في كل ما تأمر به ، حتى ان منهم من كانوا لا يراجعون والي وان كانت غلظه ظاهراً كل الظهور حتى لا يغضبوه بزعمهم ولطالما حاول بعض الولاة العقلاء ان يعلم حسن الدفاع المعقول عن حقوق الاهالي ، فكان جوابهم ان افعلوا بامولانا ما تشاؤون فاننا لانحب المناقشة مع العظاء . افراط في العهد الاول ونفريط في العهد الثاني وغضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في قوله .

السلطان عبد المجيد } توفي السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧ (١٨٦١)
 وخلفه عبد العزيز } اي بعد مضي اشير من انتهاء فنة الشام ، وكان
 عهده سيئاً يحكم في شؤون المملكة السراري والجواري والمقربون في القصر السلطاني

ويسرف السلطان في الاموال و يهدد ثروة السلطنة ، وكان اسرافه مبدأ ارتباك الدولة في ماليتها — كما كان الخديوي اسمعيل مبدأ خراب مصر بما ارتكبه من الاسراف والبذخ — فان عبد المجيد لما زوج ابنته فاطمة من علي غالب بن رشيد باشا أنفق على الجهاز والعرس مليوني ليرة افرنسية . وكان كما قال دي لاجونكبير أكثر ملوك بني عثمان انسانية ، اكتشف عدة مؤامرات رُتبت للايقاع به فكان كل مرة يعفو عن المتآمرين ، فحمل الى قبره أسف أمته وحرمة اورباله التي أثنت عليه على الرغم من مخائع الشام وجدة ، وذلك لكونه لم يقض على عمل السلطان محمود في الاصلاحات ولانه ساعد ما وسعته قوته على تأييدها والاحتفاظ بها .

خلف عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز ، وأخذ لأول مرة يهتم لتنفيذ خطط الاصلاح التي وضعها ابوه واخوه أولاً ، وبدأ بنفسه في اصلاح المالية ، فألى ان لا يتزوج بغير امرأة واحدة ، وأبطل الاسراف في نفقات قصره ، فتخلى عن جزء مهم من مرتباته ، ولم يلبث ان عاد الى طبيعته في الترف ، وعاد الاسراف في أموال السلطنة الى أشبع صورة بحيث لم تأت سنة ١٨٧٥ م حتى أعلنت الدولة إفلاسها ، وتمت لو تقترض من مصارف اوربالا بفائدة اثني عشر بالمئة . قال في التاريخ العام : ولسوء الحظ ان السلطان عبد العزيز نسي حالاً نياته الحسنة الاولى ، وأصبح في الحرم تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم وخادمة ، وكانت تمتد كل يوم خمسمائة مائدة ويمس الى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً .

نشر اول قانون للولايات على اصول فرنسا سنة ١٢٨١ (١٨٦٤) وكان السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦) نشر خطأ سلطانياً يقضي بادخال اصلاحات ادارية كثيرة في السلطنة العثمانية ، عاقت حوادث الشام عن تطبيقها في ربوعه ، فأخذت البلاد بعد الحوادث المشؤومة لتدرج نحو المدنية ، وقد تخلصت من أرباب الاقطاعات كل التلخص ، لكنها لم تخلص من أرباب النفوذ في المدف والقرى ممن كانوا يسرقون الامة والحكومة معاً ، ويقاسمون الولاة والعمال على الارباح . اما الولاة في اول القرن والقرن الماضي فكانوا لا يهتمون الا بالاحتفاظ بولابتهم ، وبدلون بسرعة كما قال احد العارفين من الاوربيين ممن يجولون كثيراً

أخلاق الشعب وادارة الاحزاب وسياستها ، فينبذون وراء ظهورهم الاهتمام بالنجاح
الولايات لانهم موقنون بقصر مدة ولايتهم عليها ، فيكبتون مدة حكمهم على جمع
الاموال الوافرة بقدر ماتمكثهم الحال . وفي أواخر هذا القرن تبدلت الاحوال فأصبحت
الدولة تبعث الى الشام باعظم رجالها يتولونها ، وفيهم المستقيم العفيف عن أموال الناس
العارف باصول السياسة والادارة .

وفي سنة ١٢٨٦ كانت الواقعة المعروفة في جبال العلوية بوقعة الوالي ، وسببها
ان طائفة الكلبية ظهر منها شقاوة ، وخالفت اوامر الدولة فأرسلت هذه والياً لتمهيد
الامور وارجاع العصاة الى الطاعة ، ومعه جيش قدر بعشرة آلاف فسار الى قرية
الجديدة وربط فيها ، فأرسل الوالي يطلب مقدمي الكلبية ووجوه العلوية ومقدميهم
ومشايخهم المعتمد عليهم من قضاء صافيتا الى ناحية الجباق ولما وافوه قبض عليهم جميعاً
وسار الجيش الى قرية المرج وامر بحرق القرى اكب دساكر تلك الجهة ،
كما احرق بعض قرى الكلبية والنواصرة ثم مضى الى بني علي واحرق وافسد وعذب
جميع الطوائف العلوية من عمل صافيتا الى الجباق ، ولما شفيت صدور الجيش من العذاب
والتعذيب ، التأم مجلس اداري في جبلة فحكم بصلب ثلاثة من أعظم الطائفة الكلبية
وصلب آخر من بني علي ، واخذت الحكومة الباقيين الى بيروت فبجنتهم خمس سنين
ثم برأتهم واطلقت سراحهم .

ويحدثنا الشيوخ ان ايام السلطان عبد المجيد وعبد العزيز كانت سعيدة على
الشام في الجملة ، وان كان ذلك الدوران مبدأ تصفية حسابات الدولة ، فقد اعلنت
رومانيا في ايام عبد العزيز استقلالها ، ونحلت الدولة عن الصرب ، وطلب سكان
كريت (اقر يطش) ان تدخل الاصلاحات على جزيرتهم فلما رأوا اهمالاً من الدولة
طلبوا ضمهم الى اليونان ولكن الباب العالي قوي عليهم ونجحت سياسته . وفي سنة
١٨٦٨ نزع مصر عن الدولة واصبحت خديوية تدفع خراجاً معيناً للسلطنة ثم هاج سكان
البوسنة والمهرسك وساءت حالة السلطنة واصبحت الديون العمومية اربعة مليارات فرنك
بعد ان كانت قبل عشر سنين ٣٧٥ مليوناً انفقها السلطان في خصوصياته . وينبأ
كان عسكر الدولة يحتاج الى المال في بلغاريا ، والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ

اشهر ، كان عبدالعزیز يفكر ان ينقل قسماً من ثروته الخاصة على باخرة اجنبية الى اودسا . هذا والثورة فاشية في بلغاريا والصرب والجبل الاسود تحاربان الدولة ، واوربا تخاطب الحكومة في امر المسيحيين الذين كانت تخشى على حياتهم مخاطبة الامر للمأمور فتمس كل يوم عاطفتها ، وشبرت الدولة افلاسها ولم يصرف السلطان من الاموال التي اقترضها سوى واحد من خمسة عشر على الجيش والاسطول . برهان واضح على قبح الحكم المطلق كيف كان نوعه وحالة القائم به ، وانه اذا انفق ان جاءت فيه بعض ايام راحة فهي نسبة لا تكون معياراً ، ولم ترجح الدولة من عهد عبد العزيز سوى تأسيس نظارتين مهمتين العدلية والمعارف .

خلع السلطان عبد العزيز } شققت السلطنة بادارة عبد العزيز وكادت
وتولية مراد الخامس } لتداعي اركان الدولة وهو لاه في افراجه
لايبالي بما تحبوه الايام ، ما دام كل من تحت سماء السلطنة عبيده الخاضعين ، فأصبح
لا ينفذ امراً للوزارة وكأنه عرف حاله فاخذ يفاوض سراً امبراطور روسيا ليحميه
فاطلع الوزراء على الامر فلما رأوا سوء المغبة عياناً تأمروا على خلعهم فاجتمع الصدر
الاعظم مدحت باشا وناظر الحربية حسين عوني باشا ورشدي باشا المترجم من اعظم
رجال السلطنة بالاتفاق مع الشريف عبد المطلب وكان ذلك برأي مدحت باشا اولاً
واسرعوا في خلع السلطان عبد العزيز على حين فجأة ، قبل ان ينقل ثروته الى الديار
الاجنبية ، ويطلع على ما دبروا له فيبطش بالمتآمرين ، وذلك بفتوى شيخ الاسلام
حسن خير الله افندي اثبت فيها عليه العتة والجهل بالامور السياسية ، والاسراف
في اموال الامة بما لا يستطيع تحمله وانفاقه في شهواته ، واخلاقه بعمله في امور الدنيا
والدين مما ساق الملك والملة الى الخراب . ونصبوا بدله السلطان مراداً الخامس .

ولما كان السلطان عبد العزيز على جانب من عزة النفس وشتم السلطنة صعب
عليه الخلع فطاب مقراضاً يقص به شعره فانخر بقطع بعض عروق يديه وقيل بل
قتل بيد ائمة وهو غير صحيح . وقد ساعد سفير انكتر رجال الدولة القائمين بهذا
العمل ، بان استدعى قسماً من الاسطول الانكليزي الى ميناء الاستانة ليحلوا اليه اذا

انكشفت مؤامرتهم قبل اتمامها . ولما تربع السلطان مراد في دست السلطنة ننازل عن ستين الف كيس من مخصصات القصر وترك للمالية ريع المناجم والمعامل على حين كان يرسف في قيود ديونه التي تراكت عليه منذ ولايته العهد ، فانافت على مليون ليرة وليس في الخزينة من المال ما يكفي الا لسدها وبعض زيادة طفيفة ، والجند والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ احد عشر شهراً . وكان السلطان مراد ليلة خلع عبد العزيز ارتاع فأصابه مس من الجنون لما بشروه بالبيعة له بالسلطنة ، على صورة لم يكن يتوقعها واشتد خلله بعد ايام من توليته عند ما بلغه مقتل حسين عوفي باشا فلم يتلطف به بلغمه بالامر وقال له ان الوزراء قتلوا فقال الآن جاءت نوبتي في القتل وبدأ معه الجنون المطبق فلم يسع اهل الحل والعقد في دار الملك الا خلعه بعد ان سكتوا على ذلك شيرين فخلعوه باثبات جنونه المطبق ونصب مكانه السلطان عبد الحميد الثاني يوم ١٦ شعبان سنة ١٣٩٣ ، بعد ان تعهد لمدحت باشا بان ينشر القانون الاساسي ، ويؤسس في السلطنة حكومة دستورية .

* * *

عهد السلطان عبد الحميد الثاني } تولى السلطان عبد الحميد زمام السلطنة وروسيا
تهدج ممالك البلقان ، والدولة مائلة الى السقوط

لامراف عبدالعزيز ، فالغى جانباً كبيراً من نفقات المطبخ السلطاني ، وكانت نفقاته على عهد عبدالعزيز اربعين الف ليرة في الشهر فنزل مبلغاً لا يستهان به ، وقضى ان لا يخرج من المابين موائد الطعام بل ان يأكل فيه من له حق الاكل ، وألغى الامتيازات التي كانت لوالدة سلطان ، لان والدته ماتت وهو صغير فتوفر بذلك ١٥٠ الف ليرة نفقات سنوية وأخذ يتولى بنفسه ادارة الشؤون ويتفنن في الجاسوسية ليطلع به الجواسيس على الصغيرة والكبيرة . لكن روسيا أعلنت الحرب على الدولة فنزعت البوسنة والهرسك من أملاكها واستقلت الصرب والجبل الاسود ، وانهمز العثمانيون أمام الروس وخرجوا من حربهم وقد اضاعوا جزءاً مهماً من بلادهم وما يربو على مائتي الف كيلو متر مربع من الاراضي ، وسبعة ملايين من الرعايا ، والسلخت جزيرة قبرص عن السلطنة ، وقضت معاهدة برلين (١٢٩٤) ان لا تسلب من الدولة الامارات

التي كانت تابعة لها فقط ، بل نصف ارضها في اوربا ، وان يتعهد السلطان باصلاح
مكدونية وكرية وارمينية وتحملت السلطنة غرامة باهظة . وأعلن السلطان القانون
الاساسي في المملكة وسارع بتأليف مجلس نيابي ومجلس شيوخ واجتمع مجلس الامة
قبل ان يحضر نواب اليمن وبغداد والبصرة وطرابلس الغرب لبعث بلادهم واكتفوا
بوجود ثلثي النواب ، وانتهت معاملة اعضاء مجلس النواب بعد ثلاثة اشهر من نشر
القانون الاساسي ، ولم يكن انتخاب النواب بالرأي العام بل بتعليقات موقفة بعرفة
مجالس الادارة .

ولما تناقش النواب في مسألة الصلح مع روسيا لم يرتضوا بالشروط الصعبة التي
اقترحتها الدولة الظافرة وحدث في المجلس اخذ ورد ، فشق ذلك على عبد الحميد
وربما بدرت بوادر من بعض النواب بحق السلطان فأمر بافصال المجلس ، وكان على
حالة يرضي معها ان يتنازل عن ثلثي المملكة على ان يضمن له عرشه ، فصدر امره
بتوقيف أعمال مجلس النواب الى مدة غير معينة وأمر باخراج عشرة من نواب
الولايات في ثماني واربعين ساعة من الاستانة ، وكان منهم خمسة من ولايات الشام
فاظهر بذلك اول صورة من صور استبداده خالف بها الاصول النيابية ، ولم تتمتع
الامة بحرية الدستور سوى اربعة اشهر لانه صعب على مانحه ان يسير على غير خطة
الاستبداد ، ونذر ان يجي من المستبد الاستبد ، فزاد حنق الاحرار والغيورين
على بقاء السلطنة العثمانية ، واخذ هو يشتد خوفه على نفسه ويقضي على من كان خلع عمه
عبد العزيز على ايديهم من الوزراء ، ولا سيما مدحت باشا الذي نقله الى ولايات
بغداد والشام وازمير ومنها الى حبس الطائف فقتله هناك ، وأخذ يستكثر من
الجواسيس حتى لم يأت عليه بضع سنين الا وأصبح لا هم له الا اتخاذ الاحتياطات
لذلك ، وكثرت أهامه وظنونه ، وانشأ يراقب المطبوعات مراقبة دقيقة مضحكة ،
ولا يسمح بنشر جريدة ولا كتاب على الاكثر الا اذا طرز باسمه واختلفت له فيه
الاماديج . وفي اول عهده (١٨٨١ م) اخذ الصهيونيون ينزلون فلسطين مئآت كل
سنة ، وهم مقدمة الصهيونية الذين كانوا يحاولون ان يقيموا بناء القومية اليهودية في
فلسطين ويعيدوا لصهيون اي القدس مجدها بانشاء المعبد الذي خرب وعرش داود .

انسيال الدرروز على جبل حوران ووقائعهم } مضت قرون على لبنان قبل منحه استقلاله النوعي
عقيب حوادث الشام وهو ثورة الفتن ، ومنبعث الثورات والقتال ، لانه كان فيه كثلتان عظيمتان بل دينان مختلفان الموارنة والدرروز . كل منها يريد التوسع في السلطة ، وكل منها تعلم الطاعة لرؤسائه وعقاله ، يسير بقيادتهم يوم الكربة ، او يجتمع تحت لواء صاحب إقطاعه راضياً مختاراً ، وكل منها يستمد من قوة غريبة . والموارنة أقدم استمداداً وصلات بالام اللاتينية من جيرانهم ، وجيرانهم أشد بأساً وأكثر مضاء اثبتوا ذلك في مقاتلتهم الصليبيين في هذه الديار فكان قتالهم لهم أشد من مناجزة بعض الطوائف الاسلامية من سكان ارجاء الساحل لهم . فلما وقع ما وقع في حوادث لبنان عام (١٨٦٠ م) قضت الطبيعة على بعض طائفة الدرروز ان يهاجروا الى جبل حوران فرحلوا اليه في فريق من اخوانهم اهل وادي النيم والجبل الاعلى وصفد وعكا وغرطة دمشق وقرى القنيطرة وكان منهم طائفة فروا من وجه القضاء في الاصقاع الاخرى ، وآخرون اتوا حوران بدافع الحاجة ، فكثروا سواد من كانوا حلوا في هذه الربع ايضاً من ابناء مذهبهم ، واول نزول الدرروز في حوران بعد وقعة عين دارة المشهورة في لبنان سنة (١٧١٠ م ١١٢٢ هـ) فتألفت كتلة منهم هناك وقويت عقيب حوادث الشام ، وأخذ الدرروز يرجعون الى اخلاق البادية بعد ان كانوا على وشك ان يدخلوا في الحضارة في اللبنانيين الغربي والشرقي .

اعتز قدماء الدرروز باخوانهم الذين جاؤهم وأخذوا يجمعون شملهم على عادتهم بامر قوادهم ، وكان اهمهم بنو حمدان ثم أسرة بني الاطرش التي اصبحت الجبل الاقليات بتدبير كبيرهم اسماعيل الاطرش خاضعاً لهم ، وسلطة هذا البيت نتناول اكثر انحاء الجبل والاكثرية معهم على الاغلب . ومنذ نزول الدرروز في حوران ما برحوا يناوشون المسيحيين والسنين من اهل القرى والبادية القتال ، حتى اسنقلوا به اسنقلوا تماماً ، وكانت اول وقائعهم المشهورة بعد وقائع ابراهيم باشا ما حدث سنة ١٢٩٦ بينهم وبين اهل بسر الحريري من اجل فتاة ، فهجم الدرروز على بسر وقتلوا من اهلها ثمانية او عشرة اشخاص وقتل من اهل بسر خمسة اثناء الدفاع عن

انفسهم ، وعند ذلك تجمع الحورانيون الوفاً ، وأراد مدحت باشا ان يجيب الحورانين الى مطالبهم وهي ازالة العقوبة بثلاثة وعشرين رجلاً من الدروز ، فابى الدروز الا ان يعطوا دية عن القتلى ، وقصد ان يسوق قوة على حوران للتهديد لا للضرب ، ثم حلت المسألة صلحاً .

قال عثمان نوري في تاريخه : وعقيب ذلك طلب مدحت باشا اعفاءه من ولاية سورية ، فاغتنب عبد الحميد بذلك لانه كان يرى ان بقاءه طويلاً في هذه الديار لا يجوز ، لانه تذرع بعمرانها وهو منه موجس خيفة على الدوام . وقال كان النزاع والجدال قائمين على ساق وقدم بين أهالي سورية المتباينين في الدين والجنس ، فلما ولها مدحت باشا دخلت في طور السكينة والامن ، ولا سبيل الى تقرير الحكم العثماني في بلاد نثار فيها الافكار بالنفوذ الاجنبي الا بالانظام الادارة واجراء العدل وتنظيم المالية ، وهذا ما عمله مدحت باشا . وكان عبد الحميد يرأيه في كل مايرئيه ، ويحول دون امانيه . بحيث ان السلطان لم يكن يتوقف ساعة عن بث بذور الاضطراب في البلاد لينتقم من مدحت باشا وذلك بخرىض مثل المشير احمد ايوب باشا وجميل باشا عليه اه .

انتهت مسألة الدروز بعد ان ساقت الدولة عليهم قوة الى القراصة من عمل نجران وقتلت منهم ستمائة واستأمن الرؤساء ، ولم يكن سواد الدروز في الجبل اذ ذاك اكثر من عشرة آلاف ، وتسمى هذه الوقعة بوقعة القراصة وهو ماء قرب نجران ، ولما لم تحسن الدولة الادارة في الجبل زادت جرأة الدروز الى ان كانت سنة ١٢٩٨ فهجموا على قريتي الكرك وام ولد وذبحوا سكانها على بكرة ايهم ولم يبقوا حتى على الاطفال الرضع ، فسبقت عليهم حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا اسفرت عن ربط دية شرعية مقسطة عليهم ، وتأسيس قائم مقامية جبل الدروز مؤلفة من ثمانية نواح وتعيين القائم مقام والمديرين منهم .

كانت الدولة تقامي الامرين في تأديب عصاة الدروز كل مرة . قال مدحت باشا في مفكراته سنة ١٢٩٧ والذي زاد في الطين بلة ان فرسانا تحمي الموارد الكاثوليك وانكثرا تشيع للدروز وكل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع

نفوذهما في سورية او مضاربة احداهما مع الاخرى ، فلما اخذت الدولة اهبتها لتأديب
الدروز قام سفير انكلترا في الاستانة يشكو من ذلك ، ويكرر الترداد على المابين والباب
العالي فاصيحت الاوامر ترد تترى بحل هذه العقدة حلاً سميًا .

المصلح مدحت باشا } اضطر مدحت باشا ان يتخلى وياللاسف عن ولاية
وطبقته من العال } دمشق وقد طبق مفاصل الاصلاح في ارجائها الواسعة
على اسرع ما يمكن ، انشأ الطرق والمكاتب والمدارس ، ونشط الصناعات والزراعة
وضرب على ايدي المرتشين ، ونشر الحرية الشخصية ، ولقن الحكام والمحكوم عليهم
دروساً في الوطنية والشعور بالواجب ، وكان يرجى للشام ان تسبق الاستانة في الحضارة
بفضل اصلاحاته لو طالت ايامه وايام غيره من الولاة المقتدرين امثال ضيا باشا في
دمشق ، ورسيم باشا وداود باشا في لبنان ، وكامل باشا في حلب ممن كانوا يسيرتهم
معلمين للحكام ، وضعوا لهم اصول الادارة ، وحرصوا حقيقة على امتناع الناس بالعدل
واعمال العمران ، فكانوا حجة على الدولة بانها تستطيع الاصلاح اذا ارادته على قلة
الرجال لديها على شرط ان تتركهم يعملون بوجداناتهم وعقولهم ، وما عهد اليهم لتنفيذه
من القوانين الكافية بمعرفة ارباب النزاهة من رجال البلاد .

وقد تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ والياً وعلى حلب ٥٢ والياً وهكذا
سائر الولايات والمتصرفيات الثانوية ، لا يسلم الوالي الا ريثما يودع والطيب منهم هو
الذي لا تطول ايامه خاصة ، لان حساده كثيرون في الاستانة وفي الولاية التي يتولاها
ونقار ير الجواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد ، والدولة يصعب عليها ان تفتلت
من قيودها القديمة قيود حكومة القتراسيات اي المفاوضات الطويلة بالورق ، فاذا رأت
رجل جد من ابنائها يحاول ان يعملها الصواب في المعاملات ، لا تلبث ان ترميه بكل
شنعاء ، وكان حظ النوابغ في كل دور من ادوار العثمانيين ولا سيما في العهد الحميدي ان
يغض منهم ويسعى الى التخلص من اصلاحهم ومراميمهم ولسان الحال يناديهم لانحباب
نخرج عن مألوفنا العاطل المجمع على عطله ونؤثر ان نموت فيه على سلوك سبل التجدد :
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يبيت ايلام

العهد العثماني

— ٣٠٠٤ —

« من سنة ١٣٠٠ الى سقوط عبد الحميد الثاني »

الحالة في مبدأ القرن الرابع عشر } غدت الدولة العثمانية أوائل هذا القرن
 وإصلاح بلاد النصيرية } ببلاد الشام قوية الشكيمة لسرعة الاتصال
 والسبب في خرابها } مع دار السلطنة ، وتشعب الاسلاك البرقية
 وطرق البريد ، وشدة مراقبة دول اوربالاعمال السلطنة ، وتسابق الدول في
 تأييد نفوذهم في بلاد العثمانيين . وامتاز لبنان الذي كان يكثر ترداد اسمه بشوراته
 وإقطاعاته الحين بعد الآخر ، بان انقطع ذكره بعض الشيء في باب المسائل المزعجة ،
 وأصبح يعمل لنفسه بما تمع به من امتياز خاص ولم يعد الدرزي والماروني فيه يقنلان
 كما كانا في القرن الماضي لتأييد سلطان ملك او أمير او للأخذ بيد صاحب الاقطاع
 او حياً بالغارة والنهب والقتل .

ونشبت فتن في جوار لبنان من بلاد النصيرية لان هؤلاء لم يتأت لهم نصير
 من الغرب كما قام للبنانيين يأخذ بأيديهم الى السعادة التي يتخيلها لهم ويسوقهم الى
 طريق الحكم الذاتي ولو على صورة ابتدائية وكانت أهل السنة الجاورين للنصيرية
 ينظرون اليهم نظر الازدراء وهم في جبالهم يعدون قوة بحسب حسابها واذ كانوا
 طوع إرادة مشايخهم ورؤساء قبائلهم كانت سلطة الدولة عليهم قليلة . واذا كتب
 للدولة ان احرزت بعض سلطان عليهم في الشواطئ البحرية او في الاماكن القريبة من
 ضفاف العاصي من جهة الداخل فان اعالي الجبال كانت معتصمهم ، وربما كان فيها

أما كن لم تدسها حوافر الخيول التركية لوعورة مضايقتهم ، وقد ارسل السلطان عبد الحميد رجلاً من خاصته اسمه ضيا باشا جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في مبدأ هذا القرن فرفع عن النصيرية الظلم ووسد الحكم لبعض مشايخهم ووجوههم بان جعلهم اعضاء في المحاكم والمجالس ليشعر نفوس قومهم العزة بعد الامتحان والذلة ، وانشأ لهم جوامع ومدارس فاحذوا يتعلمون و يصلون و يصومون ، واقنع الدولة بانهم مسلمون فلم يعصوا له امراً ونفس من خناقمهم ، فبدأوا يشعرون بانهم بشر كسائر مواطنيهم وانهم شركاء في هذا القطر لم فيه حقوق سائر ارباب المذاهب ، وبعد ان ترك هذا المتصرف العاقل منصبه الذي دام بضع سنين على احسن ما يكون ، مع انه كان يعمل في درجة الاميين خربت المدارس وحرقت الجوامع او دنست وكانت الدولة في اكثر ادوارها لاتأخذ من معظم بلاد النصيرية شيئاً يذكر من الضرائب ، والقائم مقام الذي يجبي منهم ضريبة السنة او بقايا ضرائب السنين السالفة تصفق له الدولة و ينال تقديروا لالة الامر فيشرفونه برتب الدولة ومراتبها ، وكانت جباية خمسين الف قرش من النصيرية قد تستلزم اعداد حملة عليهم ينفق عليها ما يقرب من المبلغ المحيي احياناً .

قلنا ان النصيرية كانوا ينظر اليهم نظر ازدراء . وقد سألنا عالم جبلتهم في ايامنا الشيخ سليمان الاحمد عن رأيه في الحوادث الاخيرة في بلاده ، فكتب الينا يقول ما نثبتته بالحرف لان قوله حجة في هذا الباب قال : « كان اهل الحاضرة (اللاذقية) في هذا القرن يعدون ما يتعله جهلة العلويين بفتيا علماء الدين ، فيعصبونهم بهم لدى الحكماء ويغرونهم بهم وبالرؤساء ، ويحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة ، وكان الدين اعظم الوسائط التي توصل بها الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصاب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلوية من اشرف واجل البيوت العلوية في حادثة سنة ١٢٩٥) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية ، بل على وجهاء البلد ورؤسائه السنين وعلمائهم ، ثم على اهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا يسارعون لما بين عشائهم من الضغائن والاحقاد والغارات ، الى الدخول بخناطر الاغوات ثم بخناطر الحكماء عن ايديهم ، ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة ، وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم ، وبشيرته على عدوه . ولا تسلب

عما نفعل الهجيمة . ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل اشرافها . وذلك ، عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك ، حسبما نقضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا ادري الى اي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله ان يحسم اسبابها بايدي المصلحين والتبسط في شرحها لا يجدي اولا ينتج الا ان الشرفيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسماة الدين ، وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

« والذي اراه ان قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلوبين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية وكانت الحكومة اذا اخرجت جردت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت ، فاذا رجعت العساكر عادت العساكر الى ما كانت عليه ، يضبط الحاكم الخازم جماعهم ومتى بدل بحاكم ضعيف الادارة او مرتش ، عم البلاء من الرؤساء الفسدة والاشقياء الجهلة . لما حكم ابراهيم باشا المصري دوخ البلاد ، وقطع دابر اهل الفساد وضرب الامن اطنا به بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها نهب ، ولا قطع سبيل ، فرتع الانام في مجوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف ، فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال ما لا يحصره المقال اه » .

* * *

فتن درزية } كان يظن بعد ان نهدت نائرة الفتن في لبنان وما اليه من
وفتن أرمنية } جبل اللكام ان الناس يرتاحون من الحملات والغارات الا ما
كان من غزو البادية بعضهم مع بعض فان ذلك من المتعذر لانه مرض قديم مستعص
نشأ قبل الاسلام بقرون ، ولم تقو جميع الحكومات التي تعاقبت على الشام ان تقضي
عليه وتستأصله من اصوله ، بيد ان اقوة التي احرزها جبل حوران بالدروز الذين
هاجروا اليه جعل من الجبل موطن غارات وغزو واصبح جبل دروز حوران ابرة سفينة
الامن في الشام وكان يتلبس بهذه الصفة جبل لبنان في القرون الماضية فيتعب سائر
الارحاء الشامية ، ويضطر الحكومة ان تقي شره باثارة اهل الجوار عليه ، والقضاء
الخلاف بين امرائه ومشايخه .

نشبت فتن في جبل حوران في أعوام مختلفة ، وكثيراً ما كان بعض اشقياء الدروز فيه يطيلون ايدي الاعتداء على سكان حوران والغوطة والمرج وجبل قلمون ، فيتخذ اشقياء المقرن القبلي منه مع عرب السردية و يغزون في البلقاء وما اليها قبائل بني صخر والحو بطات والسرحان وقرى حوران الجنوبية ، وينضم اشقياء المقرن الشرقي الى عرب الصفا يغزون تجار بغداد ودير الزور ، ويتخذ اشقياء المقرن الشمالي مع عرب الحسن ويهاجمون قرى جبل قلمون والنبك وحمص ، ويتخذ بعضهم مع عرب اللجاة فيسلبون قرى سفوح جبل حوران ويقتلون الموظفين ويمتلون بالعسكر اذا خلوا بهم ، ولا يدفعون الاموال الاميرية ، وبذلك تأيدت شوكة الدروز وخافهم جيرانهم من أهل القرى والبادية ، وتخوفت الدولة عاقبة امرهم للرابطة القوية بين افرادهم ، وهم اذا جاءهم الغريب ، والدماء تسيل بينهم كالسيول ، لا يلبثون ان يتحدوا عليه يداً واحدة و يصدقوا قتال عدوهم المشترك ، بما فيهم من شتم واباء عربي وعند الشدائد تذهب الاحقاد .

رأى الدروز في سنة ١٣٠٤ وقد ارتاشوا وتأثلوا ونما عددهم ان يستولوا على قرى اللجاة للتحصن بها عند الايجاب واستجار ما يمكن استئثاره منها فاحتشد نحو خمسمائة فارس منهم بقيادة شبلي وفندي الاطرش ، ووصلوا الى المسمية وهاجموا قلعتها فردوا عنها .

وفي سنة ١٣٠٨ انقسم دروز حوران الى فرقتين المشايخ والعامة وزادت بينهم العداوة والبغضاء فادى ذلك الى حدوث وقائع متعددة ودخل بعض المشايخ الى قلعة المزرعة فارسلت عليهم ست كتائب مشاة والاي فرسان مع مدافع ، وفي اثناء مغادرتهم تكنت المزرعة تعرض لهم العامة فقابلهم العسكر بالضرب ، فانهمز الدروز بعد ان تحملوا خسائر كلية ودخل الجند السويدياء واسرعوا ببناء تكنت عسكرية . وتعرف هذه الواقعة بوقعة العامة ونال الدروز من البند في سنة ١٣١١ في طريق المزرعة وحاصروا قلعتها ثلاثة ايام . وفي سنة ١٣١٣ هجم الدروز على قرية الحراك وقتلوا أكثر أهلها وهدموا جامعها الحصين ونهبوها مع قرى المليحة الغربية والمليحة الشرقية وحريك ودير الساط وكحيل فارسلت الدولة عليهم (١٣١٤) حملة بقيادة ادم باشا ولما بلغ اول حدود الجبل تعرض له الدروز فقابلهم العسكر بالمثل ، وبعد وقعة القراصة ونجران والسجن وام العلق دخل العسكر السويدياء .

ولو وضعت الاصلاحات الادارية موضع العمل بجد ونشاط لاستقام الامر كثيراً ولقلت الفتن التي تقع بين الرعايا والعمال مثل فتنة الزيتون من عمل مرعش التي حدثت سنة ١٣١٣ ونشأت من منازعات بعض الارمن وبعض صغار مأموري الحكومة ، فألفت الارمن عصابات وقاتلوا عسكر الدولة وقتلوا ومثلوا بعيال الموظفين فهاج المسلمون في مرعش وعينتاب لما بلغهم من الاعتداء على المسلمين في الزيتون ، وقتلوا من الارمن مئات انقماماً وتسفيماً ، ثم حدث مذابح في البيرة واورفة وقتل في هذه المدينة الفان من الارمن فارسلت الدولة حملة على الزيتون حاصروها شهراً ثم تدخلت سفراء الدول في الاستانة والزمو رؤساء العصابات بتقديم الطاعة فقدموها ، وعفي عن المشاغبين واصحاب العصابات ، قال في اعلام النبلاء وظلت هذه الفتنه الى اواخر هذه السنة ودامت من ابتدائها الى ان خمدت نارها خمسة عشر شهراً . وكانت الحكومة سنة ١٣١٥ انذرع بتطبيق اصول الاعشار بصورة الامانة على حسابها ، فقتل الدروز ضابطاً كبيراً مع ثلاثين جندياً في عرمان ، ومدير ناحية صرخد ورفقائه من الدرك ، واكثر حراس الاعشار في جميع قرى الجبل فارسلت عليهم الحكومة مفرزة مؤلفة من اربعمائة جندي وفي رواية درزية اربع كتائب قتلوها بالفوس والسيوف الا قليلاً في محل يدعى العيون قرب عرمان وغنموا مدفعين وجميع الاسلحة والذخيرة وحاصروا ثكنة السويداء ٢٨ يوماً ريثما وصلت القوة العسكرية بقيادة المشير طاهر باشا مؤلفة من ٥٤ كتيبة ، وحدثت بينهم وبين كتيبتين كاننا في آخر القوة حرب دامت ست ساعات وانهمز الدروز في وقعة الشبهة . وخوفاً من وقوع قتل عام رجع العسكر عنهم . وفي هذه المرة قبضت الحكومة على ستائة رجل منهم مائتان من رؤساء العصابات ، ونفتهم من الشام ثم ارجعهم مكرمين من الاستانة فابتاعوا بالدرهم التي نالوها من احسان الدولة سلاحاً في طريقهم ليقاتلوا به عمالها .

وفي سنة ١٣١٩ ساقطت الدولة على الدروز قوة من الفرسان والمشاة الى الصفا والحجة للتكيد بهم ، واسترداد ما سلبوه من المواشي وغيرها . وفي سنة ١٣٢١ وقع خصام بين طائفتي الحلبية والمغوشين من الدروز اسفرت عن قتل اكثر من اربعين شخصاً ، فارسلت الحكومة ثلاث كتائب لاجراء التحقيق . وهكذا توالى وقائع

الدروز واكثرها في مقاومتهم للدولة كما ارادت ان تدخلهم في الطاعة ، وتجري عليهم الاحكام التي تجري على جيرانهم ، من اخذ رسوم الاغنام ، وتسجيل الاملاك أو احصاء النفوس أو أخذ الاعشار . ولكم جرت وقائع لذلك في قنوات ومفعلة والشوفي والحجلة والكفر ونجران ، وكم من وقائع بين المساعيد والعزام وبين بني الاطرش الدروز و بني المقداد السنين . وبعد جهاد أربعين سنة اصبح الدروز في جبل حوران الاكثرية المطلقة بعد ان كانوا اقلية في اواخر القرن الماضي وزادت نفوسهم ستة اضعاف عما كانوا قبل خمسين سنة .

* * *

الحملات على جبل
الدروز وعلى الكرك } وفي سنة ١٣٢٤ اعتدى دروز حوران على عرب
المجمل فغزا الدروز المجمل في النقرة من حوران فقتل
المجمل منهم نحو سبعين رجلاً ثم اعتدى المجمل على قافلة درزية وقتلوا رجلاً من اكابر
بيوتهم بالقرب من براق ، فهاجمهم الدروز في ضمير من مرج الغوطة وقتلوا نحو اربعمائة
من العرب ، وابقوا على النساء وفي سنة ١٣٢٨ غزا دروز حوران جيرانهم اهل
قرية معربة وغصم وسكانهما مسلمون ومسيحيون ، على اثر خصام وقع بين نوابير القرية
ونوابير بصرى بشأن الكرم فقتلوا ٥٩ رجلاً وامرأة عدا الجرحى ونهبوا القسم الاعظم
من قرى السهوة وجيزة وسمافية وطيسة من بلاد السهل ، فأرسلت عليهم الدولة حملة
مؤلفة من ثلاثين الف جندي بقيادة سامي باشا الفاروقى فضربهم ضربة خفيفة قتل
فيها زهاء الف رجل منهم ونحو مئة وخمسين من الجند واحرقت بعض القرى ولاسيما
الكفر أهم موقع حربي في الجبل وحواليها دار معظم القتال ، وغنم الجند والضباط
ما فيها من متاع وحلي وارزاق مما حشره الدروز فيها من انحاء الجبل ولم تسفد الدولة
من هذه الحملة الا احصاء نفوس الجبل واستأمن الدروز فحكم على بعض زعمائهم
واشقيائهم بالصلب فصلبوا في دمشق وجند بعض شبانهم وعني عن بعض المجرمين
وجرم بعض الابرياء . وهكذا غرمت الدولة والامة حتى امتلأ صندوق القائد فيما
يقال ولم تنفذ خطط الاصلاح التي وضعت على العادة في كل مرة ومنها ما يرضى به
الدروز لكن تطبيقه يحتاج الى اخلاص وحكمة . وقد ابان الدروز في هذه الحرب

شأنهم في أكثر حروبهم عن مهارة في الفنون الحربية وشجاعة منتهية .
وارادت الدولة في تلك السنة أن تحصي نفوس سكان لواء الكرك كما أحصت
سكان لواء حوران ، فانقض اهل الكرك على الدولة لانهم بادية على الاكثر والبادية
تخاف الجندية أكثر مما يخاف منها اهل المدن والمزارع ، لان عهدهم بالحكومة حديث
وصعب التأليف بين طبائعهم ومعاملة الموظفين الفاسدين وكان لواء الكرك أسس في
سنة ١٣١١ على سيف البادية بين الحجاز والشام ، وقد ثبت للدولة ان المرسلين
يعملون بنشاط لتنصير تلك الاصقاع ، وكانت تلك البلاد من قبل بعيدة عن كل
سلطان وسطوة يحكمها رؤساء عشائرها ، ولم تكن أكثر قراهم معمورة مأهولة ، وكانت
ديارهم كأنها قطعة من الحجاز القاحلة لا الشام الخصيبة ، وصادف ان قطعت مرتبات عرب
بني صخر والخرشان وغيرهم من أسل الوير ، فقام البدو الذين حرموا روايتهم وهي اربعة
آلاف ليرة في السنة ، وسطوا على بضع محطات من السكة الحديدية الحجازية على
طول أكثر من مائتي كيلو متر في ارض اللواء ونهبوا قطاراً بحمولته وقتلوا وجرحوا
بعض موظفي الخط ، وقام الكركيون باديتهم وحاضرهم وأطالوا يد الاعتداء على التجار
والموظفين والحامية فقتلوا منهم نحو ١٥٠ انساناً ، ولولم يلجأ أكثرهم الى قلعة الكرك
لهلك في هذه الفتننة بضع مئات وحرقت الاماكن الاميرية كلها ونهبت خزانة الحكومة
ودور الموظفين وأحرق قسم منها ، وخرب قسم عظيم من المدينة (٥٤٩ داراً)
باطلاق القلعة المدافع عليها وقطع العصاة الاسلاك البرقية وهاموا على وجوههم في
البراري ، وبعد ان جاء المدد للمحصورين في القلعة قبضت الدولة على عشرات من
التأثرين عدا من قتلتهم هناك صبراً وحكمت عليهم باحكام مختلفة واكثرهم بالقتل .
ولم يشترك أهالي معان والطفيلة في هذه الفتننة وكانت النية ان يقوموا مع الكركيين
في يوم واحد . وجرت وقائع بين عسكر الدولة وعرب الجبالي وبني حميدة وابن
طريف وصوره وسليط وغورين وكثيرا باوعراق وخنزيرة والمعايطة وعبيد
وجلامدة وأغوات بالقرب من قرية كفر ربة استسلم فيها بعضهم ، وبلغ عدد القتلى
من الكركيين نحو النسيمة . ولم يحدث بعد هذه الواقعة شيء يذكر في ارض الشام
اللهم الا هياج بعض العربان للغارة والنهب في الشمال والجنوب ، وكانت الدولة

تسوق عليهم قوى خفيفة تارة وتتركهم وشأنهم تارة أخرى خصوصاً اذا لم يقع منهم على أهل المدن والقرى اعتداء مباشرة ، ولم يتدخل فواصل بعض الدول لما رب لهم ، كأن يكون في القتلى بعض المسيحيين او ان تقضي السياسة بان يوجدوا مسألة جديدة تحب دولة ذلك القنصل استثارها في دار الملك .

ومن الحوادث التي وقعت في سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) الخلاف الذي وقع بين الحكومة المصرية والحكومة العثمانية على حدود الشام وعقدت بينها المعاهدة المعروفة بمعاهدة رفح وتعين الخط الفاصل الاداري بين ولاية الحجاز ومتصرفية القدس وبين شبه جزيرة طورسينا ، وكان للصحف الوطنية المصرية حملات على بريطانيا بهذا الشأن .

رأي في دلال الدرروز } وفي الحق ان مسألتين في هذا القطر شغلنا الافكار
والنصيرية على الدولة } خلال هذه الفترة ، وهما مسألة النصيرية في
الساحل ومسألة الدرروز في الداخل . أما المسألة الاولى فما يحدث له امثال في كثير
من الاقطار ، ولننهي كل ثورة بصلب بعض ارباب النفوذ والسيطرة وتخريب بيوت
التأثرين والساكنين . ورابطة النصيرية وتعلقهم بمشايخهم أقل من رابطة الدرروز
وهي أقرب الى الحل اذا انعقدت . ثم انهم ليسوا من المعرفة بحيث يتطالون الى تأييد
سلطانهم او تحديثهم انفسهم بالاستقلال عن الدولة ، اذ لا ملجأ لهم من الامم الغربية
يرجعون اليه و يصدرون عنه ، ولكن هل كان درروز حوران مثلهم يا ترى بعد ان
حاول إخوانهم غير مرة ان يقيموا لهم حكومة مستقلة في لبنان ثم انسالوا على جبل
حوران ويحاولون الاستقلال بربوعه ، والابتعاد عن سيطرة عمال العثمانيين في هذا
الجبل الذي ينهي العمران به وتبدأ البادية المترامية الاطراف ؟ ان ظواهر الحال
تدل على ان الدرروز في جبل حوران حاولوا منذ عهد ابراهيم باشا ان ينزعوا أيديهم
من أيدي حكام القطر ويستمتعوا بامتياز لهم خاص ، لانهم يتقل عليهم حكم غيرهم في
الجملة ، وبين عامتهم وعامة غيرهم فروق في الآداب العمومية والاخلاق والعادات ،
واذا ناروا يعرفون السبب في ثورتهم لان مشايخ العقل منهم يلقنون أجاو بدم ،
وأجاو بدم يلقنون عقالم ، وعقالم يلقنون عامتهم كل ما ينفع في شؤونهم العسامة

فكانوا يرضون عقيب كل فتنه ان ينفقوا مع الدولة على مال معين يؤدونه للسلطنة ، ثم لا يلبثون ان يمنعوا عن أدائه مع ان البلاد التي تملكوها بالسيف او بالشراء باثمان زهيدة من جيرانهم المسلمين والمسيحيين هي من الخصب بحيث لا يصعب عليهم ان يؤدوا عنها الاعشار والاموال المطلوبة او جزءاً من الضرائب التي يدفعها سائر الحورانيين ، ولعلمهم او بعض مشايخهم كانوا يدلون على الدولة بما لهم من عطف بريطانيا عليهم فيتوجهون ان ينشئوا لهم في صميم الشام دولة صغرى ناسين جميع الاعتبارات التي كانت تحول دون أمنائهم ، وتهيب بالدولة الى مناجزتهم القتال كما حاولوا ان يرفعوا رؤوسهم .

وكانت الدولة هي التي ساعدت على تعاقب ثوراتهم وتسلل شقاواتهم واستلذاذهم بالحروب ، لانها اتخذتهم آلة في لبنان ووادي التيم وحوارات للانتقام من عدوها ابراهيم باشا المصري واتخذتهم آلة في مذايح سنة الستين . ودفعتهم في طريق الشقاوة والمقاومة بما لها وسلاحها فظنوا أنفسهم قوة مهمة لا تقف أمامها قوى دولة ، وعرفوا أنهم اذا ظفروا كان لهم ما يريدون ، واذا غلبوا يحسنون مداواة رجال الدولة ، ولم من بريطانيا العظمى على كل حال دولة تسأل عنهم وتعنى بمصالحهم ، فلم ان يدلو على جيرانهم وعلى الحكومة .

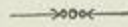
وكان الشعب في معظم الارحاء يستخف بعامة الدروز اذا اختلفوا الى الحواضر ، واذا ذكروا يذكرونهم كما يذكرون النصيرية بالسخرية والمهانة ، فيشق ذلك على جماعتهم خصوصاً والدروز لم يفقدوا اصولهم العربية التي من شأنها الشتم والاباء ، فكانوا يصعب عليهم سماع ما يسمونهم به ، وربما كذب الناس عليهم ونسبوا اليهم اموراً ليست من مذهبهم ولا من عاداتهم ، كذنبهم على النصيرية أيضاً . وكان لبعض المشايخ المتعصبين في الحواضر يد في إلقاء هذه الكراهة وهذه النفرة بين هاتين الشيعتين وبين الاكثرية التي انشقوا منها من أهل السنة ، ولعل الحكومة كانت تعتمد ذلك ولا يسوؤها فتغضي عما كان النصيرية والدروز يسامونه من ذلك ، ونفسح المجال للعامة والمشايخ البله ان يعاملوا مواطنيهم تلك المعاملة المؤلمة على النفوس الالوية ، فيقابلها الدروز بمثلاً يوم يكون لهم السلطان المطلق في جبلهم وأرضهم .

ولو كانت الدولة بذلت شيئاً من العناية بهذين الشعبين الجبلين في الساحل والداخل كانت تنشر بينهم التعليم الابتدائي ، وتعطف على بلادهم فتصلح طرقها ، وتدخل عليها ما يمكن من أسباب النجاح لاستغنت هي والامة عن مقابليهما وهم بعض ابنائها بالسيف والمدفع لتعيدهم كما نشزوا الى حظيرة الطاعة ، ولو دخلت المدينة على دروز جبل حوران ونصيرية جبل اللكام ، كما دخلت مثلاً على دروز جبل لبنان ، لكان من هذين الشعبين العربيين خلقاً وخلقاً قوة في الشام وأية قوة ، ولما استحكم هذا النفور الذي كان من أثره ما ظهر في العيد الاخير اليوم رضوا بان يزعوا أيديهم من أيدي جيرانهم ، مع علمهم بانهم شركاء متضامنون في هذا القطر المحبوب .



العهد العثماني

« من سنة ١٣٢٦ الى ١٣٣٦ »



الديستور العثماني } منذ أقفل السلطان عبد الحميد سنة ١٢٩٤ المجلس النيابي
وثورته } وعطل الاحكام الدستورية ما برح بعض أحرار العثمانيين
تركهم وارمنهم وعربهم وأرناؤدهم ، بتأفقون من حالة الدولة ويدعون سرهم اذا لم
يمكن الجهر الى المطالبة باعادة هذا المجلس ، وقد أسسوا للوصول الى هذه الغاية
جمعيات سرية في بعض بلاد اوربا ومصر والبلقان ، جعلت لها فروعاً في بعض
الولايات العثمانية وعملت في الخفاء زمناً ، والسلطان يصم آذانه تارة ، ويتصام
عن هذه المطالب المشروعة تارة أخرى ، ويعاقب من يقندر عليه من هؤلاء الدعاة
ان كانوا في قبضته وتحت عامه في بلاده بالشدة من النفي والتعذيب والتغريب ،
او بالمدارة وإغداق الاموال والرتب على بعضهم اذا كانوا بعيدين عنه . وأهم جمعية
ألفت لهذا الغرض جمعية الاتحاد والترقي تشعبت فروعها في أنحاء السلطنة وقويت
في بث دعوتها في الشام حوالي سنة ١٣١٤ وما برحت على ضم شملها وتكثير سواد
القائلين بقولها وابلاغ دعوتها في جرائد لها انشئوها خارج السلطنة ، وكلمة الجمعية
تزيد انتشاراً كلما اشتد عبد الحميد في إرهاب الداخلين فيها ولا سيما في المدارس
العليا في الاستانة ، والمدارس العليا مجمع شمل أذكيا الطلاب من الترك والعرب
والشركس والارناؤد واللاز والارمن والروم فاذا عادوا الى بلادهم ونفروا في

الولايات ، يضيفون الى تدمير الأهلين من فساد الاحكام تدمراً ، ويكثرون سواد الحاققين على ذلك النظام الرث القديم .
 التاثيرات الاحوال ، وتكثر الاخلاق ، وبات القول الفصل للرشي والحياة والشفاعات ، وغلوا في التجسس والوقية ، وكثر الفقر ، وعم القهر ، وزاد الضغط على الامة ، ونال الجند حظ وافر من الشقاء ، وغدا المرابطون منهم والغزاة لا يطعمون الا ما يحفظ عليهم رمقهم فقط ، وكثيراً ما كانوا يهلكون جوعاً كما وقع لهم في اليمن مرات او لسوء التدبير كما وقع بكتائب الارناؤد في دمشق في احدى الحملات على الدروز فهلك مئات منهم لانهم تركوا في العراء في تشرين الثاني فهلكوا بالزحير ، وقد يخدمون السنين ولا يلبسون ثياباً نقيهم حمارة الحر وصبارة القر ، ويطول أمد خدمتهم فيقضون العشر والخمس عشرة سنة لا يسرحون ، خصوصاً اذا كانوا في بلاد قصية كاليمن والحجاز .

أخذ أحرار الضباط يبتشون في الاجناد روح الثورة وكانوا مستعدين لقبول ما يلقى على نفوسهم فتمرد اولاً بعض الجند في آسيا الصغرى ثم سرت روح التمرد الى جند مكدونية . والجنود موقنون ان الدولة لا تهتم بارواحهم اهتمامها بالبنادق التي يحملونها . وانفق ان ضاقت صدور المسلمين من الارناؤد في مكدونية من طمع الدول الاوربية فيهم وأدركوا ان العثمانية تسلطهم متى عجزت كما فعلت مع غيرهم ، فيقعون في قبضة الحكومات الاجنبية على نحو ما وقع لمسلمي البوسنة والمهرسك وبلغاريا ورومانيا واليونان والصرب . ولما تم كل هذا قام الارناؤد بدأ واحدة في مناصرة الجيش المطالب بالدستور ، واتحد الفيلقان الاول والثاني في الروم ابلي وتبعهما الفيلق الرابع في كردستان وذلك بالاتحاد مع عصابات البلغار . ونادى الضابطان نيازي بك وأنور بك بالدستور او يزحفان على دار الملك ، فلم يسع السلطان الا ان يعيد العمل بالقانون الاساسي الذي كان اوقفه منذ احدى وثلاثين سنة ، فصدرت الارادة بوضعه موضع العمل صليحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨ م) وبوشر بانتخاب النواب وأطلقت حرية الاجتماع وحرية القول وحرية الكتابة والنشر بعد ذلك الضغط المنهك ، وألغيت الجاسوسية التي جعلت وكدها في كشف

عورات الناس بما لا يفيد شيئاً في حياة الدولة . وأُخرج الوف من الموظفين والخدمة والمغنين وغيرهم من المايين او قصر بلديز حيث كان السلطان اكثر ايام ملكه ، واليه انقل الحكم من الباب العالي الذي كان في عهده اسماً بلا مسمى ، ما يريد لا يكون اذا لم يرده المايين ، وما يريد المايين ينفذ في الحال بدون مناقشة ولا حوار .

إعادة الدستور وحال } أعيد الدستور الى العمل بدون اهراق دماء ،
الدولة بعده } لان جواسيس السلطان عبد الحميد هوأولوا له في
قوة النزاع الى الثورة من فيالق جيشه ، وكانوا قتلوا بعض رجاله في سلايك ممن أرسلهم للبحث عن قضية الثورة كما بالغوا في تقدير قوة الأحرار وسريان افكارهم في الولايات ، فلم يسهه وهو محكوم لاوهامه وظنونه الا ان يرد ما اغتصبه من حقوق الامة العثمانية ، ونجحت سياسة الاحرار وفسلت سياسة أعوانه الذين كانوا يتماقونهم ويقولون له : ان اوربا اذا انفتحت على الدولة لا تستطيع ان تفلت من يديها ، وما زال دولها متخالفات فلا يخشى على الدولة العثمانية ، اما الرعية فهي من ضعف الجانب بحيث تستطيع الدولة ابدأ ان تقضي على كل ثورة تحدث في أرجاء بلادها ثم ان الرعايا همج يسجون بجمدا آل عثمان في كل أوان ، ولا تدرك عقولهم معنى للحرية ، والحرية لا يتطلبها الا بعض الشبان ومن لف لفهم من المحرومين والناقمين الذين فسدت نياتهم بما لقنوه من تعاليم اوربا المضرة ! .

واخذ الناس في الشام يقدسون جمعية الاتحاد والترقي التي كانت سبب هذا الانقلاب الذي انعش الامة بعض الشيء وكثرت الآمال والاماني في اصلاح الحال وطردت الشام ولايتها وعمالها الذين عرفوا بالجانسونية لعبد الحميد والنيل من رعيته وكف أهل النفوذ في القاصية عن الضغط على الفلاحين اذ عرف هؤلاء من يدهم على رفع شكواهم للمراجع العليا ، وأهين بعض من اشتهر عنهم منهم من أنصار عبد الحميد الغارقين في ربه ورواتبه ومراتبه حتى اضطروا ان يندمجوا في الاحرار ويقدموا اشبانهم ، ولطالما امتهنهم وسعوا بهم الى الحكم في عهد الحكومة المطلقة ، وبدي بانتخاب اعضاء مجلس النواب فحاولت جمعية الاتحاد والترقي ان يكون نواب الشام ممن تركن

اليهم او ممن عرفوا بميلهم الى الحرية وبعدهم عن السياسة الحميدية ولكنها سعت لتقليل عددهم في الشام سعيها لذلك في سائر الولايات العربية لئلا تتألف منهم اكثرية في المجلس فاذا انضموا الى بعض العناصر الاخرى يصبح الاتراك اقلية لان الاتحاديين لا يريدون الا دستوراً يمنعش به الاتراك ، وينال الخير بالعرض سائر العناصر على صورة لا تضر بكيان الترك و يسعون الى تترك العناصر لتؤلف جمعية الاتحاد امة واحدة متجانسة بلغتها اذ لم يمكن تجانسها بدينها ، و يقوم احرار العثمانيين من الاتراك في القرن العشرين بما عجز عن عمله محمد الفاتح وسلم ياوز من الفاتحين .

وبينا احرار الاتراك دعاة القومية التركية الشديدة يفكرون في وضع خطط الاصلاح ويجيئون كل ما هو تركي ويحاذرون كل ما هو عربي والناس في فرح وجذل لانهم أخذوا على الاقل يقولون ما يريدون ويستمتعون بحرياتهم ، أعلنت اليونان ضمها لجزيرة كريت الى بلادها كما أعلنت النمسا الحساق ولايتي البوسنة والمهرسك ، ورفض امير بلغاريا السيادة العثمانية وأعلن استقلاله ، وعاد مجلس النواب الى عمله (١٣٢٦ هـ) ولم يمض الا اشهر قليلة حتى ندم السلطان عبد الحميد على ما وهب طوعاً او كرهاً من نفيس خناق العثمانيين وأحب ان يقوم بعمل ارتجاعي يعيد به الناس الى الضغط الاول والفاء فيه وفي أعوانه فيعملوا احراراً من دون منافع او مناقش فنهض جماعته من جواسيس وعمال ومن ظردوا من الضباط من الجيش لقلّة اقتدارهم وغيرهم من العوام الذين يتخذهم الفساض الشرع ويتبعون كل ناعق والقوا حزياً باسم الدين سمّره « الحزب المحمدي » وانصار هذا الحزب كثيرون لانه اسم تجبه اكثرية الامة فدخل الناس فيه أفواجا عن سلامة نية حتى قيل ان من وقعوا على محضر الرضى بالدخول في سلكه بلغوا سبعين الفا في دمشق وحدها واختار السلطان لبث دعوته البلاد التي لم تتأثر اعصابها كثيراً بدعوة الاحرار وثورة الجند كالشام مثلاً وأخذوا يهيمون العامة باسم الدين ويرتبطون بالسلطان بايدي أناس كان الهال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغوغاء .

فصت جنود الاستانة الا قليلاً بما بذله السلطان لهم من الذهب الوهاج ولم ير أعوانه الذين هيجوا الاجناد واسطة لاضاعة رويتهم احسن من اسكارهم فأسكروهم

ليلة الفتنه و فرقوا عليهم الذهب الكثير ليقوموا بالمطالبة بتطبيق الاحكام الشرعية
بمخافيرها ، و ابعاد بعض النواب و اسقاط الوزارة و تعيين الضباط غير المدارسين الذين
خرجوا من صفوف الجيش لا من دكات المدارس ، اي اختيار الجهلة على المتعلمين
و بعبارة أفصح ابطال القانون الاساسي لانه مخالف بزعمهم للاسلام ، و من قواعده
الحرية ، و الحرية ليست من شأن الدين ! . و قتل في هذا السبيل أناس من النواب
و غيرهم من الدستور بين و عامة الناس في شوارع العاصمة ، لان الجند الثائر كان يطلق
النار في الفضاء إرهاباً و ترويعاً فيصيب الأبرياء و غيرهم ، و اغتال الضباط الجهلة
كثيراً من الضباط المدارسين .

فلما تجلى هول الموقف للاتحاديين أهاجوا النفوس في الروم ابلي فقامت بعض
ولاياتها على ساق و قدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور ، و هب جند
الفيلقنين الثاني و الثالث في أدرنة و سلانيك و زحفا على الاستانة بقيادة محمود شوكت
باشا البغدادي فاستولوا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع ، و قبضوا على
المنقضين و العصاة من الجند المشاغب و ضربوا أعناق بعض المشايخ و المتمشجين
للسياسة لا للدين ، و نقوا العا و خمسمائة رجل من رجال السلطان و حاشيته الى العجاز
و اليمن ، و خلعوا عبد الحميد بفتوى من شيخ الاسلام أثبت عليه فيها قتل الانفس
البريئة و سجنها و تعذيبها و مخالفة الشرع و حرق كتب الاسلام و الاسراف في مال
الامة ، و بايعوا بانفاق مجلسي النواب و الاعيان لولي عهده رشاد افندي باسم السلطان
محمد الخامس و حملوا السلطان عبد الحميد المخلوع منفياً الى سلانيك .

عبد الحميد و سياسته } و بذلك تخلصت الامة من عبد الحميد بعد ان حكم
و أخلاقه } فيها ثلث قرن زاد أخلاقها فساداً . تولى لاول
أمره زمام السلطنة و كياناً عن أخيه مراد الرابع ، و كتب على نفسه عهداً دفعه
لمدحت باشا ثم أرسل على ما قيل من أحرق دارمدحت ليحرق العهد في جملة ما أحرق
و أخذ يستميل قلوب أكثر أهالي الاستانة حتى اجتمع الصدران الاعظمان رشدي باشا
و مدحت باشا و دعيا الف شخص من الكبراء و ارباب المقامات ، و قرروا ان جنون

السلطان مراد مطبق لا يرجي ان يفيق منه ، وأفتى شيخ الاسلام بحل بيعته — وما أسرع مشايخ الاسلام في اصدار فتاواهم لصاحب الوقت اياً كان وما ابطأهم في فناؤهم في المسائل الجوهرية — وبويع لعبد الحميد فما عتَم ان أقصى عن دار ملكه من كانوا من العطاء السبب الاول في خلع عبد العزيز .

وأخذ السلطان عبد الحميد بكثير من التصديق على أخيه السلطان مراد وعلى سائر أفراد الأسرة السلطانية ولا سيما ولي عهد السلطنة ، ويشرد كل من عرف بالانكار عليه من الوزراء والعطاء ، فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة وساستها فأصبحت الطبقة التي اختارها تسير على رغبته ، وكل من خالفه ولو في سره أقصاه وسجنه وعذبه ، وكأما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعالة ويبلغ في الاحتياط انفسه ، وغدا يتولى كل أمر بذاته وبعدها باب الوجدان من رجال الدولة ويستعيض عنهم بأناس ممن يصطنعهم ، وما يصطنع الا من فسدت أخلاقهم من كل جنس على الاغلب ، حتى آلت أزمة الدولة في العهد الاخير الى أيدي طبقة من أعوانه طغوا وبغوا .

أخذ السلطان عبد الحميد يملك الاملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلطين ، فكان كما سمع بان في اقليم كذا اراضي من املاك الدولة يأخذها بلائمن ان كانت من الاملاك الاميرية ، او بلائمن طفيف ان كانت للأفراد وعجزوا عن استغلالها ، فيضمها الى املاكه السنية والف عدة شركات وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع وبعض المعامل ، وضارب بالاوراق المالية والتجر بالامتيازات . وهكذا أصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لا يهتم بشيء من امر الملك الا اذا كان تفريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثيرة ضاقت بالانفاق عليهم خزانة الامة ، وكلمهم أمنائوه ان اخطأوا فلهم الاجر ، وان اصابوا فحدث ما شئت ان تحدث عمالينهم عليهم من انعامه واحسانه . ولقد قل جداً في عماله من لم يتجسس له لا سيما بعد ان شاهد الناس ان الترتي في الوظائف لا يتأتى في الاغلب الا من طريق الجاسوسية المحببة الى قلب السلطان وغدا التجسس عند بعض الطبقات من الامور التي لا تنكر . اشتد ضغط عبد الحميد على المدارس حتى حظر ان يعلم فيها التاريخ الصحيح .

وعلم السياسة والاجتماع لانها ترفي العقول وتلغ الاذهان ، واصدر ارادته السرية الى مديري المعارف في بعض الولايات ومنها الشام ان يوقفوا سير المعارف عند الحد الذي وصلت اليه ، لان في انتشار المعارف انتشار المناسد وتمزيق شمل الامة !! ورأت المطبوعات منه ومن اعوانه الجهلاء من الدنيا ما يكفي في نعمتهم انهم اعداء كل فكر وارثاء وتجديد ، واصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثلثين الاخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزعم وتلفيق او اماديج كاذبة له ولا رباب المظاهر ، وامور عادية لا ترفي عقلاً ولا تزيل جهلاً ، وحاول ان يرفع من دعاء القنوت لفظ « ونخلع وترك من يفجرك » لان فيها لفظ خلع وقلبه يخلع من هذه اللفظة ولانه رأى مخلوعين قبله وان يسقط من صحيح البخاري احاديث الخلافة وان تصادر حاشية ابن عابدين لان فيها باب الخلع . ورفعت من المعاجم كثير من الالفاظ كالعدل والمساواة والاعتقال والقانون الاسامي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل وغير بعض الاسماء فلا يقال « مراد » بل « مرآة » ولا « عبد الحميد » بل « حامد او حميد وحمدى » لان مراد اسم اخيه وعبد الحميد اسمه ، واصبحت الصحف في ايامه ابواقاً تقديسه وتؤلمه على صورة بلغ فيها السخف الى غاياته .

وكثر في ايامه مظاهر التكريم الخلافة من اوسمة ورتب ، واخذت تباع في آخر عهده بالزاد بيع العقار والدار ، ولها سمسرة ولها تجار ، يغوي بها السلطان من يريد تشريفه ، ويرفع بها من يهمه رفعه ، واصبح بعض العقلاء في دار الملك والولايات يتظاهرون بالبلاهة ، او ينقطعون عن الخدمة ويقنعون بالدون من العيش ، لان سلطانهم لا يرضيه منهم الا ان يكونوا على قدمه في كل ما يذهب اليه . ولقد نصح له بعض سفراء الدول في اواخر عهده بالكف من شرور بعض العمال ، لان استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة ويضر بمستقبلها ، فقال لهم : وما ذا تعمل مع من ذكرتم وهم يحبونني وينفانون في خدمتي ! اي انهم في حل من عمل ما ارادوا من عسف الامة ما داموا يظهرون له الحب ، ويخدمون اغراضه على ما يجب .

كان عبد الحميد من الحسد بحيث يحسد خصيائه ، واشق ما يبلغه ان يعلم ان في احد اطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه ، فيجتال عليه لياتي به الى الاستانة ليدفنه

حيًا ويجعله الى الخمول بعد الشهرة ، ويخرجه قسرًا من عالم النباهة والظهور ، فان لم يستطع ذلك فلا يسر من النقول عليه للخط من كرامته ويلذه جداً ان يشهد الشقاق مستحكما بين حاشيته ، ويلقي بينهم العداوة والبغضاء ، ولذلك كان بعضهم عيوناً على بعض ، ينال الواحد من رفيقه في غيبته وحضرته ، حتى يتقربوا من قلب سلطانتهم الذي يحب الملق ويهش للدهان والتزلف . عادة له منذ كان فتى ، فقد ذكر مرهيه المستشرق فبيري المجري انه كان وهو فتى لم يبلغ الحلم يلقي الشقاق بين افراد الأسرة المالكة في القصر ، وينقل الكلام من اناس الى آخرين من أهل بيته ، ويتجسس عليهم ويكشف سترهم .

أما اسراف السلطان عبد الحميد فانه كان اقل من اسراف عبد العزيز بقليل ، ولكن ظنمة الجواسيس كانت مع نفقات قصره في الربع الاخير من دوره تستنزف جزءاً مهماً من واردات السلطنة التي عرف كيف يستغلها ، وكيف بصرفها في شبهواته على طريقة مستورة ولم يطلع عليها الا الخواص من رجاله . فقد ذكر النفقات ان آل عثمان لما اجتمعهم جمهورية تركيا من بلادهم في صيف ١٣٤٢ باجمعهم كان مع بعض سراري السلطان عبد الحميد عقود من الماس والجواهر عرضوها في مصر للبيع فبجز الاغنياء عن اداء قيمها ثم جعلتها بعض المصارف عندها رهناً على مال اسلفته ، فكم كان ياترى من امثال هذه الخلي المدهشة عند نساء آل عثمان ، والامة تهلك وعمالها لا يقبضون رواتبهم . وكما عقدت قرضاً فكرت في آخر بحيث كانت الدولة تعيش بالقروض في آخر ايامها . واصبح عبد الحميد في عهده الاخير يملك الوقف من المزارع والقري ، ويحمل جانباً من امواله يضعها في المصارف الاجنبية ، يعدها لطاريء يطرأ عليه ، فلما سقط لم نفعه ، فاستولى عليها الاتحاديون كما استولوا على خزائن قصره بلديز وجموهراته واعلاقه وجواريه ، ونقضوا كل ما ابرمه ، وفصموا عرى جميع ما احكاه .

جاء في كتاب عبد الحميد الثاني ودور سلطنته انه	} رأي مؤرخ تركي
كان يعتقد بالسحر والطلسمات والارواح والفأل ، ولم	
يتعلم شيئاً حتى انه كان يغلط بالاملاء التركي ، وله من	
	} في عبد الحميد
	} وذكر حسناته

المزايا الاحتياط المتناهي والبصيرة وحب السعي وبعد النظر ، وان يعلم ماذا يقال فيه ، ينفر من الحرب ويلتزم السداجة في لباسه وحاجاته يحرص على الامر والقيادة ، ويتحرى من الاصول والمعاملات اكثرها استقامة ، يميل الى الاخذ بعلم الباطن الذي يأخذ بمجامع قلوب العامة . واذ كانت افكاره كثيرة الجولان اصبحت لانه ثبت في مركز واحد ، واذ كان مبتلى بالسويداء تراه على الدوام حزينا مغموماً مغنيماً محنقاً ، مفرطاً في الاحتياط والتأبير لا يعتمد على احد ، ممسكاً لا يعرف الكرم ، عرضة للاضطرابات الذهنية والبدنية لعدم تطابق جملته العصبية . تبدلت حاله لما جلس على سرير الملك فنفته المحن التي رآها لأول امره اكثر مما اضرته به ، ولئن كان أذناً يجب ان يسمع ما يقال فيه ، وينظر في الدقيق والجليل من الامور ، وهو محاط بجماحة من الاشرار ومزاجه عصبي فان كل هذا زاد في ذكائه . وكان الى السابعة والعشرين يتعاطى المسكرات ويغوص في السفاهات ، فنصح له طبيببه ان يقلع عنها والا فيهلك كما هلك بالسل من قبل ابوه وامه ، فرجع عن عاداته الضارة ونظم حياته ، وكان اول عمل قام به يوم استولى على زمام السلطنة ان سلب جميع ثروة اخيه السلطان مراد عقارها ومنقولها ، وكان ماهراً في عمليات الجمع والطرح والضرب ، الا انه يمتنع ابدأ من اجراء عملية الطرح اذا كانت فيها ضرر عليه ، ولم يكتف بمصادرة ثروة اخيه بل تصرف بثروته على ما يشاء ، و اضاف معظم واردات الدولة الى خزينته الخاصة ، وما كانت الحكومة تتمكن من دفع الرواتب لتغير النظار وكبار المقربين بصورة منقمة اما سائر الموظفين والجنود فان عبد الحميد ترك لهم واردات يتناولونها راتب شير او شيرين في السنة فقط ، وبذلك فتح باباً عظيماً من ابواب الرشوة اه .

ومما ينبغي ان يدون في ايامه ان بعض الامة انصرف الى الزراعة والتجارة اكثر من الادوار الماضية قبله في الشام ، لان الامن استتب اكثر من القرن الماضي ، وطرق المواصلات البحرية والبرية زادت انتظاماً ، والناس في الجملة قويت رغبتهم في تعليم ابنائهم ، ولكن المسلمين مالوا الى التترك لاخذ الوظائف الجندية والملكية ، والمسيحيين والاسرائيليين مالوا الى التفرج لتعلم في مدارس الاجانب التي ظهرت تأثيراتها في ايامه ومنها الهجرة الى مصر والسودان والاميركتين والزهد في سكنى

البلاد . وفي عهده وباهتمامه زادت الخطوط الحديدية في المملكة ومعظمها خطوط حربية ثبت له غنائمها بعد حرب روسيا الاخيرة ، ففي أيامه اتصلت حلب برباق ودمشق وبيروت ، ودمشق بدرعا ، وبيروت بدمشق ، ويافا بالقدس ، وحيفا بدرعا ، ودمشق بالمدينة ، وطرابلس بجمص ، الى غير ذلك من الخطوط التي نفعت الشام ولا سيما الخط الحجازي من دمشق الى المدينة المنورة .

وفي أيامه خفت وطأة الاشقياء اذ كان يقضى عليهم بالسجن الطويل والقاتل منهم يؤبد في السجن ، فاستراحت الشام قليلاً واخذت تدخل في نظام الامم الاوربية . وكان من سياسته ان لا يستدين من اوربا مالا ولا يقدر قروضاً معها احتاجت الدولة للمال وساءت حالها ، وكان لا يجب إهراق الدماء وأبطل الحكم بالقتل فكان القاتل يخلد في سجنه . ففي أيامه اعتدى اليونان على الارض العثمانية ، فأعلنت الدولة حرباً على اليونان وكان الدخول في هذه الحرب مخالفاً لارادته وقد جعله الباب العالي أمام أمر واقع فأعلنها كارهاً ، فانصرت الدولة لكن اوربا حاولت ان لا تنهي على اليونان وما زالت تطاول في عقد الصلح الى سنة ١٨٩٧ م وكانت نتيجة ذلك ان دفعت اليونان للعثمانية غرامة قدرها أربعة ملايين ليرة ولعلها أول غرامة أخذتها من تغلبها في احدى الوقائع بعد ذلك العز الباذخ ، وقضى عدل السياسيين بان تخرج الدولة من تساليا ! .

ويقال بالاجمال ان عبد الحميد نسخة صحيحة من تربية الفصور ، وصورة من صور دسائسها وشروورها ، استفاد من تجارب غيره ومجنهم فاحتياط وحذر ، فطالت أيامه وعرف كيف يدخل في روح الامة فسخر مشايخها وأرباب الطرق والمظاهر ، يسجون بحمده و يعددون حسناته بما يقبضون من صلواته ، وخلقوا له مناقب اخترعوها ما كان هو يحلم بها ، وكان كل شيء في أيامه ظواهر ومظاهر ، ومن دهائه النافع معرفته الدخول في عقلية السفراء فكان يرشيهم ويرشي زوجاتهم بطرق مختلفة ينفن فيها ولم يكذب يسلم من هداياه ورشاويه الا سفير بريطانيا العظمى على ما يقال . فكان اذا أهدها السلطان هدية يقدم له من الغد مثلها أو أحسن منها حتى لقد قالت امرأة هذا السفير يوماً : لقد أعجزنا أمر عبد الحميد يريد ان يرمينا في شبكته بالجواهر

والخلي كما رمى نساء السفراء قبلي . وكان كثيراً ما يلقي الشعب بين السفراء أنفسهم . وكانت له طرق وله ديوان خاص لاعطاء الصحف الاجنبية مالا حتى تسكت عن خلل الدولة وبها تبين القوتين قوة السفراء وقوة الصحافيين استطاع يوم ثورة الارمن في العاصمة وأرمينية وقتل الاتراك والاكراد نحو مئة الف من النافرين ان يسكت ساسة اوربا عن عمله وعمل عماله ومع هذا لم يمنع الحذر من القدر فطوي بساطه وبساط أمرته بما عليه جملة والله وارث الارض ومن عليها .

تولى السلطان محمدرشاد الخامس بعد السلطان	} الاحداث في أيام محمدرشاد و حرب طرابلس والبلقان وحزب الاصلاح
عبد الحميد الذي قضى في شهر ذي القعدة	
١٣٢٣ هـ (١٩١٥ م) وهو ضعيف المسدرك	

لان أخاه ضيق عليه مدة حكمه الطويل حتى تبدل عقله وكان كآخيه عبد الحميد قليل المعلومات لم يدرس من اللغات الاجنبية شيئاً بل درس الآداب الفارسية وبرع فيها . وزاد تسلط الاتحاديين عقيب ان ظفروا بين أوقدوا فئنة ٣١ آذار وقضوا على الارتجاع وغيروا بعض خططهم التي كانت ترمي الى تفوق الترك على سائر العناصر وخاصة العرب فدعت الحال الى تأسيس حزب الاحرار المعتدلين (١٣٢٩) الذي ظهر بعد ذلك باسم حزب « الحرية والائتلاف » في العاصمة والولايات ولم ير الاتحاديون للخلاص من مخالفتهم أحسن من الاعتماد على القوة فاغتالوا بضعة رجال في الاستانة وحاولوا ان يغتالوا في الشام بعض أعدائهم الاشداء من أرباب القلم فلم يفلحوا وأقصوا من الخدمة كل من لم يسر على رغائبهم ونقاتل الحزبان فكانت الغلبة تكتب اكثر السنين للاتحاديين لانهم دعاة الحرية الأول وترتيباتهم تامة من أكثر وجوهها تشبه ترتيبات جمعية الماسون ولا سيما فيما كان من قبضهم على قياد الاعمال وأخذهم بمخنق جميع العمال .

ونارت اليمن سنة ١٣٢٩ فأرسلت الدولة جيشاً عظيماً على صنعا والعسير قتل في حربها من ابناء الشام الوف . كما كانت كل مرة تدفن الوقا من ابناءها في تلك البلاد القاصية . حدثني عظيم من الاتراك وكان اكبر رجال الشورى العسكرية في الفيلق

الخامس بدمشق أن الدولة بحسب احصاء الجيش كانت تدفن كل سنة من ابناء الشام في بلاد الين نحو عشرة آلاف جندي يهلكون بالامراض والقتل والقلة وتغير الهواء دامت على ذلك نحو خمسين سنة حتى عقد الصلح بين امام الين يحيى بن محمد حميد الدين وبين قائد الحملة الياية عزت باشا وبهذا العقد لم يبق للدولة هناك غير سلطان قليل في صنعاء وتعز وما اليها من البلاد والجبال ، وانتقلت جل الاحكام الى الامام وذلك في سنة ١٣٢٩ هـ .

وظهرت أيضاً قنن أخرى في كردستان وبلاد الالبان واذنة ، فلم ترتج البلاد سوى اشير معدودة بعد اعلان القانون الاساسي . ومنشأ كل فئدة داخلية العمال على الغالب ، ثم تمتد وتنتشر فيصيب الامة شرها ، ويتولى الامر الجهاد ، ثم يتعذر على العقلاء حل العقد التي يعقدونها ، وكم من مجنون رمى في بحر حجرأ فصعب على مئة عاقل اخراجه .

ثم وقعت حرب طرابلس بين العثمانية واطاليا وجاءت ايطاليا باسطوطها الى سواحل طرابلس وبرقة بدون مسوغ وضرب اسطوطها سفينتين عثمانيتين كانتا راسيتين في ميناء بيروت فهلك من أهل المدينة والجنود زهاء مائتي نسمة ، وأرسلت الشام جنوداً ومعاونات نقديّة الى طرابلس ، آخر ما بقي للعثمانيين من الولايات في قارة افرريقية . ولم يعقد الصلح في اوشي من سويسرا بين العثمانية والاطالية حتى اعلنت دول البلقان المتحدة (بلغاريا والصرب والجبل الاسود واليونان) الحرب على الدولة العثمانية فغلبتها ، وجاء جيش البلقانيين الى جتالجة من ضواحي الاستانة ، وعقدت الهدنة يوم الثالث من كانون الاول ١٩١٢ بين العثمانيين والبلقانيين وعقد مؤتمر في لندن لاصلاح ذات البين بين الفريقين فلم يفلح وعاد المتحاربون الى النزاع بعد الازمة الوزارية التي انتهت بسقوط الصدر كامل باشا وقتل ناظم باشا ناظر الحربية بيد انور بك من ضباط الاتحاديين ودعاة الدستور في الروم ايلي ، واخذ الاتحاديون بعد هذه الفاجعة يستولون على ازمة الامر وظهر انور بك بمظهر جديد فقبض على عنان الحكومة ، واستؤنفت الحرب بين المتحدين من البلقانيين الذي انفرط عقد اجتماعهم فزحف العثمانيون على ادرنة فاستعادوها الى الملك العثماني ولم يبق للدولة في قارة اوربا غير ولاية ادرنة وما اليها من ضواحي الاستانة

والسلخت عنها هذه المرة ولايات قوصوة واشقودرة ويانيا ومناستر وسلانيك وعادت الحرب فنشبت بين العثمانيين والبلقانيين في ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ وعقد الصلح في ٢٩ ايلول ١٩١٣ وقد فقدت العثمانية في هذه الحرب مئة الف جندي بين قتيل وجريح وثمانين مليون ليرة ثم ذخائر وسلاح وخرجت من الروم ايلي الاقليات وكانت صرفت في فتحه خمسين سنة وحكمته خمسمائة سنة ولم توفق الى نشر لغتها ودينها فيه على ما يجب .

وفي سنة ١٩١٣ اتحد جماعة من السور بين بينهم اللبنانيون والمسلمون على مطالبة الدولة بالاصلاح للشام وكتب والي بيروت ادهم بك الى الصدر كامل باشا كتاباً قال فيه : (كانون الاول ١٩١٢) يتجاذب البلاد عوامل مختلفة ولقد ولي قسم عظيم من الاهالي وجهه شطر انكثرا او فرنسا لاصلاح الحالة التعسة التي هم فيها فاذا نحن لم نأخذ بالاصلاح الحقيقي تخرج البلاد من يدنا لالحالة اهـ . فأرسل الصدر الى والي يريد الاهلين على عرض مطالبهم فاجتمع المجلس العام في بيروت وانتخب ٩٠ عضواً عقدوا جلستهم الاولى في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣ واختارت من اعضائها خمسة وعشرين مفوضاً ممتهم اللجنة الدائمة وقدمت هذه بياناً بالاصلاحات المنشودة واتفق على ذلك اعيان المسلمين والمسيحيين فوضعت اللجنة في بيروت لائحة اهم ما فيها توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب . وفي اوائل الصيف ذهب وفد من البيروتيين وغيرهم الى باريس وعقدوا هناك مؤتمراً قرر يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ ان تضمن للعرب حقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً وان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة مركزية ننظر في حاجاتها وعاداتها وان تُنفذ لائحة الاصلاحات التي نظمت في بيروت القائلة بتوسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب وان تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني وتكون لغة رسمية في الولايات العربية وتكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية .

نحاف الاتحاديون العاقبة وبعثوا أناساً من قبلهم وقبض واليهم في بيروت حازم بك على عدة أعضاء من الاصلاحيين فأغلقت المدينة حواجزها أياماً فأخرجهم من

السجين، وبعث الاتحاديون أناساً من قبلهم الى باريز وغيرها، واسترضوا أعضاء الوفد وأطمعوا بعضهم بالوظائف الكبرى ووعدهم ان تجري لهم الحكومة الاتحادية من مطالب الإصلاح ما يمكنها القيام به. مثل تسليم الاعمال الادارية الى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بادرارة الولايات وان يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية وتستعمل اللغة العربية في بعض أعمال قانونية معينة، وان تضاف الصيغة العربية على إعلانات الجلب الى المحاكم كما تضاف الى الاحكام المدنية والجنائية وتكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية، وان يعين بعض العرب في مجلس الاعيان ومجلس شورى الدولة ومحكمة التمييز وشيخة الاسلام ودار الفتوى .

وطبق الاتحاديون بعض هذه المواد فرأينا في بعض مراكز الولاية والولايات في الشام مدارس تجهيزية تدرس العلوم العربية، والى جانبها المدارس القديمة التركية في كل مظاهرها، ووضعت الصيغ العربية الى جانب الصيغ التركية في اوراق الجلب الى المحاكم، وأخذت الحكومة تقبل الشكاوي بالعربية من الاهلين، وعين بعض رجال الشام في وظائف كبرى في العاصمة، وكان نائب دمشق في مجلس النواب شكري بك العسلي أول من رفع صوته بهذا الطلب، طلب اعطاء العرب حقوقهم من الوظائف وقال: ان اربعة فقط من أبناء العرب موظفون في الادارة المركزية في جملة بضع مئات من الاتراك، فنبه أفكار من لم يكن منبهاً من أبناء العرب الى غمط حقوقهم، وحنق بعض فحج الترك عليه وعلى من عاونه على بث هذه الفكرة وعدوها خروجاً على الجماعة .

وكان هذا النائب ايضاً أول من نبه أفكار مجلس
 النواب الى الخطر الصهيوني في فلسطين وكان
 الصهيونية ومشأوها }
 الاتحاديون وفيهم الإمبراطوريون والصابثون من اليهودية (الدونمة) أمثال جاويد بك
 ناظر المالية — ينوون ان يبيعوا نحو ثلاثة ملايين دونم من الاراضي في فلسطين
 وسورية من جمعيات الاستعمار الصهيوني، فبطل المشروع لما ظهرت مضرته الى عالم

الوجود وقامت حول المشروع ضجة في الصحف فلم يسع الاتحاديين الا ان يطووا دفتره .

ولكن كان الصهيونيون يؤلفون عدة جمعيات للوصول الى اغراضهم السياسية منها جمعية احباء فلسطين انتشرت في اطراف فلسطين ونفرت منها عدة جمعيات منها جمعية معاونة فلاحي اليهود وصناعهم في فلسطين وسورية وانشأوا لجانين الجمعيتين فروعا كثيرة في امهات مدن فلسطين وبلاد بشارة وحوارث وعبير الاردن وابتاع للاسرائيليين ابناء مذمهم من كبار اغنياء اوربا اراضي وآمدوهم بالمال ليحققوا آمالهم القديمة في استرداد فلسطين ويعيدوا مجدهم اليها وهذه الآمال قديمة ترد الى عهد الرومان « وغاضت بعد ان شتمتهم في الارض ادرينانوس في القرن الثاني بعد المسيح وفرق جامعتهم وأبعدهم عن صهيون او اورشليم او القدس عاصمة مملكتهم القديمة ومدينة هيكلهم العظيم ولكنها ما لبثت ان ظهرت في صورة التمني وفي عهد قسطنطين الذي اذنت لهم بالذبح مرة في السنة من أسوار بيت المقدس ليندبوا مجدهم الزائل وما زالوا الى يومنا هذا يدنون من حائط الحرم الشريف الخارجي المسعى بالبراق ويتذكرون مجد ملوكهم وعظمة هيكلهم ومدنيتهم ويطلبون من الله ان يعيدهم اخصروه . وكان رجال النهضة منهم لم يقفوا عند حد التمني فألف الدكتور هارثل الجمعية الصهيونية التي جعلت همها الوحيد جمع المال وتوحيد كلمة اليهود على اختلاف لغاتهم وبلدانهم وجمعهم في بلد واحد امين . وعهدت الجمعية الصهيونية الى الايكا بالاستعمار التدريجي كما عهد الى جمعية الاتحاد الاسرائيلي بالتهذيب والتعليم .

وقد كتب المرحوم شكري بك العسلي في هذا الصدد يوم قام الاسرائيليون لابتياح سهل يزرعيل ما نص : ان الجمعية الصهيونية اليهودية ورفيقاتها جمعيات ايكا وفاعوليم والاليانس وغيرها ساعيات في استرجاع فلسطين التي وعدهم بها ربهم في الاصحاح الثاني والثلاثين من ارميا من الكتاب المقدس الباحث في امر بابل لليهود والذاكر وعد الرب برجعهم الى فلسطين بقوله في آخيه : « يشترتون الحقول بفضة ويكتبون ذلك في صكوك و يختمون ويشهدون شهودا في ارض بنيامين وحوالي اورشليم وفي مدن يهودا ومدن الجبل ومدن السهل ومدن الجنوب لاني ارد سبيهم

بقول الرب اه « . وذلك بعدما سبتمهم حكومة الكلدان على انهم لم يستطيعوا البقاء بعد ذلك لانهم اصبحوا محل النزاع بين حكومة الرومان في مصر وحكومة الرومان في انطاكية ثم اتقروا ولم يبق لهم ملك ولا دولة . والآت عملاً بهذه الآبة يشترون الاراضي في فلسطين على حساب الفضة ويشترطون البيع على ان يكون الثمن فضة ويكتبون الصكوك ويشهدون وهكذا تراهم لا يفترق طرفه عين بتجسسوا اخبار من تأخرت حالتهم المالية من اهل هذه البلاد وهي عبارة عن لواء عكا بأجمعه ولواء القدس ولواء نابلس وقسم من لواء الكرك وبعض من قضاء عجلون ويطعمون البائع بالثمن الفاحش ويكتبون الصكوك ويشهدون عليها ويسجلونها عند محرر المقاولات وعند بعض القنصليات وكانت الحكومة قبلاً منعت استعمارهم ولكن بما بذلوه من الدنانير التي تسخر الباب الخائنين من الحكام والمستخدمين استطاعوا ان يستولوا على ثلاثة ارباع قضاء طبرية ونصف قضاء صفد واكثر من نصف قضاء يافا والقدس والقسم الميه من نفس حيفا وبعض قراها واليوم يسعون للدخول الى قضاء الناصرة ليستولوا على سهل شارون ويزرعيل المذكور بالتوراة والمعروف اليوم بمرج بني عامر الذي يشقه الخط الحجازي من الغرب الى الشرق .

« وهكذا اشترى الكثير من القرى واستولوا عليها وهم لا يخالطون العثمانيين ولا يشترون منهم شيئاً ولم ينكروا انكروا فلسطين يقرضهم بفائدة لا يتجاوز الواحد في المائة في السنة وقد جعلوا كل قرية ادارة فيها مدرسة وكل قضاء مديرية ولكل جهة مدير عام ولم راية لونها ازرق وفي وسطها خاتم سليمان وتحتها كلمة عبرانية معناها « صهيون » لانه جاء في التوراة ان اورشليم ابنة صهيون ويرفعون هذا العلم مكان العلم العثماني في اعيادهم واجتماعاتهم وبترنموز بالشيد الصهيوني وقد احتالوا على الحكومة فقيدها انفسهم عثمانيين في سجل النفوس كذباً وبهتاناً وهم لا يزالون حاملين الجوازات الاجنبية التي تحميهم وعند ما يصيرون الى المحاكم العثمانية يظهرون جوازاتهم ويدعون الحماية الاجنبية ويحلون دعاويهم واختلافاتهم فيما بينهم بمعرفة المدير ولا يراجعون الحكومة ويعلمون ابناءهم الرياضة البدنية واستعمال السلاح وترى بهوتهم طاعة بالاسلحة

وفيهما كثير من المارتين ولهم بريد خاص وطوايع خاصة وغير ذلك مما يبرهن على انهم بدأوا بتأسيس مقاصدهم السياسية .»

وخرجت الدولة من حرب طرابلس والبلقان واليمن
وكرديستان وغيرها من البلدان مجردة من قوتها من
المال والرجال ، ولم تكذب فكر في جمع شتاتها حتى
قتل ولي عهد النمسا في مدينة سراييفو من بلاد الصرب وأعلنت الحرب العالمية ،
فكان نصيب الدولة العثمانية ان تسير مع المانيا والنمسا والمجر مخالفة لمن على بريطانيا
العظمى وروسيا وفرنسا وغيرهن من الدول ، وكانت ذلك بتزيين الاتحاديين وفي
مقدمتهم طلعت باشا وانور باشا وجمال باشا ، وقد كانت الدولة تميل منذ نحو ثلاثين
سنة لالمانيا منذ زار امبراطورها غليوم الثاني بلاد الدولة مرتين وقال في المرة الثانية
(١٣١٦) لما زار القدس ودمشق في خطاب له القاه في بلدية دمشق : « اجتمع من
صميم الفؤاد بانني وطشت بلداً عاش فيه من كان اعظم ابطل الاعصر السالفة بأسرها
الذي كان بأفعاله يعلم اعداءه أنفسهم كيف تكون الابطل ، العالي المقدار المشهور
السلطان صلاح الدين الايوبي . قال وليتأكد حضرة السلطان عبد الحميد خان الثاني
صاحب الخلافة العظمى والثلاثمائة مليون من اهل الاسلام المرتبطين ب مقام خلافته
المنتشرين في جميع اطراف الكرة الارضية ان امبراطور المانيا يبقى صديقاً لهم
الى الابد » .

انتهجت المانيا السياسة الاسلامية واتخذت لها دعاة من دهاة رجالها في الاستانة ،
فتم لها ما ارادت بعد سنين من الاستعانة بالدولة العثمانية على حرب اعدائها ، واستسلم
رجال الدولة لما تم مخدوعين بالاقوال المبهرجة مأخوذين بالوعود اللطيفة ، وكانت
السلطان محمد رشاد وهو لا يعقد ولا يربط في شؤون السلطنة ، يقاوم الذين يريدون
اصلاء الحرب في الدولة لعله بمضارها ، ولم يوافق عليها بعض الوزراء فخرجوا من
الوزارة الا انور وطلعت وجمالاً وهم الحركة العاملة في الدولة ، ارادوا خوض غمارها
متشبعين بالروح الالمانية ولا سيما انور ، وعلقوا على المانيا امانهم في ارجاع الدولة الى

عزها ايام سليم وسليمان ، وما كادت تعلن الحرب حتى نفذ الوزراء الاربعة الذين لم يقولوا بدخول الدولة في الحرب ومنهم سليمان افندي البستاني من اهل الشام خطتهم وقدموا اقبالهم تاركين الحكومة في ايدي الاتراك . اما سعيد حليم باشا الصدر الاعظم الذي كان عزم ان يستقيل فدفعه حبه للفخر والأبهة والعظمة ان بقي في رأس اعظم منصب في الحكومة التركية ، فلم تك اذاً نتيجة دخول الدولة في الحرب الا توحيد السلطة في المملكة في ايدي رجال الاتحاد والترقي ، وانتهت الثورة التي كانت ترمي الى جعل تركيا دولة دستورية يجعل تركيا حكومة مطلقاً رائداً الظلم والاستبداد وغاية افرادها الاولى النفوذ والسلطة والكسب على ما قال سفير اميركا في الاستانة لاول الحرب .

وعلى ذلك شرعت الدولة لاول وهلة تعي جيشها ، واخذت من الشام سبعمائة وعشرين فرقة كادت معها حركة العمل تقف ووقفاً مريعاً ، ولم تلبث الدارعات الالمانيتان غوبن وبرسلوان دخلتا في ميناء الاستانة ملتجئتين من مطاردة الاسطول الانكليزي لهما في عرض البحر الابيض ، وسلمت قيادتها بالصورة الظاهرية الى العثمانيين ، فعدت روسيا هذا العمل من الدولة العثمانية اعلاناً لها بالحرب ، وما فتئت ايدي الالمان ان تغلغت في جميع فروع الادارة في السلطنة ، واخذت المانيا تغدق الذهب الوهاج على الدولة ، وكان لانور باشا القائد الام وناظر الحربية قسط عظيم منه لا يسأل فيما انتقمه ، وبدأ الالمان يغرون الاتراك باستعمال الوسائل الوحشية في معاملة الاجانب والعثمانيين معاً ، ويضيقون خاصة على غير المسلمين من الارمن والاروام ونصارى الشام . وزعم سفير اميركا في الاستانة انه درس اخلاق الاتراك فعلم علم يقين ان أقوى عواطفهم عاطفة الخوف فهم لا يحبون ولا يبغضون بل يخافون ويريدون غيرهم ان يخافهم .

وقال نومان الالماني^(١) : ليس استيلاء الاتراك من حيث الاجمال في ظلمه مثل ما كان بصورة غلادستون في خطبه قديماً على مقدونية . فالتركي ليس بعيداً عن

(١) كتاب اوربا الوسطي تأليف نومان

الانسانية اذا ترك مطمئناً وغاية ما كان يتطال اليه : خراجه وراحته . ومن الخطأ ان يبالغ في عبء الاموال التي كان الاتراك يفرضونها على البلاد . فقد روى لي اناس واقفون على اطراف المسألة ان البلغار بين يؤدون اليوم الى ماليهم خمسة أضعاف ما كانوا يدفعون على عهد الحكم العثماني ، وفي الجملة فان تحرير البلغار من سلطة الاتراك لم يكن اقتصاداً بل كان فيه مضاعفة التكاليف . وما كان الضغط التركي الا سلباً لا ايجاباً ، وذلك لانه كان يقيد القرائح والاذهان ، ويصد الكفاءات وقوى الارادة عن الانبعاث ، فكان الشعب البلغاري يتنبت يعيش كالكائنات المنتظمة ولكن بدون حرية ولا ارادة شخصية ، وبمثل هذه الصورة يتيسر لشعب ان يعيش سليماً ولكن هذه الصحة ليست لها غاية اذ لا يتأق للمرء معها ان يخصص حياته لامر مهم .

* * *

قسط الشام من الحرب } دخلت الدولة في الحرب وقاتل ابناء الشام في
وعمل جمال باشا } الجبهات الحربية المختلفة . قاتلوا في جناق قلعة
ورومانيا ودبرويجة وقافقاسيا والعراق والسويس وشبه جزيرة سيناء فهلك منهم
عشرات الالوف ، وقامت الشام انواع الحرمان والامراض فهلك منها ولا سيما في
لبنان من الجوع فقط نحو ١٢٠ الفاً ومثل ذلك بالحميات ولا يقل الهالكون من ابناء
الشام عن ثلاثمائة الف انسان مدة اربع سنين .

وفي الحق انه لم يقع حرب جديدة في الشام ، بل كان ابناءؤه يساقون كسائر
العثمانيين الى الجبهات الاخرى ، والجبهة الوحيدة التي كانت يجوار الشام جبهة الاسماعيلية
فلم نشب الحرب حتي ندب الاتحاديون احد كبار رجالهم احمد جمال باشا ناظر البحرية
العثمانية اذ ذاك قائداً على الجيش الرابع ، وكانت منطقتهم تمتد من اقاصي حدود اذنة
الى المدينة المنورة ، وأخص اعماله ان يشاغل البريطانيين في حدود مصر ليضطروا
الى وضع قوة معمة من جيشهم في ترعة السويس ، تخفف عن الدولة في جناق قلعة
من جيش الحلفاء ، وعن عاتق الالمان في الجبهة الغربية بين الحدود الالمانية والفرنسية ،
وهذا تدبير الماني صرف وقد نجح بشاغلة البريطانيين واشغال أذهان قوادهم ، فوضعوا
على التركة وفي حدود سيناء جيشاً عمرماً انقضاء جيوش الترك والالمان .

وكان بعضهم يعتقدون ان افنتاح مصر والتغلب على البريطانيين في الترعَة من الامور السهلة ، لان المصريين يقومون في الحال بشورة على البريطانيين عندما نترأى لهم اعلام العثمانيين المحبوبة في وادي النيل . قال سفير اميركا في مذكراته : وكان جمال باشا ناظر البحرية واحد الثلاثة الذين يدرون دفة الملك في تركيا ذاهباً الى الشام ليستلم قيادة الجيش الرابع السلطاني ، وكان الجيش يجبهه ويهتفله بأنه مخاص مصر ، فأعلن جمال باشا على رؤوس الايشهاد قبل سفر القطار من الاستانة ، انه عقد النية ان لا يرجع الى الاستانة قبل افنتاح مصر . قال : لم اكد اري ذلك المشهد الفخم حتى رجعت بي مخيلتي تطوي الاعوام والقرون الى ان استقرت في تاريخ رومية على مشهد يشبه ما رأيته في القرب العشرين الا وهي حفلة وداع مرقس أنطونيوس حين غادر رومية ليخضع الشرق ، فكانت تركيا مثل رومية في ذلك الوقت في دور الانحطاط والانحلال ، فرأى جمال باشا ان يبدل جهده لعله يتمكن من أن يصير حاكماً على ولاية غنية ، وكان يؤمل انه ان أفلح بافنتاح مصر ينال شهرة عالمية واسعة اه .

جاء جمال باشا الى الشام وقبض على زمام القوة واكثر الاحكام فيها ، وبدأ بهي بواسطة الاملات حملته على الترعَة فسارت الحملة (٤ شباط ١٩١٥) فرقتين فرقة منها اجتازت المسافة من السبع الى القنساء في ستة ايام والاخرى في عشرة ، وقطع الجيش الصحراء التي تبلغ مسافتها ثلاثمائة كيلومتر ، دون ان يقع في معضلة من حيث الماء والتموين ، وكشف القسم الواقع بين بحيرة التمساح والبحيرة المألحة من القنساء ، وهجم قسم من الفرزات بواسطة الجسور العوامة الى الساحل المقابل بالحراب على البريطانيين ، فأغرقت المدافع المنبعثة من ست طرادات انكليزية الجسور العوامة ، وقبضوا على من جازوا الساحل الآخر من الجند العثماني واكثرهم من أبناء الشام ، وقتل في معركة الاسماعيلية بتقدير جمال باشا في مذكراته ١٩٢ قتيلاً و ٣٨١ جريحاً وأخذ ٧٢٧ أسيراً ومتغيباً وقدر البريطانيون ما فقد من الترك بالف قتيل والفي جريح وستائة وخمسين أسيراً . وعاد العثمانيون أدراجهم مقتبطين بزعمهم انهم يستطيعون ان أرادوا بجسورهم العوامة ان يقطعوا الترعَة الى الشق الآخر ويستولوا

على مصر . وكان الجيش البريطاني الذي هاجمه الترك على التربة مؤلفاً من جيش هندي قوي وفرقة من الجنود البريطانية وجيش قوي من أستراليا ونيوزيلندا ، وأربعين ألف رجل من الاحتياطي وراء الخنادق المنيقة التي حفرتها التربة ونحو مليون جندي وعامل مصري استخدموا في خدم ثانوية أفادوا بها الجيش البريطاني فائدة عظيمة .

وأنفق العثمانيون نفقات طائلة على السكك الحديدية حتى وصلت إلى بئر السبع وصرفوا على هذه القرية مئات الألوف من الليرات لتحسينها وتحصينها أما البريطانيون فأخذوا بعد تلك الحملة العثمانية التي فشلت بتقدمهم في الصحراء نحو بلاد الشام ، يمدون الخطوط الحديدية في الرمال تحت حماية مدافعهم ، وما زالوا يسرعون في تمديد الخطوط في صحراء الجفار بحيث كان معدل ما ينشئون كيلو مترين كل يوم ، وهكذا حتى اقتربوا من العريش فلم يتقدموا خطوة إلى الأمام إلا بحسب طريقته المعروفة في فتوحهم أي بقدر مرمى المدافع ، ريثما تم الخطوط الحديدية وتؤمن السبل حق الأمن .

إهلاك أحرار الشام والسياسة }
 الاتحادية مع العرب }
 خطب جمال باشا لأول شخصه إلى الشام
 في النادي الشرقي بدمشق (١٣٣٣) قائلاً :
 يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحبوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم ، منذ شروق أنوار
 الديانة الاحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبيل الاسلام ،
 عضوا على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم ، إعملوا على ترقية العرب والعربية
 جددوا مدنيتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالاً كاملين — جهر به هذا على رؤوس
 الإشهاد وقال مثله لأرباب الأقاليم في مجالسه الخاصة ، بيد انه كان يفكر وجماعته
 من الاتحاديين في الطرق إلى الانتقام من العرب المخالفين وإزالة العقوبة بين رفعوا
 أصواتهم بالمطالبة بحقوق لامتهم فعدوهم خائنين للدولة ، وما هم إلا مخالفون على الاغلب
 والمخالفة طبيعية في كل حكومة دستورية بل في كل حكومة ، تظهر وتستر بحسب
 الاحوال والدواعي ، واعداء الائتلاف أي الداخلون في حزب الحرية والائتلاف

خائنين في نظر الاتحاد والترقي ، وكان بعض أعضاء الحزب ينزعون منزعاً انكليزياً اي يحبون ان يعملوا بمشورة بريطانيا وبعض حزب الاتحاد ينزعون منزعاً المانياً وحسب الاتحاديون من الخائنين ايضاً جماعة الاصلاحيين في بيروت اي المطالبون بالاصلاح في ظل العثمانية ، واللامركزيين اي المطالبون بتوسيع سلطة الحكومات المحلية . وكان هذا الحزب تألف في مصر من جماعة من الشاميين وانشئت لهم فروع في بعض مدن الشام وقصباته ، وتألف حزب فتیان قحطان في الاستانة . وهكذا قل في جمعية العهد العسكرية والجمعيات اللبنانية المختلفة المقاصد في لبنان والمهاجر .

فلما دخلت الدولة في الحرب رأى الاتحاديون ان الفرصة آذنت للقضاء على كل فكرة جديدة تخالف ما هم عليه وأصحابهم في سياسة الملك ، وتلقى الرهبة والهول في كل القلوب ، واعتزوا بحسالتهم مع الالمان وبالاموال التي كانت تقررهم اياها بالملابيين ، وليس أحسن ملائمة من هذا الدور من تولي أحد كبار أساطينهم احمد جمال باشا زمام القوة في الشام ، وهو الذي كان تولي قتل المخالفين في الاستانة من الاتراك أنفسهم وقتل حتى صهر السلطان ، فأصبح متمرناً على الانتقام من كل من يخالف مذهبه السيامي ، او كما قال عن نفسه في آخر خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق ان طالعه كان القتل ، نديب لقتال الناشئين من الاتراك كما عهد اليه قتل الناشئين عن الطاعة من العرب .

ولما نذب جمال باشا لقيادة الجيش الرابع حمل معه أضاير التهم والتحقيقات ونقار الجواسيس الموجبة لمئات من أبناء الشام ، وبينهم أناس من أهل الطبقة العليا وكثير من الشبان المتعلمين . فألقى عصا التسيار في دمشق وشرع بالتحقيق عن زمرة هؤلاء المتهمين ، وألف ديواناً عرفياً في عالية من لبنان فحكم اوائل آب ٣٣١ ش على ١١ رجلاً نفذ فيهم حكم القتل صلباً في ساحة البرج في بيروت وكانوا متهمين بالدخول في حزب اللامركزية ، ثم شرع بالقبض على طبقة أخرى اكثر علماً وتأثيراً ومكانة في البلاد ، ومدار تهمته الفریق الثاني او القافلة الثانية انهم حاولوا سلخ سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية وجعلها امارة مستقلة ومؤازرة الدولة البريطانية ، ولكن الحكومة التركية اتهمتهم انهم كانوا يعملون لادخال الاجانب

(الفرنساو بين او الانكليز) الى الشام في حال الحرب على ان هذا ليس بصحيح . واذ نفوه به بعضهم لاحد القناصل طمعا في ايمارة او مظهر من المظاهر فلا يسري اعترافه على الجميع . ويقول جمال باشا في مذكراته رداً على من يقول ان الاشخاص الذين أجزموا وظهرت ادانتهم وشنقوا في سورية قد شملهم العفو العام الصادر في سنة ١٩١٣ فحماكتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني - انه قد بين في الكتاب الاحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) ان اولئك الاشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام باعمال جنائية جديدة ، وان ادانتهم ترجع الى جرائمهم بعد ذلك العفو ، واذ كانت الوثائق الخاصة بادانتهم قبل العفو تعتبر قرينة قوية ، بدا للحكومة ان تخصصها ونشرها لتبين للملايين مبلغ شناعة خيانتهم اه . وبعد ان اورد بعض الوثائق السياسية قال : فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الانسان بسهولة ان الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق لضم سورية بحجة حماية العرب . وفي الحق ان أعمال بعض من صلبوا قد ظهرت في أوراق قناصل فرنسا في دمشق وبيروت وحلب وغيرها من مدن الشام ، فانهم أبقوا أوراقهم في أماكنها بعد دخول الدولة في الحرب فانكشفت بذلك اسرار مهمة ساعدت الاتحاديين على الابلاغ في عقوبة مخالفهم . اما قناصل بريطانيا فقد احرقوا أوراقهم ومنهم من استظهر الخطط الحربية المتعلقة بالشام ، فبما بذلك كل من كان له صلة من الاهلين بقناصل بريطانيا العظمى .

وقد حكم الديوان العرفي في عاليه على ٢١ رجلاً بالقتل وهم القافلة الثانية نصلبوا في بيروت ودمشق في يوم واحد (٤ رجب ١٣٣٤) صلب سبعة في دمشق والباقي في بيروت ، وكان فيهم الارباء الذين ما أرادوا قط خروج الشام عن حكم الترك ، و صلب بعض وجوه المواردنة ورهباينهم لانه ثبتت عليهم دعوة فرنسا للاستيلاء على الشام . ولما قبض على الرعيل الاول في السنة الاولى للحرب سألت خلوصي بك والي دمشق ، وكان يفيض معي بمسائل الدولة بحرية تامة ، وكان من الاحرار العقلاء في السلطنة ، وهو أعلم تركي وأعقل عامل رآته الشام في الاربعين السنة الاخيرة قائلاً : كنتم أمس في بيروت فما ذا رأيتم يا سيدي في قضية اولئك المتهمين وما هو وجه تهمتهم

ياترى ؟ • فأجابني بما تعريبه بالحرف : « سلسلة من التزويرات والتلفيقات عليهم قاتلهم الله وأخزاهم » • أي قاتل الله المزورين والملفقين ويعني بهم الاتحاديين •
ومن الغريب انه سبق الى القتل بعض من كان نالهم الغفوة يوم أغلقت الحسابات القديمة مع الدولة، كجاعة الاصلاحيين الذين نالوا بعض المطالب بعد مؤتمهم في باريز، فانهموا بمسائل أخرى ارتكبوها ، وأغرب منه ان يتطوع بعض ابناء البلاد بالجاوسية للترك ويشهدوا على رجالهم في الديوان العرفي بما اوصلهم الى اعداء الصلب ، وان يتوسع بعض المصلوبين في شهاداتهم واستنطاقاتهم ويدخلوا في زميرتهم عشرات من الشبان وغيرهم حتى لا يبقى بيت عامراً في الشام ، وتسقط بزعمهم مكانة تلك القضية فيطوى سجلها بما فيه ، ولكن رجال الديوان العرفي كانوا اعقل من ان تغرهم هذه الظواهر ، واكتفوا باصدار احكامهم على من ثبتت اذانتهم بحسب الخطة المرسومة او اقتضت مصلحة الاتحاديين القضاء عليهم من نهباء البلاد ، وهدد جمال باشا بالقتل اعضاء الديوان ان لم يحكموا على المتهمين السياسيين فوافق بعضهم على القتل اضطراراً لا اختياراً •

وقد ذكر شكيب ارسلان ان خطأ جمال باشا في رأيه وجنابته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية :

اولاً — ان فريقاً آخر من الذين قتلهم ابرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية •

ثانياً — ان فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ولاقرائن قطعية تذهب في جزائهم الى درجة القتل وقد برز جمال هذا الممهل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بانه من باب « القتل السياسي » مع انه كان الاولي بهؤلاء ان يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بمجلس او نفي على حسب درجة جرمهم •

ثالثاً — على فرض غير الواقع ، وهو ان هؤلاء مجرمون اعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأسية ، فتح هذه المسألة اثناء الحرب وبمجازاة اناس قد عفي عنهم ونك القروح التي كانت قد سكنت نوعاً ، واثارة عواطف العرب وحفاظهم

واظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحت لهم للبطش وتعزيز النزعة الاجنبية بهذه السياسة .

رابعاً - ان الاولف الذين نفاهم الى الاناضول مع عيالهم وخرّب بيوتهم ، وامات كثيرين منهم في الغربية لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلاً ان يكونوا خائنين للدولة فكان تغريبهم عن اوطانهم مجرد عذاب وقبر ، بدون ادنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ الف ليرة شهرياً فكانت خطأ جمال انه سلخ اعداء السلطنة العثمانية وانصار الشقاق بين العرب والترك ورواد السياسة الاجنبية الكثيرين في الشرق بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كانت الاتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون اعمال جمال ١٠٠٠ هـ .

وبعد فقد عمل جمال باشا ما عمل بقرار من جمعيته ، وكان من ورائه انور باشا يحثه على اهلاك هؤلاء الذين صلبوهم . وقد جاء هذا مرة الى عاليه من لبنان فقال على صورة الاستنكار : « اما قتلتم بعد هؤلاء الخونة » . وكان انور باشا نمراً مقترساً في صورة حمل ودبع ، والدم في نظره ونظر رفاقه طلعت ومدحت وناظم وشركاؤهم احلى في المذاق من طيب الشراب خصوصاً اذا كان صاحبه غير تركي ، ومساويه ومساوي اصحابه اكثر من ان تحصى ، تجردوا من كل عاطفة ومن كل دين ، وعاطفتهم دهان ونظاهرم بالدين رياء .

وقبل تنفيذ الاحكام بالجوقة الثانية كان قائد الجيش الرابع ينفي من الشام الى صميم الاناضول أسراً برمتها ، وفيهم بيوت من صلب رجالهم بالتهمة السياسية ومن جلاهم أناس من الغوغاء والقتلة القدماء واشترك في هذه التكبئة المسلمون والمسيحيون وغيرهم على السواء ، خصوصاً من كان لهم صلة بدولة من دول التحالف فرنسا وبريطانيا وروسيا ، ثم طمع الاتحاديون ان يتوسعوا في تأديبهم واعدوا في الاناضول الوقاً من الدور ليجلوا الناهبين من سكان الشام الى تلك البلاد وكان الاتحاديون قرروا في مؤتمرهم ان يجلوا العرب الى بلاد الترك ويستعوضوا عنهم في الشام بأناس من شذاذ الافاق وان يعاملوا مهاجرة الشام كما عاملوا الارمن يوم جلوهم عن بلادهم اي ان يقتلوهم على بكرة ابيهم سيف الطرق و يقتالوهم بالطرق التي اغتالوا بها اعداءهم الارمن . وشرع

الترك يقبضون على جوقة ثالثة من وجوه الاهلين ومنور بهم ويعذبونهم بتهم سياسية
وجوهها اليهم منها ان لهم ضلعاً في انشاء حكومة عربية ومفاوضة شريف مكة بذلك .

خلع شريف مكة } كانت البقية الباقية من منوري الشام تخاف سوء
طاعة العثمانيين } المغيبة من عمل الاتحاديين خصوصاً بعد ان مروا على
وتأثيره في الاتراك } ازهاق النفوس ، ورفعوا حجاب الوهم الذي كان
مسدولاً فرفعوه وعرفوا ما تحتهم يوم جسروا على قتل كبراء الامة ولم ينتطح عنزان .
وكادت النوبة تصيب اهل الطبقات الثالثة والرابعة يوم اعلن الشريف حسين بن علي
امير مكة المكرمة استقلاله بملك الحجاز (٩ شعبان ١٣٣٤ هـ حزيران ١٩١٦ م) وتآزر
العرب على الترك في مكة وقتلوا الحامية التركية واسروا اكثرها وحوصرت المدينة بعربه ،
وذلك بتدبير الخلفاء واموالهم ، فشغل الترك بهذه المصيبة التي لم يكونوا يتوقعونها
واخذوا يستميلون اليهم رجالات الشام ويستبدلون اللين بالشدة ، واذا كانوا على عزم
انفاذ حكم القتل برجال من القافلة الثالثة بعث ملك الحجاز الجديد بواسطة جمهورية
اميركا المتحدة لانها كانت على الحياد بان كل منفي عربي او مسجون اذا أصيب بادني
اهانة فهو مستعد ان يعمل اضعافه مع الاتراك الذين في اسره فكف الاتحاديون عن القتل ،
واطلقوا سراح السجناء مرغمين بعد ان عذبوهم انواع العذاب ، فعد ذلك من حسنات
الملك حسين ، ولقد آلم الاتحاديون قلوب السوربين بقتل طبقة مهمة من الشبان والكمول
والشيوخ ، ونفي النساء والاطفال الى بلاد الترك ، ومع هذا لم تقصر الشام في تقديم
ابنائها للحرب جندياً ، ولا اموالها وعروضها لمعاونة الجيش ، ولا ارزاقها وحيواناتها
وذخايرها لخدمته ، فحنت على الدولة من كان يريد انتصارها ، وتأصلت العداوة بين
الترك والعرب ، وما كانت العداوة في الحقيقة الا بين دعاة الاتحاديين والمستنيرين من
العرب ، حتى لا يبقى بعد الحرب رجال يستطيعون ان يرفعوا اصواتهم بمطالبة الدولة
بشيء من الاصلاح .

ومنذ نادى الملك حسين باستقلال الحجاز اخذ الضباط العرب وغيرهم من
العراقيين والشاميين واليهانيين ممن وقعوا في اسر دول الخلفاء ، او كانوا في خدمة

الجيش التركي على مقربة من الحجاز اذ في الجهات البعيدة جداً جهة القافقاس ينضمون الى جيش الحجاز العربي فألفوا جيشاً لا بأس به يرجع الى نظام في الجملة ، وهذا الجيش هو الذي قاتل الترك في الشام ، وادقع الشعب في الفياق التركية وقت في عضد الدولة العثمانية في بوادي الحجاز ، وساعده ما كان ينهال من الاموال الانكليزية التي استمال بها ملك الحجاز والقواد اولاده الاربعة العربان في الشام والحجاز ، وتسرب قسم منها الى كبار الضباط من ابناء العرب ، وكان لجمعية العهد بدطولى في التحاق ضباط العرب بصاحب الحجاز ، وهذه الجمعية كانت مؤلفة في الاغلب من ضباط العرب في الدولة كما كان مثل ذلك لجمعية الفتاة العربية التي ألفت في باريز قبل الحرب بنحو خمس سنين من كبار المفكرين من ابناء العرب وخصوصاً الشاميين وضمت اليها بعض كبار اعيان البلاد ومفكريها وفي مقدمتهم انجال شريف مكة وابلغوا والدهم قرارهم وامتدت دعوتهم الى جبل الدروز .

وقدر بعض الواقفين عدد من انضم من البدو الى الجيش العربي في جميع الجهات بما يناهز المئة الف والعسكر النظامي لا يتجاوز الخمسة آلاف . وقال بعضهم ان البدو لم يتجاوزوا السبعين الفاً يكثرون و يقلون بحسب الحاجة والنظامي وهم من ابناء العرب الاسرى من الجيش التركي او الفارين منه خمسة آلاف وان النظامي لم يتجاوز هذا القدر .

وكان شاعر الثورة الشيخ فؤاد الخطيب يحفز ارواح هذه الامة بشعره ومما قاله في الثورة من قصيدة :

حي الشريف وحي البيت والحرما	وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
يا صاحب الهمة الشياء انت لها	ان كان غيرك يرضى الآين والسأما
واسمع قصائد ثارت من مكانها	ان شئتها شهباً او شئتها رجما
من شاعر عربي غير ذي عوج	قد بارك الله منه النفس والكمما

باآل جنكيز أن ثقيل مظالمكم	على الشعوب فقد كانت لهم نعمما
فالظلم أبقض منهم كل ذي سنة	ماكان ينهض لولا انه ظلمما

ارهقتم الشعب ضرباً في مفاصله حتى استفاق وسلّ السيف منقما
فالشفق عن حنق منكم وموجدة قد ارهف العزمات الشم والهتما
هيئات يصمغ عنكم او يصالحكم حرث ولو عبد الطاغوت والضمنا

* * *

يا ابن النبي وانت اليوم وارثه قد عاد متصلاً ما كان منقصما
والنف حولك ابطال غطارفة شم الانوف يرون الموت مغتتما
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقاً سداً من الترك ان تعرض له انهدما

* * *

يامن الحء علينا في ملامته بعض الملام وجرتب مثلنا الأما
لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها مضى لما ضح بالزعم الذي زعما

* * *

ايه بني العرب الاحرار ان لكم فجراً أطل على الاكوان مبتسما
يستقبل الناس من أنفاسه ارج ما هب في الشرق حتى انشر الرما
تلك الحياة التي كانت محجبة في الغيب لا ساماً تحشى ولا سقما
سارت مع الدهر من بدو ومن حضر حتى استثبت فكانت نهضة عمما
من ذلك البيت - من تلك البطاح - على تلك الطريق - مشت اجدادنا قدما

* * *

لستم بنبيهم ولستم من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم أما
الى الشام - الى ارض العراق - الى اقصى الجزيرة - سيروا واحملوا العلما

* * *

أما في الاتراك وخبيتهم } كما طال امد الحرب كانت حالة البلاد تسوء ،
وتحر بهم } وقد اتى الجند وبعض ضباطهم وعمال الحكومة من
فلما الناس باسم الجيش والتكاليف الحربية ماضاقت به الصدور وغلت مراحل الاحقاد
وساءت الاخلاق ، وكما دامت الحرب شهراً زاد الناس من الدولة اشتزازاً وقهراً ،
ومن يحسر والاحكام العرفية سائدة وسلطان الفزع الاكبر فانصرفاه ، ان يقول كلمة

خير ، او يرفع مظلة او ينقد معوجاً ، فان التعذيب كان مصير من يجراً على ذلك ، والسجن والقتل كان يتهدده كما وقع لمئات في دار الملك ومنهم اصداق انور باشا وشركاؤه في اعماله ، قتل بعضهم لانهم قالوا بطلب الصلح من الحلفاء ، وان الدولة تحاول بحروبها الانتحار . قال سفير اميركا : « رأيت انور في احد الايام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له ان تلك الاعمال (نهب التجار والفلاحين باسم الجيش) تُفضي بالمملكة الى الخراب العاجل والدمار الاكيد ، ولكنه لم يعبأ باقوالى ولم يخفق فؤاده ائماً لتلك الاعمال بل كان يفتخر بانه اشأ جيشاً كبيراً مجهزاً من لاشي . بلغ عدد الجنود التي جمعها انور نحو مليون ونصف مليون ، وبقي نحو مليون أسرة في انحاء المملكة وليس لهم من يساعدهم على القيام باعباء الحياة ، وقد فتك بهم الجوع فتكاً ذريعاً . اما الحكومة التركية فكانت تدفع لكل جندي في جيشها نحو ربع ريال في الشهر اه . »

قلنا ان الدولة جمعت في الشام سبعمائة وعشرين قرعة أي من ابن الثامنة عشرة الى ابن الخامسة والاربعين وكان معدل ما يجمع من كل صنف ثمانية آلاف جندي فيكون مجموع الجندين من السور بين مائتين واربعين الف مقاتل فر منهم بحسب الاحصاء آت الرسمية الى آخر الحرب نحو مئة وخمسين الف جندي وظل في الخدمة بين اسير ومريض ومستخدم في خدمة خفيفة ببلده نحو خمسين الفاً وقتل نحو اربعين الفاً . ولو أردنا تفصيل ما وقع من الجيش والاجل الجيش واهم استباحة الاعراض المصونة والعبث بالمقدسات والشخصات لاقتضى لذلك مجلد برأسه ، فقد فسدت الاخلاق بحيث لا يتأتى ان تصلح الابناء معظم من تلوثوا بتلك اللوثات والهنات ، وكانت تنضب مواد البلاد الحيوية يوماً بعد يوم ، وقل النعم الحجرية جداً فاخذ الاتراك يسبرون القطارات في بلاد الشام بالخطب ، يقطعون الزيتون والكتينا من فلسطين ، والجوز والشمس والخور من الغوطة ، والسنديان والزبان والصنوبر من لبنان ، والزيتون والفسق من حلب ، والغضا من الحجاز ، واشتد الجوع وعز الحيز ، واصبح الغني يعتبط بانه ينال قوت يومه على ايسر وجه ، وذل اعظم عظيم في هذه الديار امام جمال باشا واشياعه من الاتحاديين ، وصانعه اكبر البقية الباقية من الاحرار مخافة ان ينالهم من

ظلمه ما نال غيرهم ، وكان الموت معلقاً بين شفتيه ومن لا يصانعه بذله ، وربما قتله أو نفاه من هذه الارض . وكان يعمل ما يريد ثم يكتب الى الاستانة بما حصل . ومن اغرب الاحكام أن يجعل القتل في ايدي العرفاء والنقباء من صفار الضباط ، فكان لاحد من ائمة القره قوشية ، ورخصت الارواح وبعت بيع السماح .

قال جمال باشا في مذكراته : وبقينا ان الفضل في عدم حدوث ثورة في سورية خلال العامين والنصف العام اللذين اعقبا اعلان الشريف حسين استقلال بلاده ، انما يرجع الى احكام القتل التي وقعت في نيسان ١٩١٦ وبقطع النظر عن ذلك فان أنور باشا وهو وزير الحربية ، وطلعت باشا وهو وزير الداخلية ، قد وافقا على تنفيذ احكام القتل بدون استئذان من المراجع العليا ، ثم أرسلت الى الاستانة تقريراً بما أجرته وهناك راجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم أرسلته بناء على قرار مجلس الوزراء الى القصر للتصديق السلطاني ، وهكذا ايدت الارادة السنية الاحكام التي قضى بها الجيش ونفذها وبذا ختمت هذه الرواية اه .

وكما كانت الامة ترجو انفراج الازمة كان احمد جمال باشا وهو قومي الثقة بنفسه وجيشه يرجو ان تنجلي الحرب عن نصرة دولته ، ويؤسس في الشام معاهد للتربيت العرب وتقوية الدعوة التركية الاتحادية في نفوس الامة ويفتح شوارع في يافا والقدس وبيروت ودمشق ويضع المصورات والخطط والتصميمات لهندسة امهات مدن الشام على الطريقة الحديثة وقد نفذت احكامه على البادية والحاضرة حتى ان بعض امراء العرب كانوا عيوناً له يقبضون احساناته الكثيرة ولا يتكأون عن قبول المعاونات التي يقدمها لهم الانكليز . ولم يسلم من يد جمال باشا الا دروز جبل حوران فانهم خدعوه بوعودهم ، ولم يتجدوا بحجة العمل في اراضيهم لاجراج الجبوب للجيش ، ولكن الغلات التي استغلوها لم يقدموا منها شيئاً للدولة على الرغم من الحاح القائد العام عليهم ، فغفظوا حبوبهم في امراءتهم حتى شمت في الشام ثم اخذوا يبيعونها باثمان فاحشة ولولا ذلك لجاع أهل مدينة دمشق نفسها على قربها من حوران أنبار الشام العظيم . ولذلك كان جمال باشا يحرق الأرم عليهم ، ولو خرجت دولته ظافرة لارسلوا حملة على هذا الجبل

تهلكه وتخربه . واخرى وهي تعد في مآثر الدروز هذه التوبة ، وهي أنهم آووا في جبلهم نحو عشرين الف لاجئاً من العرب والترك على اختلاف مذاهبهم ، فراراً من الجندية أو غيرنا ، واظمومهم مدة الحرب بلا عوض ، ومنهم من كانوا يشغلونهم في اراضيهم مقابل إطعامهم فقط ، فكانت مضافات الرؤساء منهم أشبه بفنادق ومطاعم عامة مجانية ، خدامها أصحاب تلك البيوت من أعيان الجبل ، فملوا بمعلم القرى العربي والمروءة والشهامة ، وكفروا عن سيئات المسيئين منهم في الماضي ، وكان جبل الدروز أقوى صلة بين جزيرة العرب والشام والعراق مدة الحرب ولا سيما بعد استقلال الحجاز ، وعزم الحلفاء على فتح الشام باسم الامير فيصل واسم ابيه ، فكان مركز جبل حوران من الوسائط النافعة لانباء الشام والحجاز معاً ، وفيه تألفت عصابات من الدروز لالقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي وظل أكثر زعماء الجبل على ولائهم للدولة العثمانية حتى أظلمت الرايات العربية .

* * *

اخذ الجيش التركي في الجبهة يضغط على نفسه وئضاعف	} الوقائع المهمة في فلسطين وسقوط القدس وما إليها
فيه مضعفات النفوس من جوع وعري ، ففي ٢٦ و ٢٧ آذار	
١٩١٧ حدثت معركة غزة الاولى بين الترك والانكليز	

وفي ١٩ نيسان كانت معركة الرمادة ، وفي ٤ آب انهزم الاتراك للمرة الثانية في محاولتهم غزوة مصر في قظيا ، وفي ٢٣ تشرين الاول و ٧ تشرين الثاني اخترق البريطانيون خط العثمانيين بين بئر السبع وغزة ، ففخلى الاتراك عن الابن وبئر السبع وكانت وقعة في أزقة غزة على اسلوب حرب المناريس اشتركت فيها البحرية البريطانية بدافعها من البحر ، وكانت الغلبة فيها للاتراك وفقد من الانكليز على رواية قائد الجيش الرابع في ونازع غزة ٤٠٠٠ ، وفقد الترك ٢٨٦ قتيلاً و ٧٥٦ جريحاً . ٥٨٥ متغيباً واسيراً ، وادعى القائد التركي ان كل جندي من الحامية في غزة قتل جندياً انكليزياً وان الجيش البريطاني في ارجاء غزة كان مؤلفاً من اربع فرق فرسان و اربع مشاة ، وان المعركة دامت ثلاثة ايام (١٧ و ١٨ و ١٩ نيسان) واضطر البريطانيون الى النكوص على اعقابهم يخسرون في خطوطهم تاركين وراءهم القتلى والجرحى وعددهم ٧٠٠٠ اي ما يعادل جميع القوة

التركية التي اشتركت في القتال في تلك الجبهة . وفي الاخبار الرسمية التركية ان خسائر الانكليز (رجب ١٣٣٥) في ساحة غزة الثانية قدرت بثلاثة آلاف فيهم كثير من الضباط وافاد احد الاسرى ان فرقة بات عددها اربعة آلاف رجل بعد عشرة والاسرى بلغوا نحو الاربعمائة وخسائر الانكليز بالنسبة للوقعة الاولى كثيرة ولكن غزة خربت الا قليلاً وتشتت اهلها تحت كل كوكب . ومن الاسباب التي قضت بخربها ان الاتراك وضعوا بعض مدافعهم الرشاشة الخفيفة في المآذن واخذوا يطلقونها على البريطانيين فما كان من هؤلاء الا ان قابلوهم باطلاق القنابل من مدفيعتهم من البر والبحر .

قلنا ان غزة خربت الا قليلاً ولم يتناول الخراب غزة فقط بل تناول يافا أيضاً وذلك لان العثمانيين أجلوا اهالي تينك المدبنتين الى الداخل فترك سكانها عروضهم ومتاعهم واموالهم او باعوها باثمان طفيفة واركتبت الفرقة الثالثة من الفرسان وهي من الترك انواع الفطائع في اعراض الخدترات بما يخجل منه .

كانت قيادة الجيش الفعلية في الشام بيد الالمان وبالاسم بيد العثمانيين فان القواد فونكريس وفالكنهايم وليمان سندرس ابوا بلاء حسناً في قائع شبه جزيرة سينا وغيرها ولذلك كان قائد الجيش الرابع بكرهم لانهم جعلوه واوامره وراء ظهورهم . ووظيفته الحقيقية في هذه الحرب ان يقدم لهم جنداً وارزاقاً وينفذ ما يأمر به القائد الالمانى لنظام الجيش وانظمامه . ولم يقصر الاتراك والحق يقال في مد الخطوط الحديدية الى جبهة مصر على تعذر جلب الادوات اللازمة لها من الغرب فقد انجزوا خط العفولة نابلس متصلًا بجيفا ودرعا ودمشق قبل الحرب ثم انجزوا مسعودية - طولكرم - لد - وادي صرار - بئر السبع - حفير - اي ٢٥٤ كيلومتراً ومدوا خطاً من التينة حتى دير سنيد قرب غزة وهو ٤٠ كيلومتراً في ايام قليلة وخرّبوا خط حوران دمشق وطرابلس حمص لاخذ خطوطها الحديدية ، وأصبحت بئر السبع مركزاً مهماً فيها الكوبرياء وادوات الرفاهية في المدن ، وسدوا طريق العريش - الابن - نخل ، وحفروا آباراً وعملوا احواضاً وجروا الماء في البادية الى القصيمة الى ثلاثين كيلومتراً .

سار الجيش الانكليزي على عادته في قتال الترك في سينا سهراً بطيئاً ولكنه

كان اميناً ، ومدوا خطهم الحديدي بالقرب من الساحل ليكون له من الاسطول عند الانقضاء معتصم ، وفي ٣١ تشرين الاول أخذوا بئر السبع وفي ٢١ كانون الاول ١٩١٦ أخذوا العريش وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٧ أخذوا رفح . وأخلوا شبه جزيرة سيناء من كل ما هو تركي سنة ١٩١٧ وأخذت يافا في ١٦ تشرين الثاني وكانت أخليت من السكان زهاء سنة ونصف وتشرد أهلها ، وسقطت القدس في ١٠ كانون الاول ١٩١٧ ودخلها القائد المشير النبي الانكليزي دخول الظافر فسقطت بيت المقدس كما قال بعضهم في أيدي الفرنج بعد ان خرجوا منها في الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة . وقرعت أجراس الكنائس برمتها فرحاً بسقوط القدس ومن جملتها الكنائس الالمانية كانت ما خسرت المانيا سياسياً بهذا السقوط يعزى بها بعودة البلاد المقدسة دينياً الى أيدي المسيحيين .

واستولى الانكليز على اريحا يوم ٢١ شباط ثم جعلت الجبهة على خط يافا اريحا وظل المتحاربون يقننلون الى سنة ١٩١٨ وقد كلفت هم المقاتلين من الترك فاخترق الجنرال النبي الجبهة التركية في ١٩ فاستسلم جيشان تركيان (السابع والثامن) وكان انهزم احدهما نحو الشمال اي نحو طريق القدس نابلس ، ونشبت بين الفريقين البريطانيين والأتراك معركة هائلة في البيرة انتهت بهزيمة الأتراك وانسحابهم الى اللبان وبلغ الجناح الايسر من الجيش البريطاني حيفا والجناح الايمن تجاوز نابلس وفتح حيفا وطولكرم ونابلس والناصرية وطبرية فتحت أبواب الشام أمام الجيش البريطاني .

عمل الجيش العربي (١) في شهر حزيران سنة ١٩١٦ اي في السنة الثالثة للحرب العامة لما قام الشريف حسين بن علي امير مكة المكرمة بشورته على الترك وقتل وأسر حاميه مكة من الأتراك ونودي به ملكاً

(١) تفضل بعض رجال الثورة العربية السيد نسيب البكري والسيد نفري البارودي والشيخ سعيد البستاني فأعطوني بعض معلوماتهم عن دخول الجيش العربي الى الشام .

على الحجاز ثار ابنه الامير علي في عرب المدينة المنورة المواليين لابيه على الحامية التركية غداة ثورة مكة فلم يستطيعوا أخذها لان نخري باشا قائد حاميتها التركي كان حصنها تحصيناً عظيماً فما استطاع العرب ان ينحوا على تلك الحصون مخافة ان يصاب قبر الرسول (ص) ومسجده باذى وقبعت الحامية التركية بما ادخرته من الطعام في داخل حصونها بعد ان اجلت الحكومة اكثر اهل المدينة الى الشام وآسيا الصغرى وعددهم لا يقل عن اربعين الفاً ولم تترك سوى بضعة آلاف ممن آثروا ان يموتوا في جوار قبر النبي على الجلاء غير مطالبين الجيش المحاصر بخبز ولا اِدام . واخذ عرب الامير علي ينادون الحاميات التركية على الخط الحجازي مدة ويخربون بعض خطوطه ويعود العسكر العثماني فيصلح ماخربوه ويستخدمه في الضروريات لتموين الجيش المرابط في المدينة واخذ منذ ذاك الحين الامير فيصل ثالث انجال الملك حسين في سرايا من عرب الحجاز يشاطي ساحل البحر الاحمر منقداً الى سمت الشمال نحو الشام وينضم اليه اسرى الجيش التركي من العرب الذين اسروا في ترعة السويس وشبه جزيرة سيناء وساحة العراق . ففتح بضع البحر والوجه وهنا تألف الجيش الشمالي الذي قاده الامير فيصل اما شقيقه الامير عبدالله النجل الثاني فكان في الطائف يحاصرها حتى سقطت ، اي ان الامير علياً كان يشاغل الحامية التركية في المدينة ويفتح رابع ويجعلها ميناءه ، وشقيقه الامير فيصلاً يحاول الابتعاد عنها للانضمام الى الجيش البريطاني في شبه جزيرة سيناء :

وفي تموز ١٩١٧ اي بعد احد عشر شهراً من ثورة صاحب الحجاز على الترك فتحت العقبة بمعارنة الشيخ عودة ابي تابه من مشايخ الحويطات ومن شجعان العرب ، وقد ابلى بلاءً ليس بعده بلاء وذلك في هذه الواقعة وفي اكثر الوقائع التي اشتبك فيها الجيش العربي مع الجيش التركي وكان له الفضل باسقاط الطفيلة وابي الاسل والكوبرة وغيرها من المواقع التي احتلها العرب في ارائل البلاد الشامية من الجنوب وقد اسر في فتح العقبة تابوراً تركياً برمته تام الأبهة لم يفلت منه ولا اركان حربه ورجال شوراه الحربي استسلموا كلهم لابي تابه فعاملهم ارفق معاملة مدنية . وكان لمدافع الاسطول البريطاني من البحر اولاً يد طولى في اخلاء الترك للعقبة وبسقوطها

حمى العرب مؤخرة البريطانيين في سيناء وكان الاتراك يأتون من معان الى بادية سيناء يضربون البريطانيين وباستيلاء العرب على العقبة استطاع الانكليز ان يهجموا على غزة وبئر السبع ، اما الاتراك والالمان فقد دافعوا عن العقبة دفاعاً عظيماً ولكن البريطانيين كانت لهم السلطة على الساحل وأهل البلاد من العرب يجارون باجسادهم وارواحهم مع صاحب الحجاز واولاده .

استولى العرب على الطفيلة ووادي موسى وحاولوا الاستيلاء على معان الواقعة على الخط الحديدي فرددوا عنها مرتين بخسائر خصوصاً يوم ٢٢ تموز عندما هاجموا محطة ام الجرذان (الجردونة) فكانت خسائرهم عشرين ضابطاً ومائتي جندي واستولوا على ام الجرذان ثم تخلوا عنها . وارسل الاتراك من الكرك اربع كتائب وسرية من البغلة بغية احتلال الطفيلة وبنينا كانت سائرة في وادي موسى بلغ العرب خبرها فحصد محافظ الطفيلة الامير زيد رابع انجال ملك الحجاز في مائتي جندي نظامي وقوة قليلة من البدو في رؤوس الجبال واخرج اهل الطفيلة وسلمهم وفرقهم على الجبال التي في اطراف الوادي وجعل العسكر التركي في شبه حصار واطلق عليهم النار فارتبك الجيش الزاحف وجنلت البغال وقتل حامد فخري بك القائد التركي المعروف عند الاتراك بفرش فسقط في يد الجيش وانهمز اكثره وسلم الباقي واخذ العرب ما يري على ستائة اسير تركي وغنموا اربعة مدافع مربعة الطلق ولم يكن معهم سوى مدفعين قديمين . اما الكرك على حصانها فان الاتراك اخلوها من انفسهم . وانضمت الى الجيش العربي في الوقائع الاخيرة سرية مدفعية افرنسية كما كانت الطيارات الانكليزية لا تغفل يوماً عن كشف مواقع العدو وتهيئة سبل التقدم لهم واخبار المقاتلين من البدو ممن كانت وقائعهم مع الترك على الاكثر اشبه بمناوشات عصابات لا بحروب منظمة . والامير فيصل ينظر اليه نظر قائد عربي يتلقى الاوامر من المار يسال النبي ولقبه قائد الجيوش الشمالية .

جاء في نشرة وزارة الحربية البريطانية في آب ١٩١٧ ان خطة العرب في بدء نهضتهم خطة حسنة تحوي في مطاوعها حذقاً وحزمًا ودهاءً فقد خربوا قسماً من السكة الحديدية واستولوا على مراكز الاتراك على جانبي الطريق وكانوا على جانب من

البسالة يتغلبون غالباً على جيش أكثر منهم عدداً وُعدداً ٠ وقال ليمان سزارس
الالمانى : ان العرب من اول شهر ايار الى التاسع عشر منه خربوا خمسة
وعشرين جسراً ٠

ولقد خرب العرب محطة القطرانة واسروا عدداً من الترك وبعد اسبوع هجموا
على الحسا فأخذوا قطاراً كان هناك ودمروا قسماً من العدة والذخيرة ولكن الاتراك
اخرجوهم بعدئذ من الحسا فتهقروا جنوباً وهم يخرّبون في الجسور والخطوط وفي تشرين
الثاني ١٩١٧ واقعت القوى البريطانية حامية الترك في عمان فسقطت السلط في
ايدي البريطانيين والعرب وعاد الاتراك فهاجموها في آذار ١٩١٨ وردوا البريطانيين
الى غربي الاردن ٠ وكانت حال تلك البلاد مثل الصلت ومعان وعمان وغيرها
تسعة جداً لان الاستيلاء عليها كان متبادلاً بين الفريقين المتحاربين واهلها بين نارين
خصوصاً نار الثمانيين الذين كانوا يعاقبون الاهلين لدى عودتهم الى بلد انهمزموا منه
بحكم الطبيعة او القواعد الحربية بما يخرج عن حد المألوف تشفيماً وانقاماً ٠

لما صدر الامر بالهجوم العام لضرب الجيش التركي الالمانى الضربة القاضية فاض
البريطانيون الامير فيصلاً ان يجهز حملة تسير من ابي الاسل الى جسر تل شهاب في
حوران لتقطع خط الرجعة على الجيوش التركية فتألفت الحملة من الجيش النظامي
يرافقها شردمة من البدو ٠ ويظهر ان القيادة التركية شعرت بذلك لان من البدو من
كانوا يتجسسون للعرب وعليهم ولترك وعليهم، ومن عادة البدوي ان يتعاز الى صفوف
الغالب وينقض على المغلوب بعد ان كان في صفوفه لان هدفه الوحيد السلب
والنهب — فاعزز القائد التركي الى الحامية ان تدافع عن معان بالهجوم على الجيش
العربي في الوهيدة لاشغال الحملة عن المسير الى تل شهاب وسار الالمان مع
الاتراك من الشمال على الشوبك والطفيلة ليلتقوا مع الجيش التركي الذي خرج من
الشرق على معان فباغتت الحامية ليلاً على تل سمينة المطلّة على معان واستولوا على حصونها
وبضبطها أصبح الجيش العربي في خطر فبلغ الامير فيصلاً ذلك بالهاتف من الوهيدة
بين معان وابي الاسل وتبعد عن كل منهما زهاء ساعتين او اكثر وكانت مقر الجيش
العربي ومقر الامير وراءها في ابي الاسل، فاهتم للامر لتناقص عدد الجيش العربي

الذي انضمت اكثر ريته الى الحملة المتوجه بها وكانت بارحت قبل هذا الهجوم بيوم المقر من جهة الطريق الشرقي البعيد عن الخط الحجازي مسافة نهار تقريبا وهو من جهة الجفر وياير (ما آن لاهل البادية) فندب الامير اخاه الامير زيداً واستعاد حصون تل ممخنة وكانت الاتراك ينوون ان ينقدموا منها للاستيلاء على الوهيدة مقر المعسكر العربي ولولم ينقدم احد ابنا العرب ممن كان مع الجيش التركي وفاوض بالهاتف مركز الجيش العربي وينذره سوء العقبي ويسارع الامير فيصل بارسال عبيده وعددهم مائة وخمسون ويسيروا كالبرق الخاطف يقفون امام الجيش التركي ويشاغونه ريثما تقدمت فرسان الجيش العربي وتبعها المشاة - لولا هذا لما رُد الاتراك عن معان وهلك الجيش العربي بأمره .

ومن ذلك الحين انقلبت حامية معان من طور الدفاع الى طور الهجوم وعهد الامير فيصل بالقيادة العامة في مقر ابي الاسل الى اخيه الامير زيد والتحق بالحملة يرافقه قليل من الجند النظامي وحرسه من العبيد وبعض المتطوعة من بدو ومن حضر قاصداً الازرق ليستخذه مقر القيادة للحملة وضرب موعداً للنوري بن شعلان ان يلاقيه بالازرق مع شردمة من قبيلته كما اوعز الى عوده ابي تايه ان ينزع مع شردمة من قبيلته من الجفر الى الازرق وهكذا كان ولكن جنده كان قليل العدد والبدو الذين ارادهم على ان يوافقوه تخلفوا عنه فاصبح موقفه في خطر، وكانت في وسع مئة جندي عثماني لو هموا به ان يأسروه ومن معه ، ولكن قذف الرعب في قلوب المحاربين من الترك فظنوا ان هناك جيوشاً جارية لاقبل لهم بها ، وزاد حراجه الموقف تشويشاً ان بعض مشايخ قرى جبل الدروز بعثوا الى الامير يحنجون على احتلاله الازرق بدعوى ان احتلاله يوغر عليهم صدر الحكومة التركية لان الازرق وان كان مقدمة بادية الشام وغير مملوك لاحد لكنه يعتبر في نظر الدروز ونظر القبائل الرحل ملحقاً بالدروز ، ولم يؤثر هذا الاحتجاج في نفس الامير فيصل لعلمه ان لاقبيلة بالنسبة الى زعماء الجبل المواليين له وفي طبيعتهم سلطان باشا الاطرش الذي اخلص كل الاخلاص للثورة العربية وعاونها بماله وجاهه ، ولعلمه انهم متحرون بهذا الاحتجاج غير انه اورث اضطراب الافكار خشية تجسسه للاتراك وبعد خمسة ايام ارسل احد شيوخ قبيلة بني صخر وهو الوحيد في موالة

الجيش العربي دون بقيه شيوخ القبيلة الذين كانوا موالين للحكومة التركية و يقطعون السابلة على كل قافلة تلتحق بالامير فيصل في ابي الاسل، وجيزه بفته من المتطوعة لتخريب جسر عمان لقطع المواصلة بين القيادة التركية ومعان وجاء على الاثر الكولونل لورانس الانكليزي، ملقن الثورة العربية والمشرف عليها الذي دُعي «ملك العرب غير المتوج» واخبره بسقوط نابلس وما وراءها الى الشمال وانه وقع في اسر الجيش البريطاني من الجيش التركي زهاء ستين الفا وكان الفضل الاكبر في ذلك لتخريب جسر تل شهاب . وصباح اليوم السادس ورد على الامير فيصل نجاب يخبره بسقوط معان واسر حاميتها وسوقهم الى العقبة، وبعد ساعتين جاءه نجاب آخر من عمان يحمل اليه اوراق الحكومة التركية فيها مبرهنات على سقوطها وانجلاء الترك عنها قبل تخريب الجسر . فرأى الامير فيصل عندئذ نقل المقر الى بصري عاصمة حوران ، مخافة ان يضم الاتراك شملهم في درعا دفاعاً عن دمشق ولم يكذب يستقر بها حتى بلغه سقوط درعا بيد الجيش العربي والانكليزي ومتطوعة الحورانين فسار اليها ونظم حكومتها واخذ منه القلق لانه كان جرى اتفاق بينه وبين الحلفاء اي بينه وبين البريطانيين ان كل فريق من العرب أو البريطانيين يسبق جيشه الى فتح مقاطعة أو بلد يكون حق احتلالها وادارة شؤونها لذلك الفريق الى أن يثبت في المصير، وحافظ الجيش الانكليزي على هذا الوفاق فكان اذا سبق ففتح بلداً أو اسقط حصناً في البلاد التي يريد اعطاءها للعرب يتوقف ريثما يدخل العرب فينسب الفتح اليهم ولا سيما في بلاد الشام الداخلية . ولذلك خف السيد نسيب البكري من الازرق بامر الامير فيصل الى جبل الدروز ولقي صديقه سلطان باشا الاطرش وجيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس وذهبوا الى بصري وهناك التحق بهم بعض الحورانين ولا سيما آل مقداد وساروا الى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الاتراك قليلاً في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانظام ، ودخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ماعدا المشاة من اهالي البلاد الى دمشق وانفق دخول هذه الحملة مع أوائل الحملة البريطانية الزاحفة على النجباء من طريق جسر بنات يعقوب — القنيطرة .

سقوط حوران ودمشق } وفي ١٧ ايلول ١٩١٨ قطع الجيش العربي الخط
 بيد الجيوش البريطانية } الحديدية على عشرة كيلو مترات من شمالي درعا
 (اي بين خربة الغزالة ودرعا) بمعاونة الطائرات الانكليزية ، وكذلك خط درعا - حيفا
 اي من المزيريب وخط عمان - درعا فانقطع الخط في نصيب واصبحت حامية درعا مقطوعة
 عن كل مدد وفي اليوم الثاني كان الهجوم البريطاني العام فوجه الترك الى العرب بقسم
 كبير من قوتهم فلم يبق فيها الجناح الايسر من الجيش البريطاني الا بقية ما لبثت
 ان تفرقت شذرمذرا ، وأمر العرب في هزيمة الاتراك تسعة آلاف اسير ، وغنموا تسعة
 آلاف بندقية وثمانية مدافع وأربعة وخمسين رشاشاً . وفي ٢٦ منه هجم الجيش العربي
 بعد ان انضم اليه عرب الرولة وعرب عنزة وعدد من الدروز على سكة الحجاز على ١٥ ميلاً
 جنوبي درعا ، فحربوا جسراً وقسماً من الخط .

وفي ٢٨ منه احتلت القوات النظامية درعا وفي ٣٠ منه تغلبت فرقة استرالية على
 نجدات الاتراك في قطنا ، وتقربت عند المساء الى أبواب دمشق وفشل الاتراك أي
 فشل ، وظل الجيش البريطاني يتبع المنهزمين حتى بلغ ضواحي دمشق يوم ٣٠ ايلول
 وكان ناوش المهاجمون بعض الحاميات في المدن التي ذكرت ولاسيما في الناصرة (٢٠ ايلول)
 وقد نشب قتال فيها بين البريطانيين والالمان من الساعة الخامسة صباحاً الى الظهر ،
 وعندها أُخلى ليمان سندرس الناصرة وركب سيارته الى دمشق .

وعلى هذا كان أول من دخل دمشق فرقة من الحياالة الاسترالية والفرقة البريغانية
 جاءت من درعا على طول الخط الحجازي ومن القسد (أول تشرين الاول) دخل
 البريغانيون والجيش العربي في يوم واحد ، وقد تأثر الجيش البريطاني بقايا المنهزمين من
 الجيش التركي بين ربوة دمشق وقرية دمر فهلك من الجند المنهزم نحو مئة وعشرين ،
 ومقرت خزينة الجيش التركي وكانت في القطار في مركبتين بين الشادروان ودمر
 فنهبا الفلاحون وغيرهم من المصطافين ، وطار دالفرسان البريغانيون والاستراليون المنهزمين
 من الاتراك ممن حاولوا المقاومة اولاً في سفح جبل قلمون قرب دومة فظن الترك ان الالهين
 اموا بناصرة الجيش البريطاني فاستسلموا تخف اهل قرية حفير من أعالي الجبل لرد الاتراك
 فاعاً عن قرينهم . وكان بعض سكان حوران اعتدوا في الايام التي سبقت سقوط دمشق

على بعض المنهزمين من الجيش لاخذ سلاحهم على الاكثر ، واكن الامير طاهراً الحسيني وابناء عمه الامير سعيد والامير عبد القادر كانوا القوا من المغاربة سرايا من المطوعة واخذوا الف بندقية من الحكومة التركية نخرجوا الى اذرع وخففوا ويلات الجيش التركي وساعده على الهزيمة ، ولما خلت دمشق من حكومة كانت مسائل الامن فيها لانا من اهل البلد والوجاهة في مقدمتهم احفاد الامير عبد القادر الحسيني الجزائري فلم يقع ما يكدر في النفس والاموال .

وقبل سقوط مدينة دمشق عقد الاتراك مجلساً حربياً حضره قواد الجيش من الترك والالمان والنسايين والجرمانيين ورجال الشورى العربي ، فكانت يرى القسم الاعظم من المؤتمرين نفس جميع الاماكن الاميرية في دمشق ، وكان الالمان اعدوا لذلك العدة وقال بعض الراوين بل نفس مدينة دمشق ، الا ان القائد النمساوي اقنع رفاقه بان هذا عمل غير معقول ، لان الدمشقيين حاربوا مع الدولة العثمانية وقاموا بكل ما فرض عليهم باخلاص ، فليس من العدل وقد خسر الترك الحرب ان يعاملوا دمشق هذه المعاملة القاسية فرج القضية ، وكانت حجة داحضة . وكان جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير من رأي القائد النمساوي سراً فعاضده واثار الى من استلموا زمام البلد من الوطنيين ان يعلنوا استقلال الشام ، فرفعوا العلم العربي على دار الحكومة ضحوة يوم ٣٠ ايلول وبعد ان هنا جمال باشا الصغير الحاضرين من الدمشقيين باستقلالهم ، غادر دمشق على سيارته الى رياق ، وكان آخر قائد تركي خرج من عاصمة القطر ، بعد ان ملكها الاتراك اربعائة واربع عشرة سنة .

وبعد يومين استدعى من فوض اليهم الامن في البلد من وجوهها حضرة الامير فيصل بن الملك حسين قائد الجيش العربي ، وكان مرابطاً في الجيدور فدخلها ونزل في دار آل البارودي في القنوت وهناك شرع بتأسيس الحكومة العربية . وكان البريطانيون عهدوا الى اللواء علي رضا باشا الركابي من قواد الجيش التركي ومن ابناء دمشق بان يكون حاكماً عسكرياً لمدينة الداخلية دمشق وحلب وما اليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائهم في خدمتهم ، ويقال انه كان أرسل اليهم مصور الحصون حوالى دمشق وكان وكل اليه الترك عملها ، وأرسله القائد التركي قبيل

سقوط دمشق ببضعة ايام ليجمع شمل المنتهزمين من الجيش التركي في القنيطرة وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، فادعى ان العربات سلبوه ماله وثيابه ، وانضم الى الجيش الانكليزي ، وهكذا ذهب من دمشق قائداً تركياً وعاد اليها بعد ايام حاكماً عربياً بريطانياً .

وأطال بعض اهالي بعلبك أيديهم على المنتهزمين من جنود الترك ، وأخذوا سلاحهم وسلبوهم ثيابهم وعتادهم وقتلوا نحو ثلاثين جندياً ، وذل الاتراك في الشام بعد ان كانوا أعزة ، وكانت الاتحاديون العلة الاولى في هذه الذلة ، وذهاب هذا الملك العظيم ، وخدم الاتحاديون الدولة باديء بدء اذ سمو الدستور كما قال كامل باشا لكنهم بتدخلهم في السياسة وبسط سيطرتهم على السلطنة الاجرائية ، أصبحوا حكومة في حكومة ، وأضحوا خطراً على الدستور قلنا بل قد صاروا بعد خطراً على المملكة كلها ، ضاربوا بها في سوق السياسة الالمانية فحسروها .

سقوط بيروت والساحل } وكانت الطيارات البريطانية يوم ٢٩ ايلول
والهدنة } أمطرت قنابلها على مستودعات محطة رفاق نقطة

اتصال الجنوب بالشمال ونهب مخيم قاسم من اهالي بلاد بعلبك انا بئر رفاق وحوش حالا في جماعة من رجاله ، فنسف الالمان ما بقي من المؤن والعتاد في المستودعات والانابيب ، وانهمزموا في السكة الحديدية الى الشمال ، ولم يتركوا احداً من الترك معهم فنجوا بانفسهم باستعمال الشدة ، وفي ذلك الحين قذف الالمان في بيروت المؤن والمواد الحربية في البحر ، وأصلاهم الحلفاء ناراً حامية خلال هزيمتهم ، ولم ننتفعهم وننتفع الاتراك خطوط الدفاع التي كانوا جعلوها في الجبل المطل على بيروت ، كما لم ننتفعهم والترك ايضاً الخطوط التي انشأوها في جبل المانع والمزة وقاسيون المحيطة بدمشق من غربها وجنوبها وشمالها وهكذا لم تصب دمشق وشرها بيروت باذى يوم الهزيمة على نحو ما كان العقلاء يحاذرون .

لم يجر استيلاء الحلفاء على بيروت الا يوم ٧ تشرين الاول اي بعد سقوط دمشق بثمانية ايام فأرسلت الحكومة العربية في دمشق برقية الى رئيس بلدية بيروت

بأمر الأمير فيصل غداة وصوله الى دمشق تأمره فيه برفع العلم العربي ، ووصل الى بيروت من دمشق اللواء شكري باشا الابوي تحف به شزيمة من الفرسان ، واحتل دار الحكومة ، وبعد اربعة ايام وصل القائد الانكليزي وأمر اللواء العربي بالعودة الى دمشق ، وأزلت الراية العربية وعين الكولونل بياياف الفرنسي حاكماً على بيروت ، وأخرج الفرنسيين جنساً الى البر بين نصفيق الاهالي ولا سيما الطوائف العربية ، ثم صدر امر القائد النبي الى الأمير فيصل ان يحتل جيشه حمص وحماة وحلب ، وكانت الجنود الانكليزية والاسترالية تتقدمه اولاً ، ففتحت حمص يوم ١٤ تشرين الاول ، وحماة يوم ١٦ ودخل الجيش العربي حلب يوم ٢٥ منه مساءً بعد مقاومة خفيفة ومناوشة الفرسان البريطانيين والاستراليين لبقايا الجيش التركي الذي دافع لاشغال الجيش المهاجم حتى يتسنى له الانسحاب من حلب بانتظام وسلام خشية الاسر ، ويتم له نقل الموظفين وعيالهم والبقود والاوراق والسجلات ، وطلب الشريف ناصر بن علي قائد الحملة العربية الى قائد الفرقة البريطانية الجنرال مكاندرو ان يمهده بسرية من جيشه ليضمها الى فصيلة عربية يمدُّ بها السرية التي كان انفذها لاحتلال حلب فرفض الجنرال طلبه وبعد الالاح عليه صرح بان القائد العام امره ان لا تطأ قدم جندي واحد من الجيش الانكليزي مدينة حلب الا بعد دخول الجيش العربي ورسوخ قدمه بها وهكذا لم يدخل الجيش البريطاني حلب الا بعد دخول الجيش العربي باربع وعشرين ساعة وتألّف الحكومة العربية الموقته وصرح القائد مكاندرو في خطاب له في احدى المآدب بحضور المستر مارك سايكس والمسيو جورج بيكو بعد ان أثنى على شمم العرب وذكائهم ونبوغهم وشجاعتهم بقوله : « وما بلغت النظر منهم بفرط بسالتهم واقدامهم سبقونا الى حلب بيوم كامل اربعاً وعشرين ساعة » .

احتل العرب قلعة حلب ودار حكومتها ، وقد فقدوا اربعة وخمسين جندياً ، وأحصوا اربعمائة قتيل تركي في الشوارع . وذعر الترك لانهم أصبحوا بين عدوين الجيش المهاجم والاهالي واقض زعماء بادية حلب على الجيش التركي عندما كان يدافع على سلامته على أبواب حلب للسلب والنهب . وفي ٢٦ تشرين الاول بدأ الجيش العربي بمهاجمة الاتراك في القسم الشمالي الذي كانوا فيه من المدينة فأجلوهم

وتبعهم فرسان البريطانيين في اليوم التالي فواصلوا الزحف شمالاً الى ان بلغوا المكان الذي نشطت فيه سكة حديد بغداد وسكة حديد سورية ، وقد وقعت في قطمة معركة شديدة بين الاتراك والبريطانيين قتل فيها كثير من الفريقين انتهت بانضمام الاتراك الى الشمال والجيوش البريطانية نأثرهم ، والاتراك يرتكبون الفظائع في القرى المستضعف أهلها ، ووقف البريطانيون على كيلو مترات قليلة من شمالي حلب فأبلغت انكلترا قائد جيوشها بعقد الحلفاء الهدنة مع الاتراك يوم ٣١ تشرين الاول ، وكان الاتراك يتذرعون بالهدنة منذ بدء الهزيمة الكبيرة في فلسطين ، ولكن بريطانيا العظمى سوفت في الامر ريثما أخرجت الترك من الشام كله بالقوة على ما يظهر وبعد الهدنة ظلت سرازم من الجيش التركي في حارم وانطاكية وبيلان واسكندرون لم تستطع المحاق بالجيش المنهزم ففستخت وتخلتها الفوضى فانتقلت الى شب عصابات تسلب وتنهب وتؤذي الاهلين ، الا انها لم تلبث ان انضمت الى المنهزمين وراء جبال طوروس او دخلت في الطاعة واستسلمت .

ومن شروط الهدنة مع الاتراك تسليم حامية الحجاز وعسير واليمن والشام وما بين النهرين والسحاب الجيوش من قلقية عدا من يحافظون على الامن ، وكانت الفريقي نقري باشا محاصراً في المدينة المنورة في خمسة عشر الف جندي ، ولم يسلم الا عندما جاءه الامر من حكومته في الاستانة اي في كانون الاول . وبينما كان الامير فيصل لاول الاحتلال العربي في حلب ، وردت عليه برقية من وزارة خارجية بريطانيا العظمى بواسطة المارشال النبي قائد الحملة على الشام تطلب حضوره الى باريز ليشهد مؤتمر الصلح للدفاع عن قضيته ، وعينه جلالة والده ملك الحجاز وكيلاً عنه في مؤتمر فرساي ، اذ لم تكن له صفة رسمية ثابتة نخوله حضور جلسات المؤتمر بصفة قانونية ، فقدم للمؤتمر مذكرة قال فيها اننا نعتقد ان سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية التي يقطنها عدد وافر من السكان من طبقات مقيمة هي بلاد كافية متقدمة تقدماً كافياً من الوجهة السياسية يمكنها معه ان تقوم باعباء امورها الداخلية ، ونرى ايضاً ان الاستشارة والمعاونة الاجنبية ستكون عاملاً ثميناً جداً لنمونا القومي ، ونحن مستعدون

لصرف ما يلزم من النقود مقابل هذه المعاونة ، ولا يسعنا ان نقادي مقابلها بجزء من الحرية التي أخذناها قبلاً بانفسنا وبقوة سلاحنا .

سبب سقوط الشام } عجب المارفون لسرعة سقوط الشام في أيدي الجيش
بايدي الحلفاء } البريطاني ، وكيف كان تقدم الجيش المهاجم على مقدار سير خيول الفرسان ، ولا عجب فالجيش مها بلغ عدده اذا كسرت معنوياته ورأى الافراد قادتهم يفرون ويختبئون ويرتعدون يدب فيه الفشل ، ولم يكن الجيش التركي في الشام والحجاز اكثر من مائة وعشرين الفا ، بقي في المدة الاخيرة منهم مع ليمان ساندرس الالماني خمسون الف جندي على حين كان يلزمه مئتا الف ، وجميع مدافع الترك على اختلاف العيارات لم تتجاوز الثلاثمائة ، ومعظم ما يستندون عليه المدافع المتساوية ثم البطاريات الالمانية ، اما الاعتاد الحربية والقنابل منها بوجه خاص فكانت قليلة جداً عند العثمانيين ، لا يتيجون استعمالها الا عند الضرورة الماسة ، على حين كان البريطانيون يسرفون في اطلاق القنابل والقنابر وأي إمراف . وقد ألقى ليمان ساندرس التبعة على جمال باشا الكبير فقال في تقرير له الى وكيل القائد العام : ان كل ما في سورية من انسان وجماد وحيوان (كذا) قد قسم من سوء إدارة جمال باشا وان الثبات فيها لا يمكن ابداً .

وفي الحق ان سوء الادارة قضى بان يجوع الجند المحارب ولدى الدولة أنابيب الاطعمة الكثيرة لم ينتفع بها . وما كان يظن ان الجند التركي وبه بضرب المثل بالطاعة والشجاعة ان يبدأ بالحرب من هذه البلاد ، منذ بدت أمارات الفشل والبؤس ، فكانوا يهربون زرافات في الجبال الى آسيا الصغرى وهم لا يعرفون الطريق وأهل القرى يطعمونهم ولبسونهم ويهدونهم السبل . على ان الثبات أمام الجيش البريطاني لم يعد فيه ادنى فائدة مادام حلفاؤهم البلغار قد طلبوا الصلح وأمارات الانهزام بدت بجميع أعراضها في الساحة الغربية في أوروبا .

وقصارى القول ان هذه الحرب كانت على الشام من أشأم الحروب لانها حاربت وهي يجب السلم ، فكان حربها تبعاً للدولة ، وفقدت ابنائها واموالها وخرب عمرانها .

فقد منها نحو عشر سكانها في المعارك والجوع والامراض أي نحو ثلاثمائة الف رجل على اقل تعديل وخسرت من حيوانها وشجرها وذخايرها وبوتها وجسورها ما يساوي الملايين من الدنانير ، و يصعب تعويضه الا في السنين الطويلة ، هذا عدا ما قتل من السور بين في الحرب مع الحلفاء فقد تطوع من الشاميين من غير المسلمين مع الحلفاء أكثر من عشرين الفاً منهم خمسة عشر الفاً كانوا في الجيش الاميركاني .

قبض الاتحاديون على زمام السلطنة العثمانية من سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) الى سنة ١٣٣٦ (١٩١٨) ولم تخلها الا اشهر معدودة خرج الحكم فيها عن يدهم الى الاحزاب الاخرى ، وكان من عملهم الاول اعطاء الحرية لامة لم تشترك في طلبها بل تولدت من فكرة بعض الضباط والاحرار ، ثم قضاوا على تلك السلطنة العظيمة ، وجنوا جنونا عظيماً بسياسة تبريك العناصر ، حتى خرجوا عن طور العقل ولم يجربوا أن يسمعوا بالعرب والعربية وحقوق العرب وبلادهم ، فضلاً عن مراعاتهم وهم نصف سكان المملكة ، وفي ارضهم اشرف معاهدتها التي كان سلاطين العثمانيين يبسطون بواسطتها نفوذهم المعنوي على العالم الاسلامي . فامر انور وطلعت وجمال بالمملكة العثمانية كأنها سلعة في السوق فحسروا رأس المال ، وكانوا يعللون آمالهم ان يضيفوا اليه أضعافاً مضاعفة ، و بسقوطهم دب الفشل في الدولة العثمانية نفسها ، وكيف لا يدب وقد خرجت رازحة بديونها ، فاقدة أكثر من نصف مملكتها .

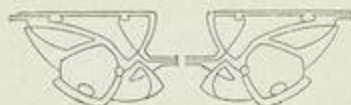
رأي مؤرخ تركي في } نسب احد مؤرخي الترك المعاصرين اسباب انقراض
انقراض الدولة العثمانية } الترك العثمانيين الى عوامل كثيرة أهمها في نظره

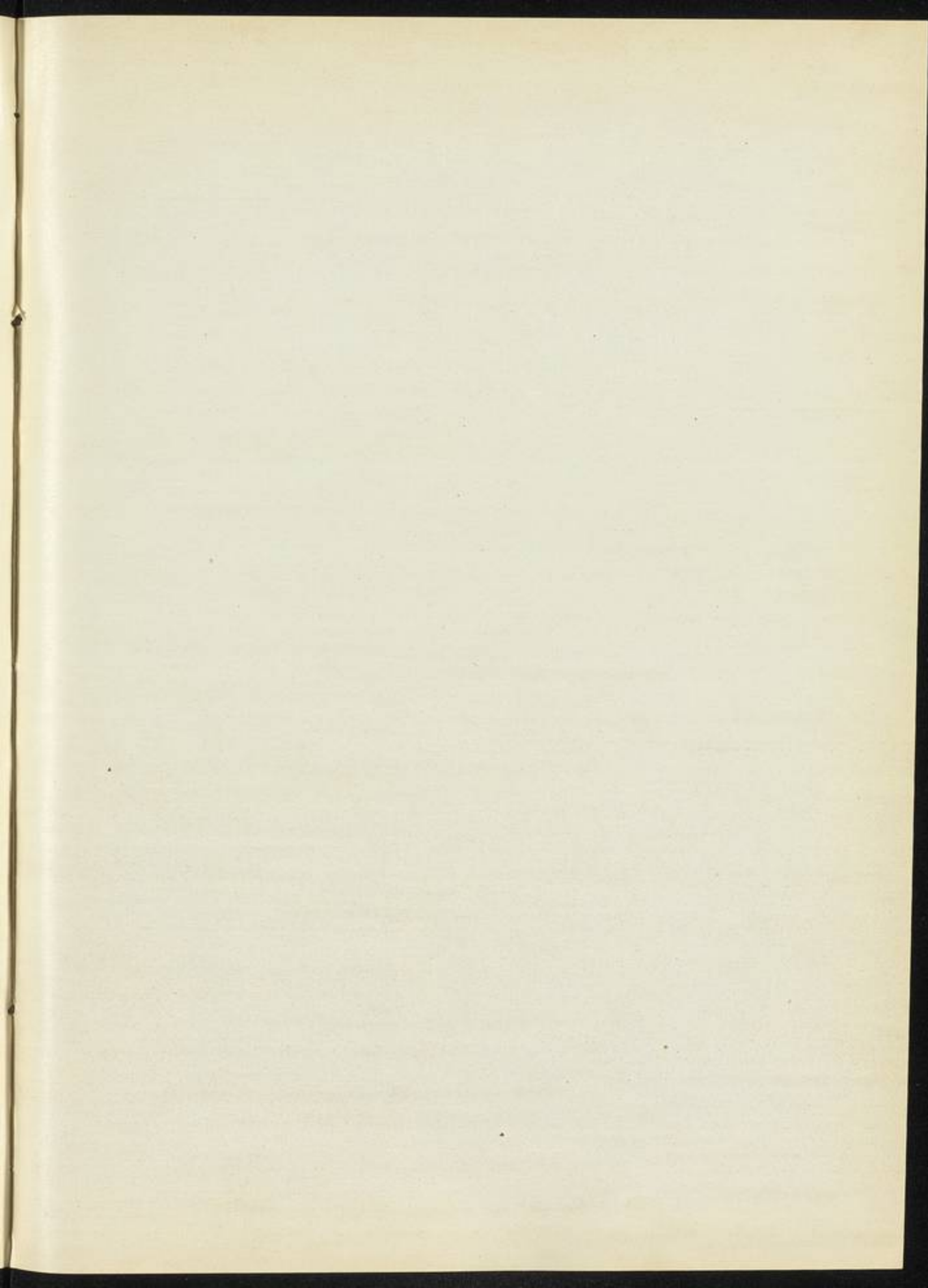
(١) انقطاع البطولة من المسلمين وقيام الاتراك سداً امام النصرانية وبذلك جلبوا عليهم خصومة اوربا المسيحية جمعاء ، فكانت مطارق المسيحيين تنساقط على رؤوس الاتراك مدة قرون (٢) التعافل عن الوطنية التركية وعدم جعل التركية اساساً لسياسة الدولة فصانوا اديان من وجودهم من القوميات وابقوا على سنتهم بل ايدها وناصرها فمنح محمد الفاتح مثلاً الروم امتيازات مذهبية ، فأحدث بذلك دولة في دولة ، وارتكب خطأ فاحشاً ، وعوضاً عن أن يجعلوا البلاد متجانسة صيروها كبرج بابل ، ومافاسته التركية بل هذه الدولة

في هذا السبيل مما لا يستطيع تسطيره ، فان السلجوقيين حافظوا على جميع ما وجدوه في الاناضول من الاديان والقوميات الغربية ، وجرى العثمانيون على مثالهم فحافظوا على ما وجد باعيانه ، فلم يعرفوا ما هو التمثيل ، وكانت هذه العناصر كما وجدت فرصة تستل من بناء الدولة حجراً وتذهب به ، وبصنعهم صارت الحال الى ما صارت اليه ، وقد اشتهرت ممانعة شيخ الاسلام زينبلي علي افندي لياوزخان (السلطان سليم) لما اراد أن يسلم الروم ، فقاومه باسم الدين فبقيت هذه العناصر بحالها لفقدان الدعوة الى القومية التركية ووجود الشريعة . وهذه العناصر فتحت للاجانب سبيل التدخل في شؤون الدولة الداخلية فكانوا السبب في انقراضها ، فلم يهدأ لهم بال في هذا الشأن ، واجتهدوا في الوصول اليه ، ومن اسباب هذه الذهنية المشؤومة الرأسية الاخرق القائل بلزوم الابقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة . وهذا من اساليب العرب وأصولهم (٣) تدخل الدين في مصالح الحكومة ، وعدم قيام بناء الدولة على ما يجب (٤) جهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم (٥) تربيتهم ابناء الصرب والروس والاولاح والارمن والعرب والارناؤود والكرج والجر كس وغيرهم من العناصر ، ثم تسليم امور الدولة اليهم بدلاً من ان يأخذوا بايدي ابناء الترك ، وهؤلاء وان لم يكونوا اتراكاً كانوا يبذلون الجهد للقضاء على التركية واسدال الحجاب عليها ، وكانت الملوك يعتمنون بالاسلام فأورثوا بذلك التعصب قوة (٦) كانت الكنيسة الروسية الارثوذكسية عاملة على الانتقام لمملكة بيزنطية فبشعور روسيا بهذا الانتقام ، وحرصها على جعل الاتراك روساً في لغتهم ومناحيهم ، كانت تحارب تركيا ابداً وهذا من جملة اسباب الانقراض .

الى ان قال ان الحكومة العثمانية نذرت بالمعنويات ولم تلتفت الى الماديات ، وهذا من اعظم خطيئات الترك العثمانيين ، وكان عليهم ان يجمعوا الاتراك باسهم تحت علم واحد ، وبدلاً من ان يجعل العثمانيون حريتهم نسقاً واحداً هبوا كالا سود الظأى الى اواسط افريقية بلمسوت السراب عبثاً ، ومن طرف آخر انصرفوا الى اوربا كالطيور التي جعلت قلوبها كالسباع ، فنطخوا برؤوسهم بلا موجب قلاع فينا ثم وقفوا ورؤوسهم دامية . ومن اعظم دواعي الاسف انهم فتحوا سبيل الرواج للسانين

العربي والفارسي فداس هذان العنصران لسانهم الخاص اي التركية وعبث بالامة الفقر والجهل الخ . ونحن نقول ان السبب الاعظم لتعاقل الدولة عن تقليد الغرب في الماديات والمعنويات فظهر على توالي القرون الفرق بين الخامل والعامل ، وكان تركيب الدولة من عناصر مختلفة ، ومعظمه كان في بدء امرها من غير المسلمين ، من جملة الدواعي في عدم تركيبها تركيباً مزجياً ، خصوصاً ومعظم تلك العناصر ارقى من الترك الاصليين عنصراً واكثر ذكاء واعظم تاريخاً ، ولا عيش للمتوسط مع الذكي واذا اخضعه لسلطانه بالقوة فالى حين .





العهد الحديث

« من سنة ١٣٣٦ — ١٣٤٣ »



تجزئة الشام بين
فرنسا وانكلترا } كانت نتيجة الحرب تجزئة البلاد بين فرنسا وبريطانيا ،
فاستقلت هذه بفسطين وماليها ، واستأثرت فرنسا بالساحل
من صور الى ما وراء الاسكندرونه ، وبقيت الداخلية اي الكرك والصلت ومعان
وعمان وحوران ودمشق وبعلبك وحمص وحمسة وحلب . مستفلة بادارة الامير فيصل ،
والموحدون اليه البريطانيون . اما القيادة العامة فكانت بايدي البريطانيين ودعت البلاد
كلها بلاد العدو المحتلة عملاً باتفاق سايبكس بيكو الذي عقد يوم ٩ ايار ١٩١٦
بشأن تقسيم البلاد العثمانية غير التركية الى مناطق نفوذ ومناطق سيادة ، وانشاء دولة
او دول عربية متحدة في البلاد العربية ، وبموجبه تقابل الدول العربية داخلية البلاد
السورية وقسماً من العراق . اما دولة سورية العربية فجعل فيها لفرنسا وحدها حق
تقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناءً على طلب الدولة السورية نفسها ، او دول
الاتحاد العربي ، وقد خولت بريطانيا العظمى هذا الحق لنفسه في دولة العراق ، ويقضي
هذا الاتفاق بان ننشي فرنسا في ساحل سورية وفي تانية ، وبريطانيا في جنوب العراق
وفي جبلتها بغداد ، وفي موافي حيفا وعكا ، نظام الحكم الذي تريدانه ، ونوع الادارة
الذي تستسنانه ، وان ننشأ في فلسطين حكومة دولية .

وسار الحال على ذلك مدة الى ان تم الاتفاق (٥ ايلول ١٩١٩) بين الحكومتين
الافرنسية والانكليزية على ان تخرج بريطانيا عساكرها من الشام ، بشرط ان

لاتدخل المساكن الافرنسية الى المدن الاربع منها اي دمشق وحلب وحمص وحماة ، لان بريطانيا قطعت للعرب عهداً ان تؤلف لهم حكومة عربية ، وهكذا كان فان الجيش البريطاني تراجع الى شرقي الاردن وفلسطين . وعينت بريطانيا على فلسطين السير هربرت صموئيل اسرائيلي انكليزي مفوضاً سامياً ، وعينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً على سورية ولبنان ، ويعمل هذا القائد مستقلاً باسم دولته ، وكان من قبله من الفرنسيين يعملون حتى في لبنان بقيادة اللورد اللنبي القائد البريطاني العام . وجاء في هذا الاتفاق ان بريطانيا وفرنسا تضمنان لسكان ما بين جبال طوروس والخليج العجمي ، استقلالاً واسعاً بأمنون معه على حريتهم ، ويتمكنون من تجديد حضارتهم وكانت بريطانيا وفرنسا نشرتا بلاغاً قالتا فيه ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي هاجتها مطامع الالمان ، انما هو تحرير الشعوب التي رزحت قروناً طويلاً تحت مظلم الترك — تحريراً تاماً نهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . واقصد اجمعت فرنسا وبريطانيا على ان تؤكد ذلك بان تعاوننا على إقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في الشام والعراق — وهما المنطقتان اللتان اتم الخلفاء تحريرهما — وفي الاراضي التي مازالوا يجاهدون في تحريرها ، وان تساعدوا هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض فرنسا وبريطانيا ان ننزلا اهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه ، ولكن همها الوحيد ان يتحقق بمعونتها وساعاتها المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من انفسهم ، وان تضمنناهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ، وتسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد ، باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ، ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية ، تلك هي الاغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة اه .

فئة الارمن واعتمادهم	}	كانت الدولة العثمانية في السنة الاولى للحرب
علي العرب		اجلت من الاناضول الى بلاد الشام عشرات

الالوف من الارمن ، بعد ان عملت فيهم السيف وقتلت منهم مئات الالوف صبرا بطرق مختلفة ، لان بعض ابناء جنسهم قطعوا خط الرجعة على الجيش العثماني اثناء حربه في جبهة روسيا ، فصدر امر الحكومة العثمانية ان يقتل الارمن قتلاً تاماً ، يقال انه هلك فيه نحو مليون نسمة منهم ومن لم نستطع الدولة قتلهم بعثت بهم الى بلاد العرب ، رجاء ان تجد سبيلاً آخر لقتلهم ، ويقال ان الالوف التي جلبتها الى ديار الشام كانت توغز من طرف خفي بقتلها ، ولكن العرب اظهروا من الشتم والكرم ونصرة الضعيف ما فطرت عليه اخلاقهم فلم يس الارمن باذى حتى في أقصى الشرق من الشام حيث تكثر الجهالة والعمجية .

ولما دخلت جيوش الحلفاء الشام كان في جملة كتائب فرنسا متطوعة من الارمن فوقع في نفوس بعضهم ان ينقموا من العرب عما جنه ابيدي الاتراك على ابناء مذهبهم . فقابلوا احسان العرب اليهم بالاساءة . وبدأوا ببيروت فأطلقوا بنادقهم على بعض البيروتيين علناً وقتلوا بعض الوطنيين ثم أخذوا حيث ينزلون يبدون من امارات الغضب ما يتناول الابرياء مباشرة ، وقد تمردت هذه الكتائب حتى على الحكومة التي قبلتها متطوعة في صفوفها مثل الكتيبة التي تمردت في الاسكندرونه (١٩١٩) حتى اضطرت القيادة الافرنسية ان تنقلها الى اذنة ، ولم تقف معاملة الارمن للعرب بالسوء عند هذا الحد بل تكونت منها أسباب لفئنة أهلية في حلب انتهت بقتل وجرح وأحكام بالقتل وإهانة أعيان البلاد . وقد سألنا صديقنا السيد امين غريب وكان في الشهباء قريباً من هذه الواقعة فنفضل وكتب الينا ما نثبه بنصه ، وقوله ثقة في هذا الباب قال :

كان الجيش الانكليزي محتلاً مدينة حلب وقد وقفت طلائعه في مسيلة وما حولها بسبب الهدنة بين الحلفاء من جهة والدول الوسطى من جهة ثانية . وكانت تركيا بحسب الشروط قد أخذت تسرح جيشها ، فالجنود العرب كانوا يعودون الى الشام بطريق اذنة حيث يبرون بالجنود الارمن الذين عسكروا في اذنة ونواحيها ، وكان هؤلاء الجنود الارمن قادمين مع الحلفاء (وأرجح ان قيادة امورهم كانت في ايدي الفرنسيين) فسكان كل عربي يمر بالارمن لابساً ثياب الجيش التركي المخل

بهيج منظره العسكري عاطفة النعمة في قلوب الارمن اذ يتذكرون فطائع الاتراك بهم
 و باهلهم . ولا يعذرونه بانه عربي ، جاهلين الفرق بين هذا وبين التركي فيعاملونه
 بكل خشونة . وكنا في حلب نستقبل كل يوم عشرات ومئات من اولئك العرب
 مسرحين وهم معشمر الوجوه مجروحون مضرورون بايدي الارمن ، فكان هؤلاء
 الجنود ينشرون في حلب وينشرون بين اهلبا اخبار تعدي الارمن عليهم انتقاماً منهم
 لما فعل الاتراك بهم ، وكان كثير من هؤلاء الجنود من الحلبيين المسلمين ، هذه اول
 مقدمة لحادثة حلب .

السبب الثاني — كان الانكاز عند دخولهم حلب قد أخذوا الارمن اللاجئين
 اليها ووضعهم في أماكن مخصوصة عنوا فيها باعاشتهم وترتيب امورهم وتحسين حالتهم
 فرأى الارمن من الانكاز حماة يدفعون عنهم ذلك الشر المستطير والضيم العظيم فصاروا
 كمن انتقل فجأة من الظلمة الحسكة الى نور كهرباء ساطعة ، وتحولوا حالاً الى
 جواسيس متطوعين للانكاز يتلقون اليهم الاخبار المتنوعة ، وجرأهم هذا الانقلاب
 في حالتهم من تعاسة وشقاء الى حرية وإكرام فنشأت فيهم غطرسة غير معبودة لدى
 الحلبيين فقابلها هؤلاء بالاشتمزاز الطبيعي فازدادت نارها اضطراراً ، وصارت الخشونة
 في الحديث على رأس كل اسات ارمني نقر بياً ، فتكاثرت الحوادث البسيطة في
 جميع أنحاء الشبهاء .

السبب الثالث — الورقة المصرية ، فان الانكاز نشروها في حلب عند قدومهم
 وقد تناقصت في ذلك الحين قيمتها الحقيقية عن قيمتها الاسمية ، وكان الارمن يتناولونها
 من دوائر الاعاشة الانكليزية ويندهبون لصفها عند الفوالين وباعة الخبز مثلاً ،
 فكان الارمني يأكل صحن فول بقرشين ثم يبرز للفوال ورقة بليرة ويطلب منه
 حسم القرشين واعطاه الباقي من المال النجدي ، وكانت قيمة الورقة ستين قرشاً ،
 فكان المسكين يضطر اما الى خسران كل موجودات محله وهي لا تزيد عن اربعين قرشاً
 واما الى مواجهة شرطي كان غالباً يعطف على خصمه الارمني لتفويضه للقانون ، وتعددت
 هذه الحوادث وتنبعت حتى امتلأت منها القلوب وغلت من حرارتها الحواطر .
 جاء يوم الجمعة في ٢٨ شباط ١٩١٩ وهو يوم السوق النهارية هناك ، فكانت

مسلم يبيع حماراً وقد ساومه عليه ارمني فاختلفا ونصايحا ونشائما ثم تلا كما فكانت هذه الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم . وفي سوق الجمعة وما حولها من الاماكن التي يكثرا الارمن فيها حصل التعدّي عليهم وفي أقل من ساعة بلغ عدد القتلى ٥٢ والجرحى مئة ، وكلهم قتلى وجرحى بالمدي والخناجر وسواطير اللحم لا بالرصاص . وقد اجتهد الارمن يومئذ اجتهاداً عظيماً كي يشركوا الحكومة العربية في الجناية عليهم بسبب وجود بعض الجنود والشرطة الاهلية في اماكن التعدّي وعدم لقيانهم منهم عوناً . على ان هؤلاء الافراد حيث وجدوا انما كانوا يقصرون او يتعدون بدافع التأثر الشخصي المسوق اليهم مع التيار العام بين الاهالي ، لا باوامر من رؤسائهم ، اما عدد قتلى المسلمين الحلبيين فلم يرد ذكره امامي لكنه يحسب ما سمعت لا يتجاوز العشرة .

وقد أقيمت ٩٢ دعوى على المتهمين بهذه الحوادث ، وآخر ما بلغني ان قد حكم على نحو ثلاثين بالقتل فقتلوا في اوقات مختلفة وصدر الحكم على كثيرين بالسجن . اما الثلاثون عيناً من اعيان حلب فقد قبض عليهم الانكليز يومئذ بتهمة تحريض الاهالي على ذبح الارمن ، لكن هذه التهمة لم تثبت امام التمهيص الذي اجرته لجنة من المحققين كنت عضواً فيها . ولهذا لم نقع عليهم محاكمة بتاتاً ، لكنهم جعلوا قيد التوقيف مدة ريثما سكنت الحال ، واذكر ان القائد الانكليزي لما أراد ان يسرحهم التي عليهم كلاماً ملخصه : انكم زعماء والزعيم لا يعذر على جهله ما يدور بين جماعته . اننا لم نجد عليكم ما يوجب لكم عقاباً قانونياً ، لكننا لا نبرئكم من التبعة في وجود أسلحة مع بعض أناس منتمين الى زعامتكم ، فعليكم كما علمتم بعد الآن ان احد الاهالي يحمل سلاحاً على شخصه او في بيته اعلامنا بامرهم ، والا فنحن نسب لكم التحقير حتى لا يبقى في اذهان الناس اثر لا عنقاده الزعامة فيكم « وهم جراً .

اعمال الحكومة العربية } لما جلت الجيوش البريطانية عن المدن الاربع ،
وحكومة الصبوينيين } أخذت الحكومة العربية بامارة الامير فيصل بن الحسين تعد لها جيشاً من أهل البلاد ، وكانت بريطانيا تؤدي كل شهر لحكومة المدن الاربع مائة وخمسين الف جنيه مصري ، لتستعين بهسا على تنظيم شؤونها ،

وكانت من هذا المبلغ يصرف جزء مهم على بث الدعوة وتنظيم العصابات ، فأخذت بريطانيا تفكر في قطعها ، ولكن الحكومة الوطنية زادت في معدل الجباية والرسوم حتى تسد العجز يوم انقطاع الاعانة الكبرى ، ودخل في السياسة الوطنية شبان متحمسون ، واكثرهم من غير ابناء هذه المنطقة الشرقية منطقة المدن الاربع ، وأصبحت لهم منزلة عند الامير بدمون وينقضون فأبعدوا عنه كثيراً من رجال الحل والعقد في البلاد ، وأصبح الامير يعمل هو والشبان ، والمستند في ذلك على طائفة من أرباب الفتوة والعوام ، وكثرت الاحزاب السياسية في دمشق حتى زادت على ثمانية ، وكلها بالطبع تريد استقلال الشام ، ومنها ما يدعو الى استقلال جميع العرب ، وكثرت المنازعات واشتد التنارع بين أبناء الوطن ، وكلهم يريد له الخير ولا يهتدي الى طريق الصواب . لان عمال بريطانيا وفرنسا أخذوا يعملون في الشام ، وكل منهم يريد الاحتفاظ بحقوق دولته وإثبات الارجحية لها وتوطيد اقدامها .

وقد تأفف الناس من السياسة التي جرى عليها الامير فيصل في الاعتماد على الغرباء عن منطقة المدن الاربع ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكريها من دون سبب فأخذوا ينصحون له مسراً بالعدول عن هذه الخطة ، وأوفد أعيان الدمشقيين ومفكروهم وفدأ يبين له ما يجب السير عليه حرصاً على المصلحة فلم يلتفت الى كلامهم . وقال في بعض مجالسه : ان اولئك الغرباء الذين يعتمد عليهم قد خدموه اكثر من الدمشقيين وان هؤلاء لا مأرب لهم الا المال . على ان الايام أثبتت عكس ما قال ولكن السياسة تسود الابيض وتبيض الاسود .

وكانت المنطقة الساحلية اي التي دعيت باسم المنطقه الغربية ، قد أقامت لها حاكماً فرنسياً على لبنان لاول عقد الهدنة ، وأخذت فرنسا تحتل السواحل وما اليها الى قلقية ، ولم تمض على ذلك مدة حتى بدأت العصابات التركيه تسيء الى الجيش الافرنسي في قلقية وشمالي الشام فقتل من الفريقيين مئات . وكانت فلسطين منذ رحل الترك عنها في قبضة الجيش البريطاني فلما مضت السنة الاولى للهدنة أصبحت بريطانيا تفي للاسراييليين الصهيونيين بما وعدهم به وزيرها بلفور مدة الحرب ، اذا عاونوا بريطانيا باموالهم بان تجعل لهم من فلسطين وطناً قومياً . فجعلت اللغة العبرية

لغة رسمية في فلسطين بمثابة العربية والانكليزية ، وأخذت الوظائف تنتقل من ايدي المسلمين والمسيحيين الى ايدي الاسرائيليين ، وخص الاسرائيليون بالرعاية على ما لم يكن لهم به عهد ، فشق ذلك على اهل البلاد الاصليين ، واجتمع المسلمون والمسيحيون وألغوا جمعية تطالب بريطانيا بالعدول عن هذا الوعد البلغوري ، وكثرت الوفود منهم الى اوربا والى مصر مركز القيادة العامة للجيوش البريطانية ، فشعرت بريطانيا بصعوبات حقيقية في ادارة فلسطين (آب ١٩٢١) وحدثت فتنة في يافا والقدس وغيرها من المدن الفلسطينية وتوقفت الاعمال ، والقوم لا يعمل لهم الا ارادة بريطانيا على الرجوع عن وعددها للاسرائيليين ، وقد ملأ أبناء فلسطين من غير الاسرائيليين ، وهم ثمانية اضعاف اليهود ، العالم صياحاً وعو بلا ولم ينفس لهم كرب ، ولم يدركوا لهم غاية . وهكذا كان من شبح الصهيونيين ما أخاف المسلمين والمسيحيين ، فالتحدوا اتحاداً صادقاً وجامعتهم في اتحادهم ، وحدة المصلحة على طراز كان فيه شيء من الغرابة .

ولما تركت الحكومة العربية في دمشق وشأنها على اثر انسحاب الجيوش البريطانية الخط الذي عينه معاهدة سايكس بيكو في فلسطين ، رأى الامير فيصل ان يذهب (١ ايلول) الى لندن وباريز ليفهم ساستها حقيقة امانى الامة السورية ويعرف موقفه من معاهدة بريطانيا وفرنسا المتعددة في ١ ايلول ١٩١٩ وخلصتها تسليم قلقية والمنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة اي ساحل سورية الى الادارة الافرنسية ، فسحبت بموجبها الجيوش البريطانية الى ما وراء الخط الوهمي الذي عين الحدود بين المنطقتين المنوه عنه بمعاهدة سايكس بيكو ، اما المنطقة الشرقية وبلاد العدو المحتلة اي المنطقة العربية فتبقي الحكومة بدمشق قابضة على زمامها ، بشرط ان تقدم لها الدولة الافرنسية المساعدة الضرورية التي نصت عليها معاهدة سايكس بيكو .

فلم يستطع رجال بريطانيا ان ينيلوا الامير فيصلاً رغائبه ، وأحالوه على فرنسا لان الانداب في الشام أصبح لها دون سواها ، وفي فلسطين تم الانداب لانكلترا وكذلك العراق . فبذل الامير غاية جهده حتى يفهم رجال السياسة في بريطانيا وفرنسا ما هي المسألة السورية ، وبعد الجهد العظيم لم ير الا الاتفاق مع رئيس الوزارة الافرنسية المسيو كليمانسو وتعهد له ان يكون مع فرنسا ويرضى بانئدابها على الشام ، واعترفت

فرنسا لاهل الشام على اختلاف مذاهبهم بالاستقلال وحكم أنفسهم بانفسهم ، وذلك في اللائحة التي تم توقيعها بين الحكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكي الامير فيصل يوم ١٦ كانون الاول ١٩١٩ واعترف الامير بان السوريين لا يستطيعون في الوقت الحاضر لاختلال النظام الاجتماعي الناشئ عن الاضطهاد التركي والخسائر المحدثه اثناء الحرب ان يحققوا وحدتهم ، وينظموا إدارة الامة دون مشورة ومعاونة أمة مشاركة ، وطلب باسم الشعب السوري هذه المهمة من فرنسا ، وقد جاء في المادة الخامسة من هذه اللائحة ان صاحب السمو الملكي الامير فيصل يتعهد بان يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إداري داخل الدولة السورية ، تكون مجهزة باوسع استقلال يلتئم مع وحدة الدولة ، وجاء في المادة السابعة انه يعترف بالعربية لغة رسمية في الادارة والتدريس وتعلم اللغة الافرنسية كما تعلم لغة مساعدة وبصورة إجبارية ومختارة .

وتعهد الامير بان يقضي على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الافرنسي ، وعلق اعترافه بالانقلاب الافرنسي جهاراً على إدماج لبنان في الشام ، ثم عاد الى الشام (٣ شعبان ١٣٣٧ - ايار ١٩١٩) فاستقبلته السلطان الافرنسية والبريطانية استقبال الملوك ، وكان استقباله في دمشق فخماً للغاية فخطب في بيروت خطبة رضي عنها الفرنسيون ، ولما جاء دمشق خطب خطبة تخالفها إجمالاً وترضي الماديين بالاستقلال التام التاجز ، وبدأ التقلقل في سياسته والنساقض في أقواله ، لانه كان بين عاملين العامل الافرنسي والعامل الانكليزي وهذا أشد وأقوى وان لم يكن ظاهراً للعيان ، وذلك بالنسبة لحالة والده ملك الحجاز ، ولان انكسرت اذا غضبت نثقطع عنه المعاونة المالية الشهرية ، وبدونها يستحيل القيام بشيء من اعمال المقاومة والدعاية .

وكانت الحكومة العربية بدمشق دعت مؤتمراً	} المؤتمر السوري ومبايعته } فيصل ملكاً على الشام
تألف من أكثر أبناء الشام ومنها فلسطين ،	
لوضع القانون الاساسي للبلاد وتعيين شكل حكومتها ، فقرر اعلان ملكية الامير	

فيصل (١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨ - ٧ آذار ١٩١٩) فبويغ له بالملك على الاصول باسم فيصل الاول ، وأعلن شقيقه الامير عبد الله ملكاً على العراق ، وان يكون ولي عهده اخوه الاصغر الامير زيد ، بايع أهل الحل والعقد الملك الجديد فرحين معتبطين ، ولم يحضر قنصل بريطانيا حفلة التنصيب وحضرها معتمد فرنسا فرحاً مسروراً ، وكان محباً للعرب مجاهراً باستقلالهم ، وتألفت وزارة قالت اولاً انها لا تقبل بالانئداب الافرنسي الذي كان قرره على الشام مؤتمر سان ريمو في ١٦ نيسان (١٩٢٠) . فدهش المفكرون لهذا التبدل في السياسة ، وذهبت في ذلك الظنون كل مذهب ، فن قائل ان الامير نودي به ملكاً بايعاز انكثرا لانها ذكرت خدماته وخدمات والده واخوته لها في الحرب ، فأرادت ان تكافئهم وتقوم بما وتدبتهم به . ومن ذاهب الى ان فرنسا رأت ذلك من مصلحتها ، لانها كانت عرضت على الامير ان يقبل بالانئداب الافرنسي على الشام ما عدا فلسطين وهي تدخل له لبنان في سلك ملكه فلم يقبل . ثم تبين بعد ايام ان المسألة ليست منبعثة الا عن آراء الاحزاب لان من اساطينها من كان يذهب منذ حين الى ان اوربا اذا رأت أهل البلاد يتنادون بالامير فيصل ملكاً عليهم ، لا تنازعهم في ذلك لان البلاد بلادهم وهم احرار فيها . ويكون ساسة اوربا امام امر واقع لا يجراون ان ينقضوا ما أبرم !! وفي ١٨ آذار اي بعد البيعة بعشرة ايام ابلغت فرنسا وانكثرا الامير فيصلاً بانتهما لا تعترفان بصحة قرار المؤتمر السوري الذي بايعه ملكاً ، ودعي الى الحضور الى اوربا لعرض قضيتهم امام مجلس عال ، فاعتذر بان أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة البلاد ، وأرسل من قبله رسولا الى لندرا وطلب الى فرنسا وانكثرا معاونتهما ليعترفوا له باستقلال الشام . وكان الامير يرى من معتمد فرنسا لدى حكومته عطفاً ومعاونة ، وكذلك من معتمد ايطاليا التي أرسلت الى دمشق قنصلاً برتبة سفير صغير ليحسن تمثيل دولته أمام الدولة السورية الفتية . اما ملكية الملك فيصل فان انكثرا كانت على ما قيل تميل الى الاعتراف بها ولكن فرنسا عارضتها في ذلك .

العصابات بين الساحل والداخل } واخذت العصابات في المنطقة الشرقية تخمس فأرسلت الدولة المختلة في المنطقة الغربية (كانون الثاني سنة ١٩٢٠) كتبتين من الجند بدلالة بعض نصارى جديدة مرجعيون ودير مجاس والقلعة فضربوا قصر الامير محمود الفاعور امير عرب الفضل في الخصاص من ارض الحولة فلما رأى عرب الفضل انهم المقصودون بالذات حملوا على الجند حملة منكرة كانت فيها لهم الغلبة وقتل كثير من الجند الافرنسي وقليل من العرب وعندئذ هجم نحو مئة وخمسين رجلاً من العرب وارباب القرى المجاورة على جديدة مرجعيون فأحرقوا نحو اربعين داراً ونهبوا بعضها وقتلوا نحو عشرين رجلاً من اهلها . وادعى العرب انه قتل من الجند نحو اربعمائة ولم يقتل منهم سوى سبعة اشخاص وادعى الفرنسي ان المهاجمين من العرب كانوا نحو اربعة آلاف معهم ٢٥ مدفعاً رشاشاً ومدفعان من مدافع الصحراء وادعى العرب انهم لم يكونوا اقل من ثلاثمائة ولا مدافع لهم ولا رشاشات ولم يكونوا ستة الى واحد كما ادعى الفرنسي بل كانوا اقلية .

وبعد خمسة اشهر (١٥ حزيران) تكررت هذه الحوادث في عين ابل والقلعة والجديدة نفسها ، وضربت الحكومة المندبة على أهل جبل عامل مائتي الف ليرة ذهباً جزاءً عن العصابات في جبلهم . وذكر الريحاني ان الجباة الماهرين جمعوا من هذا الجبل اربعمائة وخمسة وثمانين الف ليرة دفعوا منها تعويضاً لاهل الجديدة خمسين الف ليرة

ووقعت وقائع كثيرة في بلاد بشارة وانطاكية وتل كلخ ، كانت العصابات العامل الاقوى فيها ، كما ان المنطقة الغربية حاولت انشاء عصابات مثل عصابات المنطقة الشرقية لتدفع الشر بالشر ، وارصدت في بعض الروايات ثلاثمائة الف ليرة ذهباً لهذه الغاية ولكن عصابات المنطقة الشرقية كان عملها اعظم وافظع واكتفت بها الحكومة المختلة ولبثت ترتقب نتائج عملها وربما جتمت امرها وهولت فيه اكثر من الحقيقة . ومما حدث وقائع النصرية والاسماعيلية (نيسان ١٩١٩ - ١٣٣٧) فاغار النصرية على الاسماعيلية في جبل الكلبية في قرى عقر زبي وخربة الفرس وجمعه شبه وغيرها

من قرى الاسماعيلية ، وفي ناحيتي الخوايبي والقدموس ، وسكانها اسماعيلية ، فنهبت القدموس على بكرة ابنيها وخربت بعض بيوتها ، وكانت المعركة دامية بين الطائفتين قدر بعضهم قتلاها بمائتين وزاد آخرون الى اكثر من ذلك ، فزحفت كتيبة من الجيش الافرنسي على قرية الدويلة فاحرقتها ، واحرقت قريتي كافالجوع والسورية ثم سارت الى المريقب مقر الشيخ صالح العلي زعيم الثورة ومن المعتقدين عند النصيرية ، وكان جمع القلوب حوله بدعائه ، وعشائره تبلغ خمسة آلاف ، ومعهم عشائر المتاوردة ، فتألفت كتلة مؤلفة من اثني عشر الف مقاتل من اهالي جبال النصيرية وتعاهدت على قتال الجيش الافرنسي ، فاحرق الجيش بيوت الشيخ صالح فهاجم هذا الحملة ودامت المعركة بينهما سبع ساعات ، ثم تراجعت الحملة الى القدموس ومنها الى بانياس وطرسوس .

ومن الاحداث خلال هذه السنة ما وقع في شباط (١٩١٩) بين امراء الاسماعيلية وجماعتهم من الفلاحين من الاختلاف الذي انقلب الى فتنه ، اضطر معها الامراء ان يستنجدوا بمشايخ النصيرية ليعينونهم على ابناء مذهبهم فعاونوهم حتى انتصروا على جماعتهم ، واراد الفلاحون من الاسماعيلية بعد كسرتهم ان ينتقموا لانفسهم فهاجموا قرى النصيرية القريبة من بلادهم ، وارتكبوا انواع القسوة وحرقوا الدور ونبشوا قبور الاولياء من شيعتهم فاضطرت السلطة كما قال الكولونيل نيجر الى التدخل واشتعلت نيران الفتنه ولم تحمد الا في تموز ١٩٢١ قال : وكادت هذه الفتنه تم الجبل كله ، لولم يعلن استقلال بلاد النصيرية ، وذكر في تقرير له عن تلك البلاد ان المفاوضات كثرت بين جبال النصيرية وانقرة اي الحكومة التركية ، وانقطعت بعد عقد الصلح بين فرنسا وتركيا ، وان البنادق التي جمعتها السلطة من الجبل بلغت خمسة عشر الفاً منها ماوزر حديث جداً ، ومنها انكليزي ، وكان الشيخ صالح زعيم العلويين يرأسل انقرة على الدوام . وذكر الجنرال غورو في احدى خطبه انه اشترك مع عصابات مرجعيون زعيم وخمسة ملازمين و٣١٧ جندياً عربياً ، واعانتهم الحكومة العربية باربع رشاشات ثقيلة وثلاث خفيفة ، وخمسين صندوق ذخيرة ، وان مذابح عين ابل وفتنة العاملين كانت بخرىض من المنطقة الشرقية اي حكومة فيصل في دمشق ، والغالب

ان عمال الافرنسيين كانوا بالغون في اخبار العصابات ويؤكد الخبيريون ان العسكر العربي ما اشترك مع العصابات اصلاً ولا في وقعة من الوقائع .
 على ان بريطانيا وهي الصديقة المحبة الى حكومة الامير فيصل لم تخل من اعتداء العصابات عليها ، فانها اعتدت على اطراف سمنخ في المنطقة البريطانية ، كما اعتدت على قطار في الشمال يحمل عسكرياً بريطانياً . ومما جرى خلال تلك الفترة اتفاق بريطانيا وفرنسا اتفاقاً عسكرياً على ان تخل الثانية بعلبك ورياق وحاصبيا وراشيا فزحفت الجنود الافرنسية لاحتلال هذه الاضية وكانت من عمل الحكومة العربية الفيصلية ، وبعد مناوشة في وادي جربان دامت اربع ساعات بين الجيش العربي والجيش الافرنسي دخل هذا بعلبك ، ثم سعى الامير فيصل فاخرجهم من تلك المقاطعة ثانية .
 ترامت اخبار العصابات الى الغرب وتجمست بالطبع على العادة في نقل الاخبار ، وشكا العقلاء من اهل البلاد وخافوا عاقبة هذه السياسة ، واسفوا لثقاتل ابناء الوطن ولتجدد نكرة الدين ، ولم يكن قنصل الدول نافلين عمالهم وكانوا ينقلون اخبار الوقائع في الجملة على وجه الصحة واخذت العلائق تنوتر بين الامير فيصل وحكومة الانتداب في الساحل ، وكانت فاتحة اعمال الجنرال غورو في الشام ان طلب الى الامير فيصل ان يعطيه القاع لينقل على الخط الحديدي ما يحتاج اليه الجيش الافرنسي في جهات عينتاب فاجاب الامير بالطلب .

استفتاء البلاد في الدولة } زينت بريطانيا للحلفاء ارسال وفد يستفتي اهل
 التي تريد انتدابها } الشام ولبنان ، في الحكومة التي يختارونها للانتداب
 عليهما نجاء الشام (حزيران ١٩١٩) وفد اميركي مندوب من الدول ليدرس حالة
 البلاد ويعرف ما يرضيها من الحكومات فبدأ عمله من الجنوب الى الشمال ، وجاء دمشق
 فاجتمع العلماء والرؤساء والقادة ، فكانت الكلمة في المدف الاربع مجمعة على طلب
 الاستقلال التام ورفض المعاونة الفرنسية وطلب المساعدة الاميركية او البريطانية
 فقط ، وكذلك مدن الداخلية ، اما السواحل فالموارنة والكاثوليك طلبوا فرنسا . ويقول
 الريحاني ان الاقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الافرنسي ولم تشمل هذه الاقلية

الطوائف المسيحية كلها قال : ومما يدعو الى الاسف ان قد كانت اللجنة الاميركية عاملاً آخر من عوامل الشقاق لانها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبية الدينية والطائفية .

وقد قالت هذه اللجنة الاميركية انها زارت ٣٤ مقاطعة من مناطق العرب والانكليز والفرنسيين ، (فلسطين وساحل سورية وداخلها) وان مجموع أهل سورية ٣٦٢٤٧١٥٠٠ نسمة منهم ٢٦٣٦٥٦٠٠٠ من المسلمين و ٥٨٥٦٥٠٠ من المسيحيين و ١٤٠٦٠٠٠ من الدروز و ١١٠٦٠٠٠ من اليهود و ٤٥٠٦٠٠٠ من الطوائف الاخرى . وهو احصاء تقريبي وانه بلغ مجموع العرائض التي تلقتها اللجنة ٩١٠٧٩ عريضة وفي كل واحدة خمسون توقيعاً على الأقل ، وان مطالب الاهالي تُنحصر بطلب انشاء مملكة ملكية ديمقراطية دستورية لامر كريمة .

ولما جاءت اللجنة الاميركية الى دمشق ، اصدر المؤتمر السوري قراراً نحوها طلب الاستقلال التام لسورية ، والاحتجاج على المادة الثانية والعشرين من قانون جمعية الامم ، ورفض المساعدة الفرنسية وطلب مساعدة الولايات المتحدة لمدة عشرين سنة وإن لم تقبل هذه فبريطانيا العظمى بنفس هذه الشروط ، وقال : ان العزم معقود على تأسيس حكومة ملكية سورية ديمقراطية يرأسها الامير فيصل ، وتقوم على أسس القومية وتحفظ حقوق الاقلية . وكانت الاكثرية المطلقة في بلاد الحكومة العربية بجانب اميركا في مسألة الانداب ، وفي الساحل كانت بالطبع بفرنسا ولما كانت اميركا لا تقبل بان تُندب على بلد لاشان لها فيه فالانداب يكون لبريطانيا ، وهذا ما كان يريد الامير فيصل لتكون البلاد العربية كلها ذات انداب واحد ، وتكون روحها واحدة وهي الروح البريطانية . وخالفه فريق صغير فقال بان في تعدد الاندابات فرجاً للشام يقرب ايام استمتاعها بحريتها ، ناجية من اشراف الدول المنذبة ، وقد كانت ثقة الامير بالانكليز السكسونيين في القضية السورية عظيمة جداً . كتب الى صاحب هذه المخطوط من باريز يوم ٤ آذار ١٩١٩ كتاباً خاصاً جاء فيه : « واذا استثنينا بعض من يريد الاستعمار لجميع اصوات العالم معنا فلا يشق عليكم ما يبلغكم من بعض الجهات

فهي قواقع وضرب دفوف لآخوف منه هذا بشرطان نكون . مرجدي الفكر والعمل .
الامة الاميركية والبريطانية معنا وسنصل الى ما نحن نتمناه .

افكار الامير فيصل } تجلت افكار الامير فيصل بمجيء اللجنة الاميركية كل
والعبث بالسياسة } التبلي وكانت الدعوة اولاً منذ يوم رفع العلم العربي
على البلاد الداخلية ان الاستقلال تام للبلاد العربية فنناول الوحدة الشام والحجاز
والعراق وسائر الاقطار العربية في الجزيرة ، وما فتئت الدائرة تضيق حتى اخذوا يدعون
الى الشام بحدوده الطبيعية ، ثم سكتوا عن فلسطين لان العلم البريطاني كان يخفق عليها
منذ خروج الاتراك منها ، ثم اکتفوا بالدعوة لاستقلال سورية ، ثم تحلوا عن لبنان
واکتفوا بالدعوة الى استقلال المدن الاربع وهذه ايضا لم تسلم لم على ما يراد لها .
وذكر الريحاني انه كان ليفصل رأيه في تقسيم البلاد الى المقاطعات وفقاً لحالتها
الطبيعية والعقلية والتهديبية صرح به خصوصاً للوفد اللبناني الذي جاء دمشق بينه
بعودته من باريز ، وليؤكده ان فريقاً كبيراً من اللبنانيين يمتنون الانضمام الى سورية .
وقد اخذت الحكومة العربية بعدان نودي بالملك فيصل ملكاً على الشام تزيد في الضرائب
واخذت بالتجنيد (كانون الاول ١٩١٩) وجعل البديل النقدي عن الخدمة العسكرية
ثلاثين ليرة عثمانية لسته اشهر حتى زادت وارداتها من ١٦٨٠٠٦٠٠٠ جنيه الى
٢٦٣٠٠٦٠٠٠ وذلك لتستعين بهذا المال على مقاومة فرنسا ، وقد دفع الناس الاموال
تخلصاً من الخدمة العسكرية ، وكان في البلاد نقد كثير بقي من الحرب العمومية ، ومنه
ما صرفته الحكومتان البريطانية والعربية عقيب الاحتلال ، وكيف يقاوم جيش جديد .
جيش حكومة كبرى وهو قليل العدد والعدد ، فيه ظواهر ومظاهر لاحقات يعول
يوم البأس عليها ، حتى باتت المسألة اشبه بالهزل منها بالجد .

لما سألت الوزارة امراء الجيش بحضور الملك فيصل عما عند الجيش العربي
من الذخائر والعتاد وفي كم يوم تنفذ اذا اشتبكت الحرب ، اجابوا انها تنفذ في
ساعتين وقد لا تنفذ في يومين . فسألتهم الوزارة وعلى ما ذا تستندون في الحرب
بعد نفاذ الذخائر ، فاجاب بعضهم انهم يأملون في اول ملحمة ان يدحروا الجيش

الافرنسي الزاحف ويستولوا على ذخائره وعمساده وعلق بعضهم آماله على الجيش العربي في حلب . وقال آخر : اننا نانسحب الى رؤوس الجبال ونعتمد على مواقفنا الحربية . ونحارب حرباً دفاعية بالمناوشة . ولما سألتهم الوزارة على ماذا تعمدون في هذه الحرب ، وعلى اي شيء نلنكون في المقاومة ، اجابوا على حماسة الامة ومعاونتها فاجابهم احد الوزراء : دعونا من البحث في المعنويات فاننا تقدرها مثلكم واخبرونا عن قوتكم الفعلية المادية . وكم يمكنكم المقاومة فقوالوا : ست ساعات اذا اشتد لظى الحرب دفعة ، ولم نوفق لدحر العدو وهزيمته .

وهكذا كان الامناء على مصلحة الامة يفكرون ويتناقشون قبيل ان ساقطت فرنسا جيشها من الساحل الى الداخل ، اما العامة ومن كان يحمسهم فقد عرف مبلغهم من الحيات والاحراج . ولقد قال يوماً احد دعاة العامة من اضروا كثيراً بحجاستهم قضية الاستقلال في مجلس عقد بدمشق من خاصة القوم ليقرروا الحرب مع فرنسا او الصلح وتأليف عصابات تغزو المنطقة الغربية : « ان فرنسا عجزت بعد الحرب العامة ان ترسل الى الشام بضعة انفار من جيشها ، وليس لديها مال وما تهددنا به من قوتها لا تستطيع انفاذه ، فالاولى ان تتكل على الله ونبدها بالحرب . » فأجاب صاحب هذه الخطط وكان في الجلسة من جملة المدعوين : « لست من امراء الجيش حتى اعرف ما عنده من القوى المادية . ولكنني اعرف فرنسا وقوتها ولا اكون الى المبالغة كثيراً اذا قلت ان فرنسا تستطيع ان تكتسح الشام من جنوبه الى شماله اذا ارسلت علينا عوران حربها الاخيرة فقط ، فيجب علينا ياسادتي ان لانعش انفسنا ونذرع بالمحال » .

حملة فرنسا على
المدن الاربع
كانت الحكومة العربية في ايدي العامة والهازلين من
امراء جيشها وخطط الاحزاب متضاربة واعضاء كل
حزب متعادون متشاكسون بينهم وكان الجنرال غورو المفوض السامي في سورية
ولبنان يعزز جيشه في الساحل ويستدعي من فرنسا فرقا من الجنود فارسل يوم ١ تموز
١٩٢٠ الى الملك فيصل كتاباً مطلعاً : بينما كانت السكينة سائدة في سورية اثناء
الاحتلال الانكليزي ابتداءً الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ولا

يزال آخذاً بازدياد منذ ذلك الوقت . وارسل اليه ايضاً يوم ١٤ تموز ١٩١٩ بلاغاً يدور على خمس مواد وهي ان يعطى لفرنسا الخط الحديدي من ريباق الى حلب ، وان تلغي حكومة فيصل القرعة العسكرية التي اخذت تجمعها ويقبل الاندباب الافرنسي والنقود السورية ويضرب على ايدي الاشقياء . فطلب الملك مائة اربع وعشرين ساعة فانتهت مدة الانذار الاول في ١٨ تموز الساعة الحادية العشرة والنصف تقريباً ثم مدت اربعاً وعشرين ساعة أخرى ثم مدت ثانية وانهت يوم ٢٢ تموز . ووقع تأخير في ارسال الجواب بالايجاب اي بقبول مطالب فرنسا وكان الداعي اليه اقتطاع الاسلاك البرقية فامر الجنرال غورو جيشه بالمسير الى دمشق بقيادة الجنرال غوايه يوم ٢١ تموز فسار الى البقاع واحتل ريباق واخذ بصعد الكات مجدل عنبر وكان الجيش العربي اتخذ له حصوناً في تلك الاكيات وكان تجمع بعض عامة دمشق وبضع مئات من البدو عسكر البيشة الحجازي واخذوا يخفون الى مقابلة الجيش الافرنسي الزاحف فوصلوا الى جبال ميسنون وفي يوم ٢٢ تموز خرجت كتيبة عربية من حصن مغيرة على الجند الافرنسي في تل كلخ فانهمزمت الكتيبة واخذ منها ١٥١ اسيراً بينهم ضابطان وثلاثة مدافع رشاشة .

وفي ٢٢ تموز اعلم الجنرال غورو الملك فيصل انه مستعدان يتوقف عن الزحف اذا قبل بمواد الانذار والشروط التالية (١) تنشر حكومة دمشق منشوراً كتب مسودته الفرنسيين وبينوا فيه السبب الذي حملهم على اعطاء الاوامر للجنود بالزحف على دمشق والسبب الذي توقف من أجله ذلك الزحف . (٢) الموافقة على بقاء الجنود الافرنسية حتى نهاية الخط الذي وصلوه وقتئذ ليوم تنفيذ جميع شروط الانذار . (٣) تسليم خط السكة الحديدية من ريباق الى التكية للفرنسيين وبقاؤه بأيديهم في هذه المدة . (٤) سحب جميع الفصائل الشريفة الى شرقي هذا الخط وجعل الدرك تحت رعاية الفرنسيين بالمنطقة التي تم احتلالها . (٥) لتوقف حكومة دمشق عن ارسال المعاونات للعصابات المنظمة التي تعمل في المنطقة الافرنسية . (٦) نزع السلاح من أهالي دمشق ومن الجنود الذين سرحوا . (٧) قبول بعثة فرنسية بدمشق تقف على صورة تنفيذ شروط الانذار ، وترسم خطة للباشرة بتطبيق الاندباب الافرنسي على الشام .

كان الجيش الافرنسي الزاحف على دمشق مؤلفاً من عشر كتائب مشاة وست
كتائب فرسان وسبع بطاريات من الجنود الافرنسية والسنغالية والمراكشية
والجزائرية والجيش العربي مؤلفاً من بضعة الوف ولكن على الورق لا بالفعل مشتتاً في
حلب وحمص ودمشق وليس له وحدة في القيادة وصدر الامر الى الجند المرابط في
حصون الجدل من الجيش العربي بالتسليم وفض الجيش ثم عاد فصدر الامر تائيداً
الى جماعة الحصون ان يبقوا على المقاومة ولم يكن عددهم يزيد على مئة وعشرين
جندياً واصبح الحكم في دمشق للوغزاء الذين كانت يحبسهم زعمائهم وهجموا على
القلعة لاختذ السلاح منها فنهبوا الذخائر فاضطرت الحكومة لحفظ الامن ان تستعمل
فيهم القوة فقتل منهم نحو مئتي انسان ويات الناس في كرب عظيم وهكذا
حدث تبليد ، ولم تصل برقية الملك فيصل الى المفوض السامي للجمهورية الافرنسية
بقبول شروط فرنسا كلها الا بعد ان تقدم الجيش الافرنسي ووصل الى
ميسنون من طريق دير العشائر الى الميلاس وقطع خط الرجعة على العرب فدارت
الحرب في عقبة الطين بين الجيش الزاحف وبين سرايا الجند العربي وجند البدو
والمتطوعة وكان الجيش العربي اربعائة جندي ومئتين من الهجانة بصحبهم واتباعهم من
الاهالي والهربان عدد يختلف بين الاربعة والخمسة آلاف على رواية الريحاني فقتل في
اربع ساعات بقنابل الطيارات وقذائف البنادق والرشاشات كثير من الفريقين وفي
مقدمة الوطنيين يوسف بك العظمة ناظر حربية الملك فيصل وكان من اكبر القائمين بالمقاومة
وعرف انه غلط في تقدير القوة وسبق السيف العذل بعد صدور امر الملك بفض الجيش
وتراجع القوة المنظمة في الجملة فآثر الانتحار في خط النار واستشهد في ساحة الحرب
محافظة على شرفه العسكري ، وقد قتل الجيش الزاحف طائفة من الاهالي الذين
حاربوه بعد ان سقطوا أسرى في يده لان قنوت الجندي يبيح قتل غير الجند اذا
اشتركوا في المعركة وفي رواية انهم اجبروا على الجرحى الوطنيين ايضاً وحفروا قبورهم
بايديهم قبل ان يرموا بالرصاص . وترك الجيش العربي في ساحة الحرب ١٥ مدفعاً
قبل ان بعضها كان معطلاً قبل ان ينصب في اما كنه و ٤٠ رشاشاً وذخائر كثيرة .
حدثني ثقة زار ساحة ميسنون غداة الواقعة رواية عن ضابط سنغالي برتبة وكيل

ان قتلى الوطنيين في ميسنون من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ وانه قال له الضابط : أقسم بالله انه لم يلوث احد السنغاليين يده بدم احد من الوطنيين . قال محدثي : ان كل من رآهم مجندين من قتلى الجيش الداخل هم من السنغاليين ليس فيهم احد من الجنس الابيض .

وعاد المهزومون من ساحة الحرب فدخل الجيش الافرنسي من الغد الى دمشق (٢٥ تموز) وابلغ رئيس البعثة الافرنسية الكولونيل تولا الملك فيصل ان يعادر دمشق عملاً بقرار حكومة الجمهورية باسرع ما استطاع في السكة الحديدية الحجازية مع عائلته وبطائه على قطار خاص أعارته اياه فأذعن وعين قبيل رحيله علاء الدين بك الدرزي رئيس وزارة على ان يختار بنفسه من يشاء من الوزراء ، اعطاه تقليد الوزارة قبل سفره ليملاها بالوزراء الذين يختارهم دليل الثقة به . فلم يلبث ان الف وزارته ومن الغد القى خطاباً في دار الحكومة حط فيه من كرامة ولي نعمته الملك فيصل فاشتمأ از باب الوفاء من مصانعته ، ولم يلبث ان أرسل اليه بريقة يقول فيها ان السلطة العسكرية تبلغ جلالكم انها تطلب خروجكم من حوران وانها وضعت تحت امركم قطاراً فان لم ننعوا ضربت قنابل طياراتها قري حوران .

سقطت دمشق يوم ٢٤ تموز بعد وقعة ميسنون ، وسقطت حلب يوم ٢٣ بيد الجنرال دي لاموت عقيب مناوشة طفيفة ، وحمص وحماة يوم ٢٨ منه بدون صعوبة فقبضت فرنسا على قياد المدن الاربع وحكم الديوان الحربي الافرنسي على ٥٨ رجلاً من الوطنيين اكثرهم من حاشية الملك وبعضهم من أهالي جبل عامل وتركت الحكومة المنندبة لهم المجال حتى انهمزوا ومنهم من لحق بالملك ومنهم من سار الى شرقي الأردن او فلسطين او مصر .

لم يسمع للعقلاء رأي قبيل هذه الحوادث ، وكثير منهم كانت يكم فكره لثلا يرمى بضعف الوطنية ، ومنهم من لم يسعهم السكوت فصرحوا وأذوا وهجوا ، ونال العامة منهم بايعاز الزعماء . ولكن كان اهل المصالح الحقيقية في البلاد يحاذرون التهور ، و يودون لو نثفاهم الحكومة الوطنية مع حكومة الانتداب ، ولطالما نصحوا سراً للقائمين بالدعوة الى الاستقلال ان يتروا في الامر ولا يعمدوا الى المقاومة الفعلية لاعتمادهم

مضرة ذلك وان يجعلوا سلاحهم المناقشة بالحسنى لئلا تنزل فرنسا المدت الرابع حرباً ، وان يقبل مستشاروهم وبعض مطالبهم الخفيفة ، وان يرسل الى باريس ولندرا وفد من ارباب المكنة والمعرفة يطلب شروطاً موافقة للاننداب في الشام وهو واقع لا محالة ، اذ ليس في يد الملك فيصل ولا في يد ابيه الملك حسين عهد وثيق من دول الحلفاء يثبت له او لايه ملكية الشام ، وغاية ما ربحه الملك حسين من اتحاده مع الحلفاء في الحرب استثنائه بملك الحجاز . وكان الحلفاء وعدوا ان ينجحوا العرب استقلالهم ويساعدونهم على نياله وبهذه الوعود انضم نحو ثمانين الفاً من العرب الى صفوفهم وقاتلوا معهم الاتراك بقيادة الامير فيصل الذي كانوا ينظرون اليه نظارهم الى قائد من قوادهم ، ولكن الحلفاء لما تم لهم الظفر لم يفوا بوعودهم على ما يرضي العرب . بعد وقعة ميسنون المحزنة فصلت إدارة البقاع وبعليك وحاصبيا وراشيا عن احكام المدين الرابع واستقل الجنرال دي لاموت باحكام حلب وديرالزور والاسكندرونة وظلت دمشق وحمص وحملة وحووران دولة ذات وزارة وكانت عجولون والصلت وعمان ومعان جعلت حكومة برأسها سموها حكومة شرقي الأردن ثم دعيت حكومة الشرق العربي بامارة الامير عبد الله شقيق الملك فيصل وهكذا دخلت المدين الرابع في الانداب الفرنسي كما دخل الساحل لاول عهد دخول الحلفاء منذ السنة الماضية . وخطب الجنرال غورو في دار الحكومة بدمشق ان فرنسا ما جاءت الى هذه البلاد مستعمرة وسترونها أمينة على نقاليدها ، راغبة في ان تضمن استقلالكم في عهد الوصاية الحر ، وقال : ان العصاة التي كانت تهاجم الجيش الفرنسي لم يكونوا من الاشقياء فقط بل كان يقودهم ضباط الجيش النظامي وتمد بالاسلحة والاعتماد والمال ومع ان فتكها لم يكن شديداً في جنود فرنسا فان أضرارها كانت عظيمة على الشعوب الغير المسلمة اذ هدمت بيوتاً ودمرتها تدميراً وأحرقت القري والديساكروتهب الاموال والمواشي وكانت أعمال الحكومة الشريفة الرسمية لا تقل بازاء فرنسا عداً عن أعمال عصاباتها اه . وكان نشر منشوراً في الطيارات على أهالي سورية قبيل وقعة ميسنون قال فيه : « قيل لكم ان فرنسا ترغب في استعماركم وانها تريد استعبادكم وما ذلك الا افك مبين . ان فرنسا قبلت الانداب التي عهد به اليها مؤتمر السلم على

سورية وهي عازمة على ان تدع الموظفين الوطنيين يزاولون أشغالهم بشرط ان لا يعملوا
بسلطتهم ضدها فيخونون هكذا العهود والمواثيق المقطوعة » .

* * *

تعريف الانتداب وسياسة } أما الانتداب فلفظ حديث يراد به الاشراف
الاتراك فيما يتعلق بالشام } او الكفالة وهو لا يخرج عن الحماية الا
باعتبارات قليلة . وقد جاء في صك عصبة الامم في تعريفه ان الشعوب التي جعلت
تحت حكم الانتداب المحدد والموقت والذي طلبوه من أنفسهم هم مستقلون وان
المنتدب عليهم هو المرشد الموقت ريثما يصبحون قادرين على حكم أنفسهم بانفسهم .
وقال بوانكاره من ساسة فرنسا : لسنا في الشرق لنضم بلاداً اليها ولا نضع حمايتها
وإنما نحن هناك بموجب انتداب تلقيناه من عصبة الامم تنفيذاً لمعاهدة فرساي .
وقال ديبوي من علماء القضاء في فرنسا : الانتداب اتفق ما جاءت به سياسة الحرب
العظمى فهو عبارة عن حماية مستترة . وفي المجلة النيابية ان مدة الانتداب تقسم الى
ثلاثة ادوار ابتداءً الدور الثاني في ٢٩ ايلول ١٩٢٣ وينتهي في ٢٩ ايلول ١٩٢٦
وهذا الدور يسمونه بدور تنظيم الانتداب وفي انتهاء الدور الثاني يجب ان يكون هناك
حكومات وطنية وعندها يدخل الانتداب في دور التصفية وبعد انتهاء الدور الثالث
للانتداب تعقد معاهدة تحالف موقته تقوم مقام النظام الحالي وتحدد بانساق مشترك
حقوق المنتدبين والمنتدب عليهم وسلطتهم وهذا يعد انتهاء للانتداب . ولم يحدد مدة
معينة للانتداب في سورية ولبنان وفلسطين .

جملت معاهدة صلح فرساي (١٩١٨) الانتداب ثلاث طبقات فمارم له
بحرف (ا) هو الانتداب الخفيف مثل انتداب فرنسا في سورية ولبنان والانتداب
البريطاني في فلسطين والعراق ويقضي على الدولة المنتدبة على هذه الاقطار ان تقصر
مهمتها على تقديم مساعدتها لها . ومن الانتداب ما رمز له بحرف (ب) وهو الانتداب
ببعض الشروط . ومنه ما رمز له بحرف (ج) وهو انتداب امة على بلادها تعدها
جزءاً من املاك الدولة المنتدبة . فجملت الشام من الصنف الاول من الانتداب اي
انه اعترف باستعدادها للاستقلال اذا دربت عليه زمناً .

قال الرئيس ولسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة في شروطه الاربعة عشر :
 أما الامم الاخرى التي هي تحت النير التركي فيكفل لها كيان آمن ويمكن لها حتى
 ترقى في استقلالها من غير ممانعة ، وقيل انه كان يضم ان يجعل الانداب على الشام
 للارجنين وعلى فلسطين للبرنقال ، وانه كان يؤثر ان يقوم بهذه المهمة دول بعيدة عن
 الوسط الاوربي بعيدة عن المطامع ، لها القدر المعلى في تمدن الشعوب ولكن هذا الرأي
 يصعب تحقيقه من وجوه . ولم يسمع ان احداً من اهل السلطات الاجنبية في الشام قال ان
 هذه البلاد غير مستقلة منذ سقطت في ايدي الحلفاء وقال احد كبار رجالهم ان ما
 عملته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي يتعذر جداً عمله في هذا القرن والناس هنا
 غيرهم هناك ، والاحوال في الشام غير الاحوال في الجزائر . وفي المادة الاولى من
 نص الميثاق الوطني التركي الذي تباع الاترك على العمل به بعد سقوط الدولة العثمانية
 ما نصه : ان البلاد التي تسكنها اكثرية عربية من بلاد المملكة العثمانية تلك البلاد
 التي كانت تحتلها الجيوش الحاربة حين عقد الهدنة في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ينبغي
 ان تعين هي نفسها مصيرها باستفتاء الرأي العام فيها استفتاءً حرّاً . وهكذا كان كرم
 الاترك مع اخوانهم العرب اجازوا لهم ان يعلنوا استقلال الشام عند آخر ساعة من
 سقوط عاصمة البلاد بيد الحلفاء ورضوا لهم ان يعينوا مصيرهم بانفسهم في ميثاقهم
 الوطني وهم يومئذ لم يكونوا يملكون لانفسهم حولاً ولا طولاً ، ولما عرضت المسائل
 العثمانية على بساط البحث في مؤتمر لوزان لم يجز ذكر الشام الا من حيث الحدود التي تم
 الاتفاق عليها بين فرنسا وتركيا بصورة لاتزال سرية عرف منها انه اقتطع جزء عظيم
 من النجوم الشمالية في الشام اضيفت الى آسيا الصغرى بدون حق . وهذا والاتراك
 كانوا ظافرين باعدائهم اليونان الذين كانوا استولوا على معظم ولايات ادرنة وازمير
 وبروصة بعد الحرب العامة فقويت جمهورية تركيا التي جعلت مقرها في انقره بدلاً
 من الاستانة وهزمت جيش اليونان شرهزيمة وذلك في شهر آب ١٩٢٢ فاخذ الاتراك
 من اليونان ٤٥ الف اسير وقتلوا اكثر من ١٥٠ الفاً وقتل الاتراك اليونان في بلادهم
 ما خلا الاستانة قتلاً عاماً وكان ظفراً داوى به الاتراك جراحهم بعد هزائمهم في
 الحرب العالمية .

نصت المادة ٩٤ و ٩٥ من معاهدة الصلح التي عقدت في مدينة سيفر يوم ١٠ آب ١٩٢٠ بين الحلفاء والمشاركات معهن من الدول وبين الدولة العثمانية ان المتعاقدين على اتفاق بان الشام والعراق وفلسطين عملاً بالفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من الجزء الاول (عهد جمعية الامم) انه معترف بها مؤقتاً دول مستقلة على شرط ان تبذل لها النصائح والمعونة من دول مندوبة عليها نقودها في ادارتها الى الزمن الذي يستطعن ان يسرن بانفسهن وان المنذب على فلسطين يكون مسؤولاً عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة بريطانيا يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ووافقت عليه الدول المحالفة بشأن تأميمس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على ان لاتمس الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ولا تمس الحقوق والانظمة السياسية التي يستفيد منها اليهود في كل بلد . وكان الحلفاء تفاوضوا مرات بشأن الشام فأرأوا ان تكون فلسطين دولية ولكن الاتراك لما هاجموا ترعة السويس عرف الانكليز مكانة هذا القطر الحربية فأرأوا ان يجعلوها مخدراً لمصر ويفصلوا بين عرب الشام وعرب مصر فاخذوا يطالبون بحيفا وعكا ثم بفلسطين كلها وتعهدوا لليهود ان يجعلوها لهم وطناً قومياً وتعهد الحلفاء تعهدات مبهممة بشأن الشام حتى يعاونهم برجاله ونفوزه .

غادر الملك فيصل دمشق في زمرة من عماله	} تأثر الحورانين بعوامل الفيصليين ومقتل وزيرين وقتل اليهود في فلسطين
واكثرهم من السوريين ، وخرج من الجنوب	
غداة جاء الجيش الفرنسي من الغرب ،	

فاخذت الحكومة المحتلة تجمع السلاح من البادية والحاضرة ، ووضعت على المدف الاربع غرامة حربية قدرها مئتا الف ليرة عثمانية ذهباً ، ولكن اهل حوران لم يخضعوا للامر ومردوا على الحكومة وبث فيهم بعض اعوان الملك فيصل فكر الثورة ، فرأى رئيس الوزارة علاء الدين بك الدروبي ان يذهب بنفسه لالقاء النصائح عليهم مستصحباً معه وزيرين من وزارته احدهما عبد الرحمن بك اليوسف رئيس مجلس الشورى ومن كبار اعيان دمشق ، فهاجم بعض الحوارة في محطة خربة الغزالة وانزلوهم من القطار وقتل الدروبي واليوسف بايد ائيمة ، وقتل بعض ركاب القطار ، مع ان رئيس الوزارة

كان عارفاً بأفكار الحوارنة من جهة حكومة دمشق ، ووصمهم لها بالخيانة لانها سلمت البلاد للاجانب . وانجحت وقعة حوران عن جمع غرامة قدرها مئة وعشرون الفليرة عثمانية ذهباً منها دية الوزيرين لكل من أسرتها عشرة آلاف ليرة وحكم على بعض المتهمين بمقتل الوزيرين فزادت حوران لذلك خراباً فوق خرابها .

وفي آب ١٩٢٠ زار المندوب السامي في فلسطين السير هربرت صموئيل الشرق العربي ومما قاله في خطاب له في الصلت : ان الحكومة الفرنسية كررت تأكيداتها بانها لا تريد ان تتدخل باي شكل كان في شؤون هذه المقاطعة وبما ان الحكومة الفرنسية قد عززت نفوذها في دمشق فقد اصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن ادارة دمشق . تسألوني عن نوع المساعدة التي تريد انكثرتا ان تقدمها لكم فاجيبكم انها لا تريد ان تضمكم الى الادارة الموجودة الآن في فلسطين بل ننشيء لكم ادارة منفردة تساعدكم على ان تحكموا انفسكم بانفسكم ، وسترسل اليكم عدداً قليلاً من الضباط السياسيين ورجال القضاء ذوي الخبرة الواقفين وقوقاً تاماً على اللغة العربية واحوال الشعب العربي فيسكنون البلدان الكبرى في هذه المقاطعة وانتم تعرفون اكثرهم شخصياً وسيساعدونكم في تنظيم الدفاع تجاه اي هجوم خارجي ولنظيم الشرطة لصيانة الامن في الداخل وترقية التجارة وتأييد العدالة وانفاق ما تدفعونه من الضرائب بامانة تامة على مصالحكم واحتياجاتكم ويستشيرونكم في الغاية التي تدفع لاجلها الاموال واصلاح الطرق وترميمها وانشاء المدارس وتقديم المعاونات الصحية . الى ان قال : وستكون التعليمات العمومية التي ترسلها الحكومة البريطانية الى موظفيها هنا مبنية على قاعدة مساعدة اهالي البلاد ليحكموا انفسهم بانفسهم ، فراعاة هذه المبادئ المؤسسة على العدل والشرف اللذين تمتاز بهما الادارة البريطانية في جميع انحاء العالم هي الاسس الصالحة لكل حكومة صالحة . وفي كتاب «امان في عمان» : وقدقوبل هذا البيان من اهالي المنطقة بفتور دل عليه ان زعماءهم جمدوا بعد ان سمعوه جمود الخيرة لا يدرون امرأر يدبهم ام اراد بهم ربهم رشداً . . . ولما سئلوا عما يجول في نفوسهم وقف احدهم وقال : يظهر ان ابرياء عدلت عن فكرة اعتبار الكفاآت في الامم ورجعت الى القرعة فهي بينما تمنع سورية ولبنان وفلسطين الاستقلال تعترف به شرقي الاردن ١٠٠٠

واشتد الهياج بين الصهيونيين واعدائهم من سكان البلاد في حيفا في نيسان ١٩٢٠ ونشبت الفتنة في القدس سفكت فيها الدماء ونهبت مخازن اليهود ولولا مهارة الادارة البريطانية لامتد لهيب العداة الى سائر مدن فلسطين لما ملئت به النفوس من الغيظ من الصهيونية والصهيونيين .

استقلال لبنان وحكومة العلويين
ومجلس فلسطين ودولة شرقي الاردن
ودولة جبل الدروز وخراب البلاد
واقسيمها

وفي اول ايلول ١٩٢٠ أعلن استقلال
لبنان في حرج بيروت بحضور الجنرال
غورو وأعيان البلاد ، وأضيف الى
لبنان الاصلي الذي عرف بمحدوده

بعد سنة الستين جبل عامل ووادي النيم والبقاع وبعلك وطرابلس وعكار والحصن
وصافيتا فاحتج فريق من أهالي بيروت وطرابلس مع بقية البلدان المنضممة من الداخل
الى متصرفية جبل لبنان قائلين ان هذا الضم جرى بدون رضا الاهالي وبغير استفتاء ،
وان ذلك مخالف لتصریحات وزارة الخارجية في فرنسا وبريطانيا القائلة بان البلاد
التي انسحقت عن الدولة العثمانية مستقلة وللاهابي الحرية التامة في تقرير مصيرهم
وتأسيس حكوماتهم الوطنية ، وان الحلفاء لا يريدون سكنا تلك البلاد على قبول
نظام معين .

وجعل للبنان حاكم فرنساوي ، لان فرنسا رأت ان الاختلاف بين طوائفه لا يمكن
معه ارضائهم كلهم ، اذا عين أحد أبناء الطوائف الاخرى حاكماً ، فعادت نقمة
الطائفية الى الجبل بصورة أشد مما كانت على عهد الترك وقسمت مقاعد الحكم على
الطوائف ، وأقيم للبنان الذي دعي لبنان الكبير مجلس نيابي تُنفذ المفوضية العليا
للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان ما تراه صالحاً من مقرراته ، وقسم لبنان الى
ألوية وأقضية يدير شؤونها موظفون وطنيون و يدير الحكومة المركزية في بيروت
عدة مديريين او وكلاء او وزراء يتقلد زمامها الوطنيون ، ولكل مدير منهم مستشار
افرنسي . وتمت للموارنة في لبنان أمنيتهم التي طالما تشدوها من حكم فرنسا لهم ، ونجحت
الشام من تهديد بطريركهم وكانت اتدبته طائفته الى مؤتمر الصلح لينظر في استقلال

لبنان ، فقال ، وقد هدد بان لبنان يبقى محصوراً في حدوده القديمة اذا أصر على الرفض :
« اننا نفضل الموت جوعاً في ظل صخورنا على ان نكون تابعين لدمشق » .

واقطعت بلاد النصرية وأصبح يقال لها بلاد العلويين جعلت حاضرتها اللاذقية وحاكمها فرنساوي وإدارتها اشبه باننداب الدرجة الثانية ممارمز له بحرف (ب) وكان تقسيم البلاد على هذا المنوال مبدأ خرابها الاقتصادي بل من أهم العوامل فيه فاضطرت الى تأليف عدة وزارات ومجالس وإدارات ومنها ما لا عمل له في المواقع ونفس الامر الا قبض الرواتب من مال المكلفين ، وشوهد الاسراف في اموال الحكومة على مقياس واسع وقد حاولت الحكومات غير مرة ان تقتصد وما برحت الاموال تصرف في الامور المستهلكة اكثر من الامور المستحصلة ولا نسبة بين رواتب كبار الموظفين وصغارهم .

وفي تشرين الاول ١٩٢٠ انتخب في فلسطين مجلس شوري مؤلف من عشرين عضواً نصفهم من رجال الحكومة والنصف الآخر نصبتهم الحكومة ، وهم اربعة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين وثلاثة من الاسرائيليين ، ووظيفة هذا المجلس استشارية فقط . فقامت فلسطين مسلوها ومسيبونها محتجين على هذا المجلس . وفي تشرين الثاني ١٩٢٠ قدم الى عمان الامير عبد الله بن الملك حسين ملك الحجاز لاسترجاع دمشق من فرنسا وإرجاعها الى السلطة الشريفة فأرضته بريطانيا ان جعلته اميراً على بلاد عبر الاردن على ان لا يمس أراضي الانتداب الافرنسي باذى ، وقد حدثت بعض حوادث على التخوم بين حوران والبلقاء وتآلفت هناك عصابات لغزو الاراضي التي جعلت تحت الانتداب الافرنسي وبعد ان قصدت احدى العصابات اغتيال الجنرال غورو المفوض السامي في ٢٣ حزيران ١٩٢١ على ٤٠ كيلومتراً من دمشق في طريق القنيطرة ، ولم ينالوه باذى بل قتل أحد ضباطه ، طوي بساط العصابات والمؤمرات وكان امر هذه العصابات مما دبر في الشرق العربي .

وفي الخامس والعشرين من حزيران (١٩٢١) أعلن استقلال جبل الدروز وكان من قبل بين تاملين العامل البريطاني والعامل الافرنسي فلما جاء الجيش الافرنسي الى دمشق كان من أهل الجبل من يرحبون بالفرنساوين فنالوا استقلالهم (٥ نيسان ١٩٢١)

وأصبحت بلادهم وهي نحو مائة وخمسة عشرة قرية دولة برأسها جعلت السويداء عاصمتها ، ونصب على الجبل امير من أهله ومستشار فرناوي ، فانزعج أيضاً من حكومة دمشق التي جعلت دولة لها حاكم ، وذلك بعد اربعة أشهر من استلام الفرنسيين زمام الامر في دمشق ، وجعل لهذه الدولة مديرون بدلاً من وزراء وجعل لكل من دولة لبنان الكبير ودولة العلويين ودولة حلب ودولة دمشق ودولة جبل الدروز الواقعة تحت الانتداب الافرنسي علم خاص لكل دولة منها ، يحمل في مطاويه العلم الافرنسي المثلث الالوان ، كما جعل لفلسطين علم آخر واقتصر شرقي الاردن على العلم العربي ، وبذلك أصبحت الشام سبع دول وكانت على آخر عهد الترك ثلاث ولايات (دمشق وبيروت وحلب) وثلاثة ألوية مستقلة (القدس - لبنان - ديرالزور) .

متاعب لبريطانيا وفرنسا } وفي شباط ١٩٢١ عقد مؤتمر في حيفا مؤلف من
رجال فلسطين مسلمين ومسيحيين نظم احتجاجات
واعتدات }
على وعد بلفور وطلب تأليف حكومة وطنية وانتخاب جمعية تأسيسية ينتخبها السكان العرب . وفي ١٥ آذار خرج الزعيم السيد فؤاد سليم من اربد في مائة وعشرين فارساً للقبض على بعض الاشقياء من عرب الشقيرات وعلى كليب الشريدي وولده عبدالله وابن أخيه رشيد الجروان الشريدي من زعماء الكورة في جبال عجلون فأحاطت بالقوة العسكرية أهالي ست قرى بقيادة كليب الشريدي وابنه وساعدتهم الغصابات ووعورة الاراضي وسقط ربع الجنود بين قتيل وجريح وفقد ثلث الخيل ثم استسلم الباقون للعرب الثائرين الذين سلبوا الضباط والعسكر عتادهم واسلحتهم والبستهم . قال الزعيم المشار اليه : وقد توفقتنا بعد سنتين من هذه الحادثة المشؤومة للتغلب على أهل الكورة والاقتصاص منهم ففضينا على روح الثورة وأرغمناهم على احترام الحكومة الوطنية وخسرت الكورة في ثورتها الثانية خسائر كبيرة وذل أهلها بعد ان كادت روح التمرد التي نشرها كليب الشريدي في رجال قومه ان تنفخ في عجلون ايضاً وفي سائر الجزء الشمالي من الشرق العربي روحاً من التصدي للحكومة والاستخفاف بها .

والتي المندوب السامي في فلسطين في ١٨ نيسان ١٩٢١ خطاباً في عمان حاضرة الشرق العربي ومما قال فيه ان الحكومة البريطانية تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في الحرب وترغب في ان تثوِّط في زمن السلم دعائم التحالف الذي بني في خلال الحرب. وقال : يساعد الضباط البريطانيون منذ شهر آب الماضي في إدارة شؤون البلاد الواقعة وراء نهر الاردن وسيواصلون العمل بصفتهم مستشارين بالنسابة عني للامير عبد الله وموظفيه في انحاء البلاد المختلفة . وقال ان الضباط البريطانيين الذين يقومون بهذه المهمة في جميع انحاء المنطقة يعطفون على السكان وعلى آداب اللغة العربية وان الحكومة البريطانية عولت على ان لا تكون البلدان الواقعة فيما وراء نهر الاردن مركزاً للعداء سواء ضد فلسطين او سورية .

وفي أول أيار ١٩٢١ نشبت فتنة بين الصهيونيين وأبناء البلاد في يافا انجحت عن قتل ٤٨ رجلاً من العرب وجرح ٧٣ منهم وقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ . وفي سنة ١٩٢١ دخل الاتراك الى عينتاب وأخرجوا الكتائب الافرنسية منها بعد حرب شديدة وقتل منها أناس وباغت عربان الزور الفرقة الافرنسية والسورية وقتلوا بعض ضباطها فحلَّ بهم العقاب، فتخلت فرنسا عن قلقية باجمعها وانحصرت قوتها بالشام من حدود كليس في الشمال، وكانت العصابات مؤلفة من بعض الاشداء من أبناء البلاد في جهات حارم وكفر تخارين وادلب وجبل الزاوية والمعرة وصهيون ثقاوم الجيش الافرنسي وجرت بينها وبينه معارك هائلة قتل فيها كثير من الفرقيين وكان بعض رؤساء تلك العصابات من الاتراك .

وقد فقدت فرنسا من جندها هناك وهنا بضعة الوف وقال الجنرال ويفاندي المفوض السامي للجمهوريه الافرنسية في حفلة ازاحة الستار عن النصب التذكارى الذي أقيم لقتلى جيش الشرق في بيروت سلخ ذى القعدة ١٣٤٢ (حزيران ١٩٢٤) : بعد الهدنة سكت المدفع في اوربا الا في الشام وكانت الامهات الافرنسيات يعتقدن بانهن سيشاهدن اولادهن الى جنهن فاضطرت فرنسا الى ارسال اولادها الى ساحات القتال في مرعش واورفة وميسنون حيث تم تحرير سورية بقيادة سلفي الجنرال غورو وقد بلغ عدد القتلى نحو تسعة آلاف و ٢٥٠ ضابطاً فيمكن ان تذكروا اولادكم

واولاد اولادكم بذلك اه . ولم يقتل هذا العدد في ارض الشام بل معظم من قتل
في قبليية .

نوحيد حكومات سورية } لم يرتض اهل الداخل وفريق عظيم من سكان
وعدم رضى الاهلين } الساحل هذا التمزيق الذي حل بالشام ، فكثير
الناقمون والناقدون ، وزعم بعض ولاة الامر من المنتمين ان هذا التقسيم كان يرضى
الاهلين ونزلت فرنسا على رغائبهم وبعد التجربة الاولى رأت المفوضية العليا ان تعيد
المدن الاربع الى جمعها بعد الشتات فاعلن الجنرال غورو في اليوم العشرين من حزيران
١٩٢١ في دمشق اساس الوحدة السورية باثناء مجلس اتحادي لها مؤلف من دول
العلوبين وحلب ودمشق فقط ، على ان يكون اساساً للوحدة والتي خطاباً مثل خطاب
دمشق في مدينة حلب يوم ٢٨ منه بحضور مندوبي الدول الثلاث ومما قال فيه : وكان
العمل الاول الذي قامت به فرنسا لتوطيد اتحاد كوحريتم الوطنية تأسيس الحكومات
المستقلة وكانت الغاية من ذلك مراعات النزعات الخاصة ووضعها في قالب يتألف منه
مجموع متناسب الاجزاء . قال ولم يفتني قط وجوب احكام الصلات بين هذه الدول
التي ينبغي ان يولف مجموعها سورية المستقلة اي سورية التي طالما رغبت فرنسا في
انشائها قال : والواجب اولاً تنظيم هذه الدول ومنحها قسطاً اوفر من الحرية ، وتأسيس
صلة اتحاد بينها ، ولا اذكر لبنان بين دول الاتحاد لان تقاليد الحصوصية تقضي عليه
بالسعي على انفراد وراء التقدم وبمشاركة قليلة في الاتحاد السوري لا نتناول الا
الوجهة الاقتصادية دون سواها ، الى ان يقرر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الاتحاد .
وبدي من قابل يجعل بعض فروع الادارة اتحادية كالبريد والبرق والعدلية
والمعارف العالية والتعليك وجعل للاتحاد مجلس مؤلف من خمسة عشر عضواً خمسة
عن كل دولة ، واجتمع المجلس في حلب في السنة الاولى وفي الثانية نقل مقره الى
دمشق بصورة دائمة ، ويختار هؤلاء عضواً رئيساً من بينهم فعين لهذا الغرض
السيد صبيحي بركات الخالدي واختار لدوائر الاتحاد مع العرب جماعة من الاتراك
والارمن والروم فتأثر الوطنيون لذلك لان اللغة العربية لغة البلاد لم تُرغ لها حقوقها

وحرم الوظائف بعض اهل البلاد وتولاها بعض من ليس لهم بهذه الارض صلة ، ولا بالعرب والعربية قرابة . وفي خريف ١٩٢٢ ذهب الى انكلترا الامير عبد الله بن الحسين امير شرقي الاردن وفي ١٧ ايار عزمت بريطانيا العظمى ان تعترف باستقلال بلاده الواقعة في عبر الاردن وان تجعل لها حكومة دستورية وتعقد معه اتفاقاً على ان تُعهد حكومته بالاعتراف بالحقوق الدولية . وانشأت حكومة الشرق العربي تمنح لقب باشا لمن تريد تشریفهم او تأليف قلوبهم من المشايخ وغيرهم والتف حول امير تلك البلاد بعض جماعات من الوطنيين الذين كانوا اشغلوا مع اخيه الملك فيصل في دمشق ولم يلبثوا ان انفصوا من حوله بطرق اتخذتها حكومته ، وكان ينقاضي لها معاونة سنوية من بريطانيا ١٥٠ الف جنيه ولنقافته الخاصة ٣٥ الفاً من الجنيهات ثم انزلت المعاونة الى ٨٠ الفاً ومخصصاته الى عشرين الفاً .

وفي صيف سنة ١٩٢٣ كثر اعتداء دروز الشوف على جيرانهم المسيحيين في لبنان واغتيل بعضهم ، فقابلهم المعتدى عليهم بالمثل ، واختل الامن في اواسط لبنان وكاد يتعدى الى بلاد بعلبك ، فمئيت حكومة الاندباب بجمع السلاح من الايدي وعاقبت الفاعلين ، ووضعت غرامات على بعض القرى التي خالفت اوامر الحكومة فاستقامت الامور .

وفي سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ كثر اغلاق الحوانيت في دمشق وحمص وحماة احتجاجاً على كثرة الضرائب ، وتقريب بعض اشخاص من الحكومة المنندبة يوسعون مجال الخلف بين المنتدبين والمنندب عليهم ، ويسودون الناس بوشاياتهم للاحتفاظ بكراسيهم واغلقت دمشق خمسة عشر يوماً متتابعة احتجاجاً صامتاً على انتخاب اعضاء المجلس التمثيلي بالاكره واستعمال الحكومة وسائط الارهاب في المدن والقرى .

وجاء في معاهدة لوزان (٣٠ شباط و ٢٤	} صك الاندباب وموافقة الدول الكبرى عليه واشكال جديدة من الادارة
تموز ١٩٢٣) التي عقدت بين الدول	
وبين تركيا ان الحدود التركية السورية	

قد ذكرت في المادة الثامنة من الوفاق الافرنسي التركي المؤرخ بيوم عشرين تشرين

الاول ١٩٢١ — والغالب ان هذا الاتفاق المعروف باتفاق فرانكلين بوبون ولم ينشر للناس خلافاً لما ادعته السياسة في العهد الحديث بعد الحرب من انه لاتعقد بين الدول محادثات سرية بعد الآن — واثبت مجلس جمعية الامم في جلسته المنعقدة يوم ٢٩ ايلول ١٩٢٣ ان الانتداب على الشام (سورية ولبنان) والانتداب على فلسطين قد دخلا كلاهما في دور التنفيذ ، وقد جاء في المادة الاولى من هذا الصك ان الدولة المنتدبة تضع نظاماً اساسياً لسورية ولبنان في خلال ثلاث سنوات تبدي من تاريخ الشروع بتطبيق الانتداب ، و بعد هذا النظام الاساسي بالاتفاق مع السلطات الوطنية ، وينظر فيه بين الاعتبار الى حقوق جميع الاهليين في الاراضي المذكورة ، والى مصالحهم وامانهم ، و ينص فيه على اتخاذ التدابير التي من شأنها ان تسهل لسورية ولبنان سبيل النمو والتقدم المتوالي كدولتين مستقلتين ، وتسير ادارة سورية ولبنان طبقاً لروح هذا الانتداب ريثما يشرع في تنفيذ النظام الاساسي ، وتؤيد الدولة المنتدبة الاستقلال الاداري المحلي فيها ، بكل ما تسمح به الاحوال . وجاء في المادة الثانية انه يمكن للدولة المنتدبة ان تبق جنودها في الاراضي المار ذكرها لاجل الدفاع عنها ، ويمكنها ايضاً الى ان ينفذ النظام الاساسي ويعاد الامن الى نصابه ان تنظم القوات المحلية اللازمة « المروفة بالميليس » للدفاع عن تلك الاراضي ، وان تستخدمها في هذا السبيل وفي حفظ النظام ، ولا يجند افراد القوات المذكورة الا من اهل الاراضي المذكورة ، و بعد ذلك تصبح تلك القوات تابعة للسلطة المحلية مع الاحتفاظ بما يجب ان يبقى للدولة المنتدبة من حق السلطة والمراقبة عليها ، ولا يجوز استخدامها لغايات غير التي تقدم ذكرها الا بترخيص من الدول المنتدبة . وما من شيء يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في الاذاني على القوة العسكرية النازلة في اراضيها من قوات الدولة المنتدبة ، ويحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستخدم المواني والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات في سرورية ولبنان لنقل جنودها وجميع المعدات والمؤن ومواد الوقود . وفي المادة الثامنة ان الدولة المنتدبة تضمن للجميع حرية الضمير التامة كما تضمن حرية القيام بجميع العرائر الدينية التي تُنفق مع النظام العام والآداب ولا يجوز ان يتبع شيء من التمييز واطفاء المساواة بين سكان سورية ولبنان بسبب اختلاف الجنس او الدين او اللغة

وتقوم الدولة بانماء التعليم العام باللغات الوطنية الشائعة في اراضي سورية ولبنان .
وعقد مؤتمر في الكويت في خريف سنة ١٩٢٣ لتسوية الحدود بين سلطنة نجد
والعراق وشرق الأردن والحجاز وكان مؤلفاً من مندوب من كل هذه الدول مع
مرافق انكليزي للسهر على مصالح بريطانيا ثم تأجل اجتماعه في كانون الاول ١٩٢٣
واستؤنف انعقاده في شباط سنة ١٩٢٤ فادى الموقف الذي وقفه الملك حسين صاحب
الحجاز يومئذ الى فشل المفاوضات . وصادقت الولايات المتحدة (١٩٢٤ - ١٣٤٣)
على صك الانتداب الافرنسي في سورية ولبنان الذي وضع موضع التنفيذ منذ ٢٠
ايول ١٩٢٣ وقد جاء في المادة الخامسة منه للاميركان الحرية التامة في اثناء المعاهد
والصروح والملاجيء العلمية والدينية والفنية في جميع اراضي الانتداب الافرنسي مع
التعليم باللغة الانكليزية ولم تعترف الولايات المتحدة بالانتداب البريطاني الا في
اواخر شباط ١٩٢٥ مشترطة ان يكون للرعايا الاميركانيين مثل الحقوق التي
لرعايا الانكليز .

طبقت مواد الاتحاد في حلب ودمشق بعض الشيء مع وجود الدولتين دولة حلب
ودولة دمشق ، اما دولة العلويين فلم تتحد بغير الامور العدمية . وفي يوم ٢٦ حزيران
١٩٢٤ (٤ ذي القعدة ١٣٤٢) أعلن المفوض السامي الجنرال ويغاند في حديقة الامة
بدمشق الوحدة السورية وتألّف الدولة العربية السورية من حكومتي حلب ودمشق
فقط ، فخرجت دولة العلويين ودولة جبل الدروز كما خرجت دولة لبنان الكبير بالطبع
من باب الوحدة ، فأصبح بذلك عدد دول الشام ستاً بدلاً من سبع اي ان المدت
الاربع عادت فألفت حكومة واحدة على نحو ما كانت زمن الحكومة الفيصلية ولكن
بتشذيب بعض أطرافها اذ نزع من جسمها دولتا الشرق العربي وجبل الدروز وخطب
القائد قائلاً : ان هذه الدولة الجديدة النخورة بماضٍ يحوي أعظم ما نظره الشرق
والتي ستضم اليها أهم مدت الاسلام التي كانت منبع الترتي الفكري في جميع
الازمان . . . ان مثل هذه الدولة تقدر ويجب ان تكون في الشرق الاوسط مركزاً
مشعاً وجذاباً . والسلطة التشريعية تكون بيد مجلس نيابي والسلطة الاجرائية تسلم
الى شخص يدعى رئيس الحكومة السورية بالانتخاب ويكون له مجلس وزراء يجتمعون

تحت رئاسته يكون كل واحد من هؤلاء الوزراء مسؤولاً شخصياً عن دائرته أمام مجلس الأمة .

وفي حزيران ١٩٢٤ (ذي القعدة ١٣٤٢) القى أحد رجال بريطانيا بياناً قال فيه : ان مهمة بريطانيا في فلسطين هي انشاء وطن قومي لليهود من ناحية وصيانة مصالح السكان غير اليهود من ناحية أخرى ، وقد سعت بريطانيا لمعاملة السكان على قدم المساواة ، ولكنها صادفت متاعب كثيرة بالنظر لعدم تجانسهم ، وانشأت إدارتين مختلفتين احدهما في غربي الاردن حيث يوجد الوطن القومي لليهود والآخر في شرقي الاردن حيث للعرب الاغلبية ، ولكنها تسعى دائماً الى التوفيق بين مصالح اليهود والمسلمين .

غزوة النجديين عبر الاردن } حكومة عبر الاردن او شرقي الاردن او الشرق
 واستيلائهم على مكة } العربي هي بمثابة حاجز يمنع فلسطين من اعتداء
 البادية ، وقد كثرت اعتداءه عرب البلقاء وما اليها مثل عشائر الحويطات وبنو عطية
 على تجار نجد يسلبونهم بضائعهم وجمالهم ، وشكت حكومة السلطان عبد العزيز بن
 سعود صاحب نجد الى حكومتي الحجاز والشرق العربي فلم يسمع لها شكوى ، فأرسل
 صاحب نجد نحو الف وخمسمائة مقاتل من رجاله في ١٠ آب ١٩٢٢ وهاجموا ام
 الممد في البلقاء ، وقتلوا أهل الطنيب وأعمالوا السيف والنار في عرب بني صخر
 واشترك الأديب من عرب البلقاء في قتال النجديين ، وتلاحقت أنغاز بني صخر
 ورجالهم من العيسى والزبن والخريشة ، وجاء بعض بني حميدة النازلين الى الجنوب
 الشرقي من مادبا حتى وادي الموجب ، واشتركوا في رد هجمات الوهابيين أهل نجد
 فزاحوم الى بئر عمري وهناك تشرذوا في الاودية والتلال ، وقيل انه قتل منهم
 نحو ثلثمائة وقتل من أهل الشرق العربي كثيرون وقد تأثرت الدبابات الانكليزية
 الوهابيين الى عمري فعادوا وجنودها يزعمون انهم لم يهتدوا الى الطريق . وجاء
 النجديون ثانية بقيادة درزي بن دغمي السمي زعيم الرولة المتديبة ، وأغاروا على عرب
 الحويطات في وادي موسى ، وعلى أطراف معان ، ونشبت معركة ألبى فيها الحويطات

بلاء حسناً وعاونهم بعض بني عطية النازلين حوالى معان الى تبوك ، وجاء النجديون في ١٤ المحرم ١٣٤٣ الى الكاف (قريات الملح) الواقعة على الحدود بين نجد والشام في ٢٢٠٠ مقاتل ٢٦٠٠ مقاتل كما قدرتهم حكومة الشرق العربي واستولوا في طريقهم على الكاف واخذوا حاميتها وهي أربعون جندياً وضابطان وقتلوا المفزة البريطانية النازلة في محطة الطيران في الزبء وعددها اثنا عشر جندياً وضابطاً ، ووصل الجيش الى مضيق رأس العين محلة عمان ، فخرج أهالي الصلت وعمان ومنهم شراكس وششن من النازلين في قرى الناعور وعين صولح ووادي السيرا شركوا مع الجند العربي في القتال من الصباح الى العصر حتى تراجع النجديون الى محل يبعد ثلاث ساعات عن قصر المشتى لجهة الشرق وكان تأثير الطائرات البريطانية في النجديين كثيراً حاجت لاصوات قنابلها ابلهم ، وقد قتل النجديون من قابلهم بالسلاح من أهالي الزبء والهن وام العمدة والطبيب والقسطل ومادبا وبادودة والرجيب وسحاب والموقر وعمان ، وادعت حكومة الشرق العربي أن النجديين خسروا الف قتيل وجريح على اقل تعديل وأن عدد قتلى عرب المنطقة مادبا وعمان لا يتجاوز المئة والعشرين وان خسائر الجنود والبدو المرافقين لم بلغت عشرين رجلاً وامرأة ، وقد عزز الجيش البريطاني في فلسطين قوة الشرق العربي باربع دبابات وستائة جندي . وقال العارفون من الاهلين أنه قتل من أهالي المنطقة نحو ستائة ولم يتجاوز قتلى النجديين المئة وأربعين قتيلاً وأن قتلى بني صخر فقط ثلثائة قتيل . وبنو صخر هم المقصودون من هذه الغزوة لان اعتداءاتهم على تجار نجد كثيرة وقد عاونهم العيسي والزبن والخريشة والحديد والجمجمة والدعجة وذكروا انه كان في جملة النجديين كثير من عرب حرب النازلين بين الحرمين لانهم مغاضبون لملك الحجاز فالتحقوا بالاخوان نكابة به . وذكر بعض الواقفين على مجرى السياسة ان الجنيهاً الانكيزية وجدت بكثرة في جيوب الاخوان الذين غزوا بلاد الاردن للمرة الاولى وان حملتهم لم تنقصد نحوها الا بعد زيارة المستر فيلي المنسوب الانكيزي في الشرق العربي لبلاد نجد . وفي اليوم الاول من كانون الثاني ١٩٢٥ (١٣٤٣) اعلنت الوحدة بين دولتي دمشق وحلب فقط وعينت الوزارة برئاسة صبحي بك بركات الخالدي على ان لاتسأل وزارته أمام مجلس النواب

شأن سائر الوزارات في العالم ولا تسأل الوزارة عما نفعل وتستمد قوتها من المفوضية العليا والمستشارين القول الفصل في كل الامور ، وهكذا الحال في نظار لبنان الكبير فم غير مسؤولين الا عند المفوضية العليا .

وأعلن الجنرال سارايل المفوض السامي الجديد يوم وصوله الى بيروت اول هذه السنة إخراج الحاكم الافرنسي الذي كان يتولى لبنان الكبير وان يباشر المجلس النيابي اللبناني بانتخاب حاكم وطني فاختلفت آراء النواب فخل المجلس وبوشر انتخاب جديد ، وأخذ التعصب الديني بعض نواب الامة اللبنانية فأثروا حكم غريب على واحد من قومهم معها كانت نحلته ، اما حاكم العالوبين فقد ظل افرنسياً ، ومن المظاهر الغريبة ان تستحکم اللغة الافرنسية في مجلس لبنان الكبير استحكام اللغة التركية من مجلس وزراء سورية وان يعد بعض ادلك النواب والوزراء الفرنس والتترك من امارات الظرف والفضل في بلاد أرضها وسمائها عربيتان ، وهي مستقلة بالاجماع ، واللغة اول اداة في ادوات الاستقلال وحجر الزاوية في بنيانه .

وفي كانون الثاني ١٩٢٥ (رجب ١٣٤٣) رأى بعض المفكرين في حلب وحماة وحمص ودمشق ان الوقت ملائم لعرض مطالب الساميين على المفوض السامي الجنرال سارايل الذي عينته في هذا الشهر حكومته الاشتراكية المعتدلة التي تولت الاحكام في السنة الماضية في فرنسا ، فتألفت وفود من الأعيان والمفكرين من المدن الاربع وقصدت الى بيروت وعرضت مطالب الامة على المفوض السامي ، وخلصتها ان الخلفاء اعترفوا باستقلال الشام في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ وانه يحق لها حق تقرير مصيرها وانه فككت اجزائها وأنشئت فيها دو يلات صغيرة قضي بها على وحدة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وان القائمين بالامر أثاروا التعرتين الطائفية والدينية ، ومنحوا المدارس الاجنبية ذات البعثات الدينية المساعدات المادية والمعنوية ، ليفصموا عرى الرابطين الوطنية والقومية ، ولتتمكنوا بهذا التفريق من القضاء على استقلال البلاد ووحدها ، وان البلاد السورية يجدودها الطبيعية هي وطن واحد بلغتها وقوميتها وعاداتها وأخلاقها وثقاليدها وتاريخها فلا مسوغ لتجزئتها وجعلها دو يلات عديدة ، وان أسلاف المفوض السامي اتخذوا اختلاف المذاهب

والمساومات السياسية معاول لتقويض بنساء الوحدة السورية ، فسلخوا القسم الشمالي منها وأعادوه الى الحكومة التي أنقذ منها في ياديء الامر ، ولم تزل طامعة بالاستيلاء على القسم الآخر فخرموا هذا الوطن حدوده الطبيعية وخطوط دفاعه ، والحدود اذا لم تكن عسكرية طبيعية لا سبيل الى ضمان استقلالها .

وان المنشدين السابقين لم يكتفوا بان يحفظوا للبنان الصغير امتيازاته ، بل عمدوا الى ضم أرجاء أخرى من داخل البلاد وساحلها مما يزيد عن مساحته الاصلية مرتين ، ويزيد على عدد سكانه مرة وجعلوه في صورة دولة لبنانية مستقلة ، كما سلخوا جبل الدروز وجبال العلويين وجعلوها دولتين . وطلبوا تأليف لجنة تأسيسية واعطاء حق التشريع للامة والحرية الشخصية وحرية الاجتماع والجمعيات والصحافة والغاء القرارات الاستثنائية والمحاكم الاجنبية وان تدار الاوقاف الاسلامية والخط الحجازي الذي هو وقف اسلامي بمعرفة الحكومات الوطنية ، وان تمنع الهجرة الارمنية الى الشام لان عدد المهاجرين الى هذا القطر بلغ مائة وثمانين الفا زاحموا الوطنيين في الاعمال الصناعية والتجارية مزاحمة لا تحتمل الى غير ذلك من المطالب مثل الورق السوري ورفع الحواجز الجمركية وذلك بان نعقد انفاقات مع الحكومات المجاورة كما عقد بين سورية وفلسطين للتبادل التجاري ، وطلبوا الغاء الديون العمومية وإبطال الضمانات الكيلومترية التي تعطي لبعض الخطوط الحديدية لانها تريح ولا تحتاج الى هذه المعاونة ، وان توحد النظم الادارية ، وبلغى قانون العشائر ويجعل حد لتدخل المستشارين في صغار الامور وكبارها ، وتسند الوظائف الى أهل الكفاءة من بني الوطن الاصليين وبقنصر على استخدام الوطنيين في جميع الوظائف المحلية .

وقد وعد الجنرال المفوض السامي وفود المدن الاربع بدرس مطالبهم وانفاذ ما في وسعه ووسع حكومته انفاذه ، وأشار الى ان الواجب عليهم ان ينظموا صفوفهم ويؤلفوا احزاباً تسير بعقل وروية لا يتخذها بعض أرباب الاغراض سلماً لبلوغ غاياتهم . وقد عاد الجنرال سارايل في خطاب له القاه في حمص (أيار ١٩٢٥) خاطب به أعيان البلاد بقوله : اعملوا على توحيد كلمتكم قبل اهتمامكم بالاستقلال ، فان الاستقلال انما يحصل عليه المنفقو الرأي ، الى هذا أوجه نظرهم ، اتحدوا أولاً فان

الباني انما مباشر وضع الاساس قبل ان يهتم بالتوريق والدعان اه . وبالفعل تأسس في سورية حزبان حزب من جميع طبقات الشعب واسمه حزب الشعب وآخر يناصر الحكومة الحاضرة واسمه حزب الوحدة كما تألفت في لبنان أحزاب .

صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب
الفلسطينيين والسوريين وكوائن } وفي يوم ٢٥ آذار ١٩٢٥ (١ رمضان
١٣٤٣) جاء القدس لورد بلفور الوزير
البريطاني صاحب الوعد للصهيونيين بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود الذي صرح به
في تشرين الثاني ١٩١٧ باسم بريطانيا العظمى فاحتج المسلمون والنصارى فيها على
مجيئه وأضربوا عن الاعمال إضراباً تاماً، وكان مجيئه للاحتفال بافتتاح المدرسة الجامعة
العبرية في بيت المقدس ، وقد أرسلت برفقيات الاحتجاج من أطراف الشام على من
فصل بعمله فلسطين عن أمها الشام وجاء مساء يوم ٨ نيسان الى دمشق فأظهر الدمشقيون
نرتهم منه ومن وعده ، وأغلقت المدينة صباح الغد محجة على وعده وبعد الظهر
تجمع جمهور لا يقل عن خمسة آلاف في ساحة الشهداء أراد الدرك منعهم من
التجمع بالتهديد والضرب فرشقه بعض الفتيان بالحجارة ، فاضطر الدرك الى استعمال
السلاح في الهواء فخرج عشرون شخصاً هلك منهم اثنان واضطرت الحكومة اللورد
ان يخرج الى بيروت فأركب البحر والبيرونيون يخرجون عليه كاحتجاج الدمشقيين
ولم يستطع ان يرى اللورد من دمشق غير جدران الفندق ومن بيروت الا الطريق الى
السفينة فقط .

وفي يوم ٢٩ رمضان ١٣٤٣ (٢٣ نيسان ١٩٢٥) خطب الشيخ عبد الحميد
الطار في آخر جلسة من جلسات المجلس التمثيلي في مزار توظيف غير العرب في
وظائف دولة سورية فقال : ان العصر عصر القوميات ، لا تقوم الامم الا تحت
لوائها ، ولذلك نرى جمهورية تركيا اخرجت من خدمتها حتى الآذنين من غير جنسها ،
وان الواجب على حكومة سورية ان تخرج من خدمتها التركي والارمني والرومي
فقبل المجلس اقتراحه بالاجماع وقوبل بالتصفيق .

وفي ٢٨ ايار (١٩٢٥) انذرت بريطانيا العظمى الملك حسين بن علي ان يغادر

العقبة خلال سبعة أسابيع — وكان جاءها بعدان سقط الحجاز الاقليلاً في ايدي جيش السلطان عبدالعزيز بن سعود ملك نجد — لتستلمها حكومة شرق الاردن وتضمها مع معان الى البلاد التي تديرها لانها ضمن الانتداب البريطاني وتحافظ عليها من الوهابيين الذين فتحوا مكة والطائف واخذوهما من يد الملك حسين فأجاب جلالته انه لا يسهه بالنظر للعمود المقطوعة له من الحلفاء ولا سيما بريطانيا ان يتنازل عن هاتين البلديتين الحجازيتين (العقبة ومعان) وانه لا يعترف بالانتدابات المخالفة لتلك العمود وابان المحاذير التي ستنتج عن عملها هذا الذي سيدعو الى هياج عظيم في العالم العربي وبعد ايام سار الى قبرص ليقم فيها . وفي حزيران قتل الاشقياء قائدين فرنسيين في طريق دير الزور كانا يسيران في سيارة فبعثت السلطة طيارات امطرت عشار البوماسرية التي فقد الضابطان في أرضها وابلاً من القذائف فهلك منهم اكثر من ثلاثين نفساً وتلف كثير من الخيل والابل والغنم . ثم حكمت على خمسة من الاشقياء بالقتل . وفيه جاء وفد من اعيان دروز جبل حوران وراجعوا السلطات الفرنسية يطلبون انضمامهم كما كانوا سابقاً الى حكومة دمشق على ان يكون لهم بعض الامتيازات المحلية اذ ثبتت لهم مضرة الانفصال . كما ان وفداً من اللاذقية قابل بعض رجال تلك السلطة وابانوا له الاصرار التي نشأت من فصل بلاد العلويين عن امها سورية وطلبوا ارجاعهم الى حكمها .

وفي شهر نيسان ١٩٢٥ جاء فلسطين وزير المستعمرات البريطانية فقابلته وفود الامة ينقدمها وفد اللجنة التنفيذية ووفد الحزب الوطني ونكلم غير واحد من رجال الوفد معرباً عن ظلامه الفلسطينين وضرر الوطن القومي فرد الوزير على اقوالهم ومما قاله انه رأى فلسطين أسعد من الاربعين مستعمرة التي يهتم بشؤونها وقد قدمت له الوفود تقريراً هذا ملخصه :

١ — ان عرب فلسطين قد قدموا تقارير كثيرة وارسلوا وفدهم الى لندن مرتين وفي كل ما قدموه بينوا التناقض الغريب الذي يظهر في مسلك الحكومة الانكليزية في بلادهم على الرغم من ١ — نص عهد جمعية الامم . ب — العمود المقطوعة للملك حسين . ج — البلاغ المنشور من القائد النبي قائد الحملة الفلسطينية . د — بعض مواد صك الانتداب . ه — البيانات الرسمية والشبه الرسمية الصادرة من الوزارات .

٢ — ان السياسة التي تسير عليها الحكومة في فلسطين جرت البلاد الى حالات اقتصادية صعبة لا يمكن للبلاد ان تستمر على تحملها ودوام الحال على هذا الشكل دون ان يجد العرب آذاناً صاغية عادلة يؤدي حتماً الى سقوط البلاد في هوة اشد عمقاً من الحالة الحاضرة اذ انهم ا — يكفون بضرائب باهظة للانفاق على ترتيبات واسعة لا لتحملها البلاد لتنفيذ السياسة الصهيونية التي لا يمكن ان تلتقى مع مصالحهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ب — قد حرّموا ادارة بلادهم وتمتعهم باستقلال ذاتي على حين ليسوا أقل مستوى من سكان البلدان العربية الاخرى . مثل العراق وشرق الأردن التي يتمتع بحكم ذاتي نيابي . ج — وقد حرّموا حتى مما كانوا يتمتعون به من بلديات ومجالس ادارة ومجالس عمومية منتخبة ومن ارسال اعضاء الى البرلمان في العهد التركي . د — قد فتحت ابواب بلادهم لهجرة يهودية ضخمة تحتوي على كثير من العناصر غير الصالحة لحياة البلاد وتحملها اقتصادياً واجتماعياً . ه — قد جعل للعناصر اليهودية ارجحية ظاهرة في ادارة البلاد الرئيسة وفي تسير المصالح اليهودية القومية والاجتماعية هذا وهم اقلية ضئيلة في البلاد عدداً ومصالحاً .

(٣) — ان العرب في فلسطين وهم يطلبون حقوقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط ان يعمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم ولكنهم يريدون ان يتمتعوا بحقوقهم باعتبار انهم اكثرية ساحقة في العدد والمصلحة ، وباعتبار انهم وعدوا بوعود صريحة وباعتبار ان عهد جمعية الامم يخولهم ذلك مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الادارة والتشريع بحسب نسبتهم .

٤ — ان العرب يعتقدون انهم لن يطمئنوا في بلادهم و يروا في الحكومة البريطانية النية الحسنة التي طالما أعلنتها بالنسبة اليهم اذا ظلت مستمرة في طرز الادارة والسياسة التي سارت عليها في فلسطين الى الآن مع انهم يريدون دائماً أن يكونوا على وفاق تام معها في مصالحها النزوية ويعتقدون أنه قد آن للحكومة البريطانية ان تطلع عن تجربتها العقيمة وان تعيد نظرها بصورة جديدة في هذه السياسة التي جعلت البلاد وأهلها في حالة اضطراب روحي وخطاط اقتصادي وقلق .

٥ — وما نحن نقدم لها مطالب البلاد بصورة صريحة واضحة أن تبذل علاقة الانتداب السيئة .

١ — تأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي منتخب من الاهالي الفلسطينيين بحسب التمثيل النسبي .

٢ — تسن جمعية وطنية منتخبة القساون الاساسي الذي يضمن بقاء الاماكن المقدسة بيد أهلها القديمين على أن لا يغير شي فيها وحفظ حقوق الاجانب ومصالح الدولة المساعدة المتفقة مع مصالح البلاد وضمان مشاركة اليهود الوطنيين بالحكم والتشريع بحسب النسبة على ان يراعى في وضعها تحمل حالة البلاد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ضمانا التعهدات الدولية التي تحملتها الدولة المساعدة وهي التعهدات الصحية وحفظ الآثار وحرية الأديان ونحوها على النمط الوارد في المعاهدة المعقودة بين الحكومة الانكليزية والعراق اه .

تاريخ الصهيونية } ولما كانت الصهيونية من أهم المسائل التي تشغل بال
وعملها الاخير } الشاميين عامة واخوانهم أهل فلسطين خاصة وكان لها
ساس بسياسة البلاد وتاريخها عهدنا الى احد الواقفين على امرها^(١) وكتب اليها بالفصل
الآتي قال : اليهود قبيلة سامية نزحت من العراق الى فلسطين وسكنت فيها حيناً ،
ثم هاجرت الى مصر فمكثت هناك مدة طويلة وانقلبت اليها ، وفتحها فتحاً عسكرياً
وتسلطت على بعض شعوبها . وقد أسسوا شبه حكومة ثم مالبتوا ان دب فيهم الفساد ،
فانشطروا الى قسمين شمالي وجنوبي ، وامسوا عرضة لمهاجمة حكومات مصر وآشور وابل
لان بقعتهم في الطريق الوحيد بين الدول المتزاحمة ، ثم تغلبت تلك الدول عليهم فسبواهم
واخرجوهم من فلسطين ، وهنا بدأت نفوسهم تحن اليها ، وتشوقوا الى اعادة مملكتهم
القديمة واحياء قوميتهم المنقرضة ، وقد كبر هذا الرجاء في نفوسهم ، واشتعل الامل في
صدورهم وحاولوا مرات استردادها من ايدي الرومانيين ففشلوا ، وخرّب تيطس هيكلهم

(١) كاتب هذا الفصل الباحث الثقة السيد عمر الصالح البرغوثي في القدس .

وشتتهم في اطراف الارض، ولكنهم سرعان ما تخضت نفوسهم وثاروا بقيادة يار كوخبا ومساعدة الحاخام عقبيا فاخفقوا وعجزوا عن الانقلابات من حكم الرومانيين الثقيل .
 ورغم هذه الصدمات أصبحت فكرة الرجوع الى فلسطين عقيدة دينية عندهم ،
 برزت في آدابهم الشعرية والنثرية ، وأظهروا من الحنين الى فلسطين والتلف على
 زوال مجدهم ، ما خلد ذكرهم في تاريخ الادب . وقد قام كثيرون ونظاهروا بانهم جاءهم
 المسيح وبشروا بالرجوع الى ارض الميعاد فلم يُنجحوا لان الاحوال الخارجية التي عاش
 فيها اليهود قرونًا حالت دون بلوغهم امنيتهم وحرمتهم الشعور بالروح القومية ، ولم
 تتوال عليهم عواصف الاضطهادات في اوربا التي أيقظتهم ودفعتهم الى إظهار
 الصهيونية^(١) الحديثة التي أوجدها عاملان « الاول » الشعور بالقومية ، « الثاني »
 مضادة اليهود العامة . اما القصد من الصهيونية فهو عزل الشعب اليهودي عن الشعوب
 الاخرى ، وجعل فلسطين وطنًا خاصًا بهم ، يقوم على القومية و يعترف لهم اعترافًا دوليًا
 مضمونًا ضمانيًا شرعيًا .

وقد بدأت تظهر الصهيونية بمظهرها الحقيقي سنة ١٨٥٢ م حين حض هولنديكمبورث
 الانكليزي على اقامة حكومة يهودية في فلسطين لاجل حماية طريق الهند البرية .
 وسافر السر موسى منتفيوري الى فلسطين وطلب من محمد علي باشا المصري اسكان
 اليهود في البلاد فرفض طلبه . وقام كثيرون من الادباء والسياسيين واقترحوا
 اقتراحات مختلفة منها جعل فلسطين حكومة يهودية ، او عمل خط حديدي في العراق
 واسكان اليهود على جانبه او ايجاد مأوى لهم في شرق الاردن .

وقد حام كاليشر في كتابه مطلب صهيون حول استعمار فلسطين واستملاك الارض
 وانشاء مدرسة زراعية وتأليف حامية اسرائيلية عسكرية !! ومزج الفكرة القومية
 بالروح الدينية وصرح فيه ان الخلاص الذي نوه به الانبياء يأتي متتابعًا بمساعدة اليهود
 انفسهم . وسافر مراراً لترويج هذه الفكرة والف الجمعية الاولى الاستعمارية في فرنكفورت

(١) صهيون جبل جنوب القدس ثم شمل المدينة واصبح علماً عليها . والنسبة اليه

تدل على الجماعة الذين يرغبون في الرجوع الى فلسطين .

سنة ١٨٦١ وحمل بعض الحاخامين على الاشتراك معه واعلن بعضهم ، ان الاستعمار في فلسطين من الامور المقدسة فألهبت نقوى اليهود هذه الجملة البراقة والقوا بضع جمعيات استعمارية في الممالك الاوربية وأسست المستعمرة الصهيونية الاولى (عيون قارة) في فلسطين ١٨٧٤ .

الا ان العمل شرع فيه بصورة جدية سنة ١٨٩٧ عندما عقد المؤتمر الاول واشترك فيه ممثلو خمسين جمعية صهيونية وبرزت الروح الاستعمارية بشكل جلي فقاومتها الحكومة العثمانية بوضعها الصعوبات والعراقيل أمام هجرتهم وقيدتهم بقيود جعلت هجرة اليهود الى فلسطين في حكم المستحيل الا قليلاً .

وكما كانت نلتعش الروح اليهودية القومية يشتد كره الامم لهم وهم لا يعباون بذلك زاعمين انها موجة ستضمحل أمام الرقي العلمي المنتشر هناك ، فانتهت عاقبة هذا الرجاء بالفشل اذ وقعت عليهم اضطهادات ومذابح في كل الاقطار ، فاندفع الزعيم الصهيوني الكبير تيودور هرتسل والف كتابه الوطن اليهودي سنة ١٨٩٥ . وقد جاء فيه ان مضادة اليهود التي هي في نمو مستمر خطر على العالم بأسره ، لان اليهود شعب لا يمزج بغيره والامتزاج الحقيقي يكون بالزواج المتبادل ، واقترح فيه انه يعطى لهم متسع من الارض في فلسطين او الارجنطين ليجمعوا بها ويتقوا لهم وطناً خاصاً بهم واذا سمح لهم بفلسطين فانهم يرون من الواجب ان تكون محلات العبادة المخصصة بالطوائف الاخرى ملكاً ممتازاً لهم .

وأشار بتأليف جمعية تشرف على الاعمال العلمية والسياسية وتأسيس شركة يهودية كالشركات الانكليزية والفرنساوية الصناعية « الاستعمارية » العظمى يكون رأس مالها ٥٠ مليون ليرة انكليزية وتخذ لها مركزاً رئيساً في لندن ، ويعهد لهذه الشركة بالاعمال التي تهيبها اللجنة التنفيذية اليهودية وتسعى الطائفة الجديدة لترويج المهاجرة بطريقة منظمة ولم يعبا هرتسل بقوانين الكنيسة فطلب فصلها عن السياسة ولما اختلط بقومه شعر بضرورة الموافقة الدينية لان ميل اليهود كان متعلقاً بفلسطين تعلقاً دينياً ويستحيل عليه ان يحولهم عن ذلك .

ولما زار هرتسل بلاد الانكليز لم يقبل اليهود على دعوته كما أقبل أهالي اوربا

الأخرون الذين ناصروه بالمال والرجال . واول من اعتقد بصحة مشروع الوطن اليهودي جمعية زيوف في النمسا التي طلبت تأليف جمعية يهودية عامة واقترحت تأسيسها في لندن ثم عرفوا هرتسل ان جمعيتهم قبلت مبادئه . وهنا يظهر ان الذين استهوت قلوبهم فكرة تأليف الجنسية اليهودية هم الذين اعتبروا هرتسل زعيماً ومخلصاً لهم . ولكن المدّنين قاوموه عندما عرفوا ان بعض زعماء دعوته لادينيون . وتصدى له رؤساء الحاخامين في روسيا والمانيا والنمسا وانكلترا وقالوا : ان الصهيونية حركة بعيدة عن اليهودية وانها مخالفة لاوامر الله تعالى . وقال الكاتب الشهير لوسيان وولف : ان الصهيونية حماقة ، وقال غايكر : ان الصهيونية تؤدي الى حرماننا حقوقنا الدنية في الممالك الخارجية . اما بعض مسيحي اوربا فقد اظهروا عطفاً على الصهيونية وطفقت بعض جرائدهم تحض اليهود على استعمار فلسطين اتماماً لنبوءات التوراة فصادت دعوتهم رواجاً وتكاثر دافعوا الشاقل^(١) الذين انضموا الى الصهيونية على مقاومة انصار الدين لها وقد عقدت بين سنة ١٨٩٧ - ١٩١١ عشرة مؤتمرات ، فان عقد المؤتمرات قصد بها هرتسل احياء الشعور القومي وايقاظه بين اليهود ونشر الدعاية الصهيونية ، وقد نجح بفكرته هذه وتوفق لعقد المؤتمر الاول في مدينة بازل (سويسرا) سنة ١٨٩٧ فاشترك فيه أعضاء كثيرون بعضهم يمثل جماعات وبعضهم جاؤا عن انفسهم وقد قرروا ما يلي :

- (١) تعليم اللغة العبرية ونشر آدابها وانشاء مدرسة كبرى في يافا او القدس .
- (٢) انشاء مدارس يهودية في كل الاحياء الاسرائيلية لتعليم اللغة العبرية وتأليف لجنة تعنى بالآداب العبرية .
- (٣) انشاء صندوق توفير يهودي وقد وضعت قاعدة غرض الصهيونية وهي ايجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين مضموناً ضماناً شرعياً دولياً ونُتخذ الوسائل للوصول الى هذا الغرض .

(١) الشاقل هو الشان او الفرنك : وكل من تصهين لا يحق له ان يندخَب او يندخَب حتى يدفع شلناً في السنة .

- (١) ترقية حال الزراعة اليهود والتجار في فلسطين .
- (٢) تحالف اليهود تحالفاً محلياً او عمومياً حسب قوانين بلادهم المختلفة .
- (٣) نقوية الشعور اليهودي .
- (٤) بذل المساعي الادبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض الصهيوني وقد أسست فروع عديدة للقيام بهذه المشاريع وجمعت ٤٠٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية .
- وافتح المؤتمر الثاني في مدينة بازل ايضاً سنة ١٨٩٨ وتألف من أعضاء الجمعية الصهيونية العاملة وبعض الزعماء من البلاد الاخرى واشترك فيه عدد من حاخامي روسيا المعترف بهم رسمياً نواباً عن اليهود المتدينين ، وورد عليه اربعون برقية من الحاخامين المتعصبين يعلنون بها اعتقادهم بالصهيونية ، فانضم الى الجمعية الصهيونية نفر كبير من اليهود ، وقد أسس هذا المؤتمر جمعية استعمارية غرضها توسيع نطاق الاستعمار بشرط اكتساب رضى الحكومة التركية وتألفت عمدة من تسعة اشخاص برئاسة ولفسون وقد اقترح الرابي ارنيس جعل اللسان العبراني لغة لليهود عامة وقبل اقتراح جاستر فيما يتعلق بالتهذيب .
- وانعقد المؤتمر الثالث في بازل ايضاً سنة ١٨٩٩ وصرح فيه هرسل بان مساعيه كانت متجهة للحصول على امتياز من السلطان عبد الحميد ولكنه لم يتوفق . ثم تليت تقارير اللجنة العاملة فظهر منها ان معدل زيادة الجمعيات الصهيونية في روسية ٣٠٪ وفي البلدان الاخرى ٢٥٪ . وبلغ عدد دافعي الشاغل اكثر من ١٠٠ الف نفس أي ان ٢٥٠ الفاً من اليهود تصهبنوا في ذلك الوقت .
- وانعقد هذا المؤتمر في كوينس هال في لندن سنة ١٩٠٠ وقصدوا بانتخاب هذا الموقع التأثير في الرأي العام الانكليزي لان بعض الانكليز ارتاحوا الى الدعوة الصهيونية وناصروها لما لها من الارتباط بالكتاب المقدس . وبلغ عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا ١٠٤٣ جمعية وفي انكلترا ٣٨ وفي الولايات المتحدة ١٣٥ وفي بلغاريا ٤٢ جمعية . الخ .
- أما آمال الصهيونيين في فلسطين فقد كادت تقضى عليها لان الباب العالي أصدر تعليمات في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ تمنع مهاجري اليهود من الاقامة في فلسطين

أكثر من ثلاثة أشهر إذ عرف ان الحركة الصهيونية انقضت وهي آخذة في التهام فلسطين واستملاك بقاعها والاستيلاء على واردتها وصادرها ، فاحتجت ايطاليا على هذه التعليمات بانها مجنفة وانها هي لا تفرق في بلادها بين رعاياها المسيحيين واليهود . وكذلك عرضت هذه المسألة على وزير الولايات المتحدة المستر هاي فأصدر امره في ٢٨ شباط سنة ١٩٠١ الى سفيرهم في الاستانة ليحتج باسم حكومتهم فرفض الاتراك كل تدخل بهذا الشأن . ثم توجه هر تسيل الى الاستانة ومعه داود ولفسوف واوسكار مارموزك وقابل السلطان عبد الحميد في ايار سنة ١٩٠١ مرتين منفرداً عن رفيقيه وأنعم عليه السلطان بالوسام المجيدي الاول وعاد الى لندن وقابل جمعية الميكابيين في ١١ حزيران سنة ١٩٠١ وأعرب لهم عن ثقته في نجاح مهمته لدى السلطان . وانعقد المؤتمر الخامس في كانون الاول سنة ١٩٠١ وقبلت فيه القواعد الرئيسية وصدق عليها وهي : (١) عقد مؤتمر عام مرة كل سنتين . (٢) يعقد اثناء هذه الفترات اجتماعات يحضرها أعضاء الجمعية العاملة الكبرى وزعماء البلدان المختلفة . (٣) تأسيس هيئة إدارية في الامكنة التي يبلغ عدد دافعي الشاغل فيها خمسة آلاف نفس اذا هم طلبوا ذلك .

واكملت الاستعدادات لفتح المصرف واعطاء اعانة للمكتبة اليهودية في القدس وتأليف دائرة معارف عبرية وتأليف ادارة عامة تشغل بشؤون الامة اليهودية . وانعقدت جلسة طويلة بشأن التهذيب انتهت بالقرار الآتي : المؤتمر يجتهد التمسك بالروحيات وتعليم الطائفة اليهودية على قواعد عنصرية دينية وعلى كل صهيوني ان يعمل لهذه الغاية .

ثم انفض المؤتمر وانصرف كل من الزعماء لمتابعة غايته فذهب هر تسيل الى القدس على رأس بعثة صهيونية فقابلوا امبراطور المانيا غليوم الثاني اثناء زيارته القدس وفأوضوه بمهمتهم فأجابهم : ان كل المساعي لترقية زراعة فلسطين والتي تعود بالمنفعة على الدولة التركية وتحترم سيادة السلطان توافق هواه ورضاه . فامتعض هر تسيل وذهب الى الاستانة وقابل السلطان عبد الحميد وكانت خطته ترمي الى التفاهم على اساس تنظيم المالية العثمانية وان يتنع جلالته باخلاص الصهيونيين لانهم يعملون علانية

لا في الخفاء وان اليهود عنصر خاضع للقوانين لا يخالفون رغائب القوة الحاكمة . وطلب اليه ان يمنح اليهود سلطة واسعة للحكم البلدي الذاتي ويدفعون مقابل هذا الامتياز مبلغاً وافراً ويدفعون ٣٠٠٠٠٠ الف غرش مرتباً سنوياً مثل جزيرة ساموس ذات الاستقلال الاداري بجندها الخاص ورايتها الخاصة ومجلس نوابها الخاص اي حكومة ذات استقلال داخلي . ففشل في سياسته ومفاوضته وظل اليهود يباشرون بعض الاعمال الاقتصادية والزراعية في فلسطين بكل تكتم .

وبعد ان اخفق سعي هرئسل مع الاتراك وجه نظره الى الحكومة الانكليزية آملاً أن يحصل على مقاطعة بحوار الارض المقدسة بأوي اليها مؤقتاً المهاجرون او المضطهدون فاستحسن طلبه وياشر بمفاوضة لورد كرومر فعرض عليه استعمار شبه جزيرة سيناء وارسل الفريقان بعثة سنة ١٩٠٣ لترتاد الارض . وقد كاد هذا المشروع يتم لولا قلة المياه وان حكومة مصر رفضت اعطاء شيء من ماء النيل . وقد قالت دائرة المعارف الانكليزية المطبوعة سنة ١٩١٠ (ترنس لومنتت تركيا بالارض المقدسة هل كانت المسيحية الكاثوليكية والارثوذكسية تسمح بها لليهود حتى ولو استثنيت الاماكن المقدسة) ولما حبط هذا المشروع عرض عليهم شامبران وزير خارجية انكثرا شرقي افرقية على اثر حرب البوير وبعث الى كنزبرغ كتاباً رسمياً في ١٤ آب سنة ١٩٠٤ . فاقترح هرئسل الدخول في المفاوضة بشرط احداث وطن يهودي في شرقي افرقية .

وعقد المؤتمر السادس في بازل في آب سنة ١٩٠٣ وبحثوا في اتخاذ افرقية وطناً قومياً ، فقبول هذا الاقتراح بالرفض وقد قال هرئسل : ان شرقي افرقية ليست صهيون ولا يمكن ان تكون كذلك وقال مكس نوردو : لو اتخذنا شرقي افرقية وطناً لتعذر علينا الا ان نكون في دار عزلة .

وفي هذا الوقت انعقد مؤتمر صهيوني في زمارين فلسطين برئاسة اوسيشكن شهده خمسون عضواً وستون معلماً وكان هذا المؤتمر مصغر مؤتمر بازل فأسسوا جمعيات ادارية لتهمين على المستعمرات وتراقب شؤونها . وفي ١ اثنشرين ازل سنة ١٩٠٣ اذن ملك ايطاليا بمقابلة مرغوليوث ومحادثته بمصالح الصهيونيين ثم قابله هرئسل وقابل المسيو تيتيوني ناظر الخارجية وزار البابا والكاردينال دل فال . وفي ٣ تموز توفي هرئسل بعد ان اعلى

شأن الغاية الصهيونية وثبتها ووجد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم ، وحوال
المسألة اليهودية من خيرية زراعية الى اقتصادية سياسية ، فأحدث موته دهشة
في العالم الصهيوني واختلفوا في من يعينون خلفاً له في رئاسة الجمعية العاملة
(اللجنة التنفيذية) .

وفي ٢٧ تموز ١٩٠٥ انعقد المؤتمر السابع وانتخب الدكتور مكس نوردو رئيساً له
وكان نقيب اللجنة الفلسطينية خير النقاد التي قدمت لهذا المؤتمر ، لانه تضمن خبر
انتشار جريدهم ونشاط حركتهم ، وقد أعيد البحث في استعمار شرقي افريقية ، ولكنه
قرر اخيراً ، بان المؤتمر الصهيوني السابع لا يتحول عن قاعدة مؤتمر بازل الرئيسة وهي
اعداد وطن لليهود في فلسطين مؤمناً تأميناً شرعياً ومعترفاً به اعترافاً علياً وانه يرفض
رفضاً باتاً كل استعمار خارج فلسطين .

وقد بحث ايضاً في عمل الجمعية الصهيونية في مستقبل فلسطين وتقرر بشأنها
ما يلي : تطبيقاً للحركة الادارية السياسية ولأجل نفوذتها يجب أن تروج على الاسس
العلمية مقاصد الروح الصهيونية بموجب القواعد الآتية : (١) التنبه عن الآثار .
(٢) ترويج الزراعة والصناعة على المبادي الديمقراطية الممكنة . (٣) تحسين الحالة
الاقتصادية والتهدبية وتنظيم يهود فلسطين باحداث نهضة فكرية جديدة (٤) الحصول
على الامتيازات كمشترى الارض المملوكة والمتروكة والمزارع وغير ذلك .

وفي سنة ١٩٠٥ تأسست جمعية بصليل لترقية الحرف والصناعة في القدس .
وفي سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثامن في لاهاي وتأسست مدرسة الجنائز اليهودية في
يافا . وأسس مصرف داود ولفسون لبناء دور للعمال في فلسطين . وفي سنة ١٩٠٨
أسست اللجنة التنفيذية للجمعية الصهيونية في فلسطين واتخذت يافا مركزاً لها .
وفي سنة ١٩٠٩ عقد المؤتمر التاسع في مدينة همبورغ وتقرر تأسيس مستعمرة يهودية
على قواعد الاشتراك والتضامن .

وفي سنة ١٩١١ أنشئت الجمعية الاستعمارية لارض اسرائيل (فلسطين) وعقد
المؤتمر العاشر في بازل . وكانت بين سنة ١٩٠٥ - ١٩١١ الفكرة اليهودية الوطنية
جامدة وشعر قوادهم ان استرداد الارض المقدسة شيء بعد المنال حتى ان الحصول

على قطعة من الارض كان يعد امراً عسراً . وفي سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر الحادي عشر وكانت اجناته جامدة وقد توالى على الحركة الصهيونية في هذه الفترة الخذلان والاضمحلال ، ولولا الحرب لعدلوا عن غايتهم القومية وارجأوا البحث في فلسطين الى حين ، والحقيقة انه منذ وفاة هرتسل حتى اعلان الحرب كان دور القهقري في تاريخ الحركة الصهيونية .

الادواغ الصهيونية } (١) المصرف اليهودي الاستعماري — ليست مقاصد هذا المصرف مالهة فقط بل سياسية ايضاً

وبما انه اكتسب حقوق الشركات ذات الامتياز فقد اتخذ ادارة لهيئة الصهيونية العميلة وغايته العمل في فلسطين او سورية او في بقعة أخرى اياً كانت اذا كانت مصلحة اليهود تستدعي ذلك . ولكن تعدل هذا النص وقيد بهذه الجملة « العمل في فلسطين وسورية وسائر انحاء تركيا آسيا فقط » وفتح فرع لهذا المصرف . وأسس سنة ١٩٠٥ فروع مالية لشركة انجلو فلسطين في القدس و يافا وحيفا والناصره لنفس هذه الغاية .

(٢) البنك المالى اليهودي — وغايته توفير رأس مال دائم ليكون ملكاً للطائفة اليهودية ليستخدم في اغراضها الخصوصية مثل مشتري الارض في فلسطين و يشترط ان لا يمس رأس ماله حتى يبلغ مليون شلن او خمسين الفaira ويجب بقاء نصف هذه القيمة في المصرف . وتجمع اموانه من استعمال طوابع البريد الاضافية التي تلصق على رسائل الصهيونيين ومن الدعوات والهبات الاختبارية وما شابه ذلك .

العمل التهذيبي — كان توحيد التعليم اليهودي من اهم اغراض الصهيونية الرئيسية لذلك شرعوا في تأسيس غرف قراءة ومنتديات للخطب وللدروس الليلية في اماكن مختلفة وفي سنة ١٩٠٣ انشأوا مدارس في داغستان واسسوا مدرسة البنات القومية في يافا وقد نظم سنة ١٩٠١ حايم ويزمان منهاجاً تاماً لجامعة عبرية وفتح لها فرع للآداب في القدس بعد الحرب وعملوا لها بضعة احتفالات ولم تنزل في مهدها .

جمعيات الطلبة — لما انتشرت الفكرة الصهيونية تغلغت في نفوس الطلبة اليهود في فيناروسيا وروسيا ورومانيا وتراسوا بالمحافظة على الشعور اليهودي وتعززوا بالآداب

العبرية وكان شعارهم الى الامام . وانصرف اهتمامهم لاستعمار فلسطين وتألفت بعد ذلك جمعيات عديدة من طلبة المكاتب وانفقوا اسماء وطنية تشير الى نهضاتهم السابقة وفتح لها فروع في فلسطين وانتشرت في كل أنحاءها .

الجمعيات الرياضية — دعيت رياضية ولكن غابتها في الحقيقة عسكرية لاسيما وان اسماءها ترمي الى هذا الغرض ، وقد امتدت بسرعة الى الاستانة وبرلين وصوفيا وبخارا وهمبورغ . . . الخ . وانتشرت فروعها في فلسطين تحت اسماء مختلفة وقد ظهرت بدارها والتمرين على حمل السلاح والحركات العسكرية وتنظيم الجند .

الصحافة — ان للصحافة اليهودية اثراً كبيراً في نشر الدعوة الصهيونية ، فلهم صحف عديدة في روسيا والنمسا والمانيا وانكلترا وايطاليا وغيرها من الممالك ، وهي تكتب المقالات الطويلة انصاراً لقضيتهم ودفاعاً عن صهيونيتهم وقد كان لهم بضع صحف في فلسطين لاقية لها .

انتشار الصهيونية — راجت الفكرة الصهيونية عند كثير من اليهود فانضم اليها اشخاص ما كانوا يعرفون شيئاً عن الغاية الصهيونية وتبرع فريق منهم دون ان يكلفوا الى ذلك حتى وكدت لا تجد فئة من اليهود والا يبنهم صهيونيون فنظروا باظهار دعوتهم وجاهاوا برفع رايتهم الزرقاء البيضاء في احتفالاتهم فاحتج العرب على ذلك على غير طائل فاننا لا نزال نرى اللونين الازرق والابيض وفي نصفه المثلث المقاطع ترس داود برفرفان في كل ايام اعيادهم على صدورهم او على مرافعات معاهدتهم او على طرفهم وسلمهم .

الاحزاب الصهيونية — بذل اليهود جهوداً كبيرة لاستعمار فلسطين غير انه حصل تباين في آرائهم فانفصل بضع فرق عن جامعتهم وبرزت في المؤتمرات وكثيراً ما كانت المناقشة عنيفة بين هذه الفرق التي سنذكرها هنا : (١) فرقة الحكومة — وهي اتباع هر تسيل ومنهاجهم ما صرح به رئيس المؤتمر في جلساته العديدة من وجوب تأسيس وطن لليهود في فلسطين والبلاد المجاورة لها يضمن ضماناً شرعياً مع تمسكهم بقرار مؤتمر بازل بلا زيادة ولا نقصان . (٢) فرقة الوسط المزراحية — وهم عصابة اليهود المتدينين الذين ألفوا فرقهم اثناء انعقاد المؤتمر الخامس وهي فرع من حزب الراديكال

(المتطرفين) وقد تزايد أعضاء هذا الحزب وعقدوا مؤتمراً خاصاً سنة ١٩٠٤ وانتشروا في انكلترا وأميركا وروسيا والمانيا . وكانوا مظاهرين هرتسل في جميع المناقشات وغرضهم يرمي الى ان يكونوا هيئة صهيونية ارثوذكسية أمينة للتوراة والتقاليد في كل ما يتعلق بالحياة اليهودية . (٣) فعال زيون الحزب الديموقراطي — هو حزب اليسار الذي يوجد بين صفوفه عدد من مشاهير الاثترا كين وعدادهم قليل ولكنهم برهنوا على اقتدار وحذق وتغلبوا على حزب مندلستون في المؤتمر ، وكان مركزهم في النمسا وسويسرا ، ويوجد منهم فرقة متطرفة اسمها (فرقة العملة الاثتراكية الصهيونية) ويظن ان هذه الفرقة تستخدم غرضها الاثتراكي اكثر من عملها الصهيوني . (٤) الزيون زيونست — توجد فرقة بهذا الاسم ضمن الجمعية العمومية نشأت على أثر المناقشات التي دارت في المؤتمر السادس وزعيم هذه الفرقة اوسيشكن واضع مبادئ الفرقة الجديدة والمصرح بان سياسة هرتسل فشلت والحركة الصهيونية تحتاج الى العمل السريع في فلسطين بدون انتظار منحة او امتياز ويجب مشتمى الارض حالاً بقسم من مال المصرف القومي . (٥) التريتوبالين — قوام هذه الفرقة هم الذين رغبوا في المؤتمر قبول استعمار شرقي افريقية ثم عدلوا خطتهم وقرروا ان يستحصلوا على أي أرض في كل بلد بشرط ان ينالوا فيها استقلالهم الاداري . وظهرت فرق أخرى لم نل شهرة مثل الفرق التي تقدم ذكرها . ومنها فرق الصهيونيين السياسيين الذين عقدوا اجتماعاً خاصاً سنة ١٩٠٥ (٦) الصهيونية السياسية الحقيقية — وهم يعتقدون ان طلب الحكم الاداري لليهود مبالغ فيه ويريدون ان يهتم الصهيونيون في سرعة مشروع استعمار فلسطين والبلاد المجاورة ، وهناك فرق صغيرة .

الصهيونية في الحرب } كان مركز القيادة الصهيونية العامة في برلين مؤلفة
من ستة أعضاء رئيسهم البروفسور واربورغ ، وكان
أربعة منهم في برلين وواحد في بطرسبرج (لينينغراد) والآخر في أميركا الشمالية ،
فلما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ توقفت أعمال الصهيونية السياسية وأصبحت
مهتدة ولم يلبثوا ان نقلوا إدارتهم العامة الى كوبنهاغن ونقلوا الادارة المالية الى

هولاندة وتظاهروا بالحياد التام أمام جميع الدول وتربصوا ليروا اين تكوّن الغنيمّة لينصرفوا اليها ، أماعضوهم في الولايات المتحدة فقد أخذ يجمع حوله الصهيونيين والف لجنة عاملة . ورغم جميع هذه الاستعدادات السياسية فان مركز الحركة الصهيونية لم يكن في كوينهاغن ولا في امستردام ولا في نيويورك بل كانت في لندن اذ كانت محور العالم ، وفازوا بحمل بعض الدول على الاعتراف بحقوقهم التاريخية في فلسطين رغم ما كانت عليه الروح الصهيونية من الضعف في بلاد الانكليز . ولم تعلن تركيا الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حتى انتبه الرأي العام اليهودي وتأكدوا ان المسألة الشرقية سيعاد البحث فيها فانثعشت آمالم وابتهجت نفوسهم يوم صرح رئيس الوزارة الانكليزية المستر اسكويت قائلاً : « ان جرس جنازة تركيا قد دق لا في اوربا فقط بل في آسيا أيضاً » فاستبشروا بان تأسس دولة يهودية في فلسطين أصبح ممكنًا ومعقولًا وبرز الدكتور حايم ويزمن استاذ جامعة منشستر واندفع حتى أصبح قائد الحركة الصهيونية العامة ، كان هذا الدكتور صهيونيًا ولكنه لم يشغل وظيفة مهمة في ترتيباتهم السابقة على انه كان دائماً يميز نفسه في المؤتمرات ، وكان يحض اشدة على العمل في داخل فلسطين و يذكر ما يترتب عليه من الفوائد ، ويقاوم بعنف جميع الذين كانوا يطلبون ان تقتصر الجهود الصهيونية على السياسة فقط . وهو الداعي الى تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وهو الذي اعتبر دخول تركيا في الحرب عهداً جديداً لفلسطين وفرصة نادرة يجب ان يستفاد منها .

فطار اسمه ونناقلت أخباره الصحف حتى انه طلب اليه ان يقابل المستر لويد جورج ناظر المالية حينئذ فأجيب بشرط ان يشهد الاجتماع السر هيرت صموئيل رفيق لويد جورج في الوزارة فقبل ذلك بكل سرور وقابله وبسط له آراءه وآماله يجعل فلسطين بلاداً يهودية فارتاح الى هذا الطلب ، ثم انصرف ويزمن وعمل على الاجتماع بالمستر بلفور فأنس منه كل تشجيع وهكذا فتح الدكتور ويزمن باباً للمفاوضات التي أدت فيما بعد الى تصريح بلفور المعروف والمعالم والى انفاق سانت ريمو والى الاعتراف من الدولة الوصية بتسهيل تأسيس الوطن القومي اليهودي . وقد كان ويزمن يعمل بنفسه دون مشورة او مساعدة احد غير بضعة نفر من صغار الصهيونيين ، فرأى ان

يدعو الى لندن الدكتور شلينو والمستر سكولوف العضوين الروسيين في المؤتمر الصهيوني ليسانده في العمل وانضم اليهم فيلسوف الصهيونية المستر اشير كنزيرغ المعروف «باحاد هعام : احد القوم» والمشهور بتعصبه لنشر العلم والتهذيب بين الصهيونيين فألفوا لجنة غير منتخبة لكنها ربما كانت موثوقة من اكثر الصهيونيين واتخذوا هدفهم ملامسة الحكومة البريطانية واكمل المفاوضات التي باشرها ويزمن على ان الدكتور شلينو مات بعد قليل واقتصر كنزيرغ على اعطاء المشورة فوقع حمل المفاوضات والنيابة عن الامة اليهودية على عاتق ويزمن وسكولوف ولكنهما كانا يطلعان قواد الصهيونية في اميركا وروسيا وغيرهما من البلاد على كل ما يجري معها وياخذان موافقتهم على الاشياء المهمة .

وكانت حكومات الحلفاء تبحث عن كيفية تقسيم البلاد المنفصلة عن الامبراطورية التركية اذا انتصرت ، وبحثت في مسألة فلسطين ايضاً ، وكان عقد اتفاق سري بين فرنسا وانكلترا عرف باتفاق سايكس بيكو امضي في ربيع سنة ١٩١٦ وماله ان تأخذ فرنسا شمالي فلسطين وانكلترا ميناءي حيفا و يافا وتعمل فلسطين وما فيها من الاماكن المقدسة تحت حكم خاص للاحتفاظ بمصالح دول الحلفاء الدينية وهذا الحكم يقرر بالاتفاق بين روسيا وفرنسا وانكلترا . ولم تذكر المسألة الصهيونية في هذا الاتفاق ولم يرد ذكر ما وراء الأردن والبحر الميت وخليج العقبة ولكن كان من المنتظر ان تدخل هذه المناطق في الدولة العربية او الحلف العربي الذي كان في الية ايجاده بموجب معاهدة سرية عقدت مع شريف مكة السلطان حسين ومفوض بريطانيا مارك سايكس الذي كان عضواً في مجلس النواب الانكليزي وله معرفة بسورية وفلسطين وما يجاورهما من البلدان ، وكان غير ميل الى الصهيونية وعندما اعترضه الدكتور ويزمن وسكولوف وأفهام شيئاً عن آمال الصهيونيين ، تأثر من كلامهما واخذ يعطف على قضيتهما ، بل صار عضداً متيناً لها وبتنا كانت يفاوض زعماء العرب والارمن و يبحث في امانتهم الاستقلالية كان يعتقد ان فلسطين يهودية ليست عربية وهي أشبه بخلقة بين أرمنية الحرة والدولة العربية !

اما الحكومة الانكليزية فانها فوضته رسمياً بمفاوضة زعماء العرب والارمن والصهيونيين

فعمد اجتماعاً رسمياً مع الصهيونيين في شباط سنة ١٩١٧ ولم يشترك فيه احد من العرب وقد شهدته الدكتور ويزمن وسكولوف وهربرت بنديش وكاون وسافر وهربرت صموئيل المندوب السامي السابق لفلسطين وحسن روتشلد. وبعد البحث الطويل توطدت العلاقات بين الصهيونيين والحكومة الانكليزية ووضعت القضية الصهيونية على أساس قانوني وفوض ويزمن وسكولوف ان يتوبا عن الصهيونيين فيما بعد ، وابلغت الحكومة الانكليزية هذه المعاهدة الى الحكومة الفرنسية ، وذهب سكولوف الى باريس ليبين لفرنسا اعتراض الصهيونية وعلاقتها بالحالة السياسية الدولية الراهنة ، وقابل ناظر الخارجية المسيو كامبون وأخذ منه هذا التصريح « ان الحكومة الفرنسية لا يمكنها الا ان تشعر بالعطف على غرضكم الذي يتوقف نجاحه على فوز الحلفاء ، وانه مسرور باعلان هذا التأكيد » .

ثم توجه سكولوف الى رومة واستحصل تأكيدهم بالعطف على الحركة الصهيونية من رئيس الوزارة الايطالية والبابا ، وفي هذه الاثناء انقلبت الوزارة الانكليزية وتولى لويد جورج رئاسة الوزارة الجديدة وبلغور نظارة الخارجية ودخل فيها من الوزراء الذين هم اصدقاء الصهيونيين مثل اللورد ملنر والجنرال سمطس واللورد روبرت مسل .

وبعد فترة طويلة نشطت الحركات العسكرية في فلسطين وتقدمت بسرعة فائقة حتى احتلت القدس سنة ١٩١٧ فرن صداها في لندن وأجابهها تصريح بلفور الشهير الذي ضمن في كتاب أرسل الى اللورد روتشلد وهذا نصه : « ننتظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى الى انشاء وطن قومي في فلسطين ، وتبذل الجهد في سبيل ذلك على ان لا يجري ما يضر بحقوق غير اليهود في فلسطين الدينية والمدنية او ما يضر باليهود من الحقوق والمقام السياسي في ما سواها من الممالك » .

فقابل اليهود هذا التصريح بالترحيب واصطبغوا جميعهم بالصبغة الصهيونية وقاموا بمظاهرات في كل مكان واكتسب هذا التصريح موافقة دول الحلفاء الكبيرة فوافقت عليه فرنسا والمانيا واليابان سنة ١٩١٨ اما الولايات المتحدة فانها لم تكن اعلمت الحرب على تركيا لم توافق عليه ولكن الرئيس ويلسون ارسل في آب سنة ١٩١٨ كتاباً الى

رئيس لجنة الصهيونيين الاميركيين هذا نصه : « راقبت برغبة شديدة العمل الاسامي الذي قامت به لجنة ويزمن في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية وهاءنذا اتخذ هذه الفرصة لاطهر امتناني بتقديم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي بلاد الحلفاء منذ تصريح بلفور المتضمن موافقة انكلترا على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ووعده الحكومة الانكليزية بانها تساعد ما استطاعت وتضمن الوصول الى هذه الغاية بشرط ان لا يضر هذا العمل بحقوق غير اليهود (العرب) المدنية والدينية من سكان فلسطين او يعيث بحقوق اليهود خارج فلسطين .

اما لجنة ويزمن التي اشار اليها الرئيس ويلسون فهي لجنة صهيونية ارسلتها الحكومة الانكليزية الى فلسطين سنة ١٩١٨ ومختصة سلطة واسعة ، اي ان تكون هذه اللجنة الهيئة الاستشارية للسلطات البريطانية في كل ما يتعلق بالمسائل التي تمس اليهود او التي تمس الوطن اليهودي القومي بموجب تصريح حكومة جلالة الملك . وتختص اغراضها في ما يأتي : (١) ان تكون حلقة اتصال بين السلطات البريطانية واليهود في فلسطين . (٢) ان تشترك في توزيع الاحسان على اهالي فلسطين وان تساعد على ارجاع المنفيين من فلسطين واللاجئين اليها . (٣) ان تساعد على تقديم المستعمرات اليهودية وعلى تنظيم السكان اليهود في فلسطين كافة . (٤) ان تساعد المعاهد اليهودية في فلسطين لاعادة عملها ونشاطها . (٥) تسعى لاجحكام العلاقة الودية بين اليهود وغيرهم من سكان فلسطين العرب . (٦) تجمع ما تراه مناسباً من المعلومات وتقدم تقريراً فيما يمكن عمله لترقي الاستعمار اليهودي وتقديم البلاد عموماً . (٧) تبحث فيما اذا كان في الامكان تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وتختار محلها ، فاختارت جبل سكويرس (الطور) وافتتحتها بوضع الحجر الاسامي بحضور رؤساء الحكومة .

ولما غلبت تركيا وحلفاؤها وعقد مؤتمر باريز ، دخلت النهضة الصهيونية في طور جديد فذهب ويزمن وسكولوف الى باريز ليمثلا الصهيونيين وبيينا مطالبهم وجاء غيرهم من صهيونيين البلاد المختلفة ، وقد سمع مجلس الحلفاء الاعلى اقتراحاتهم في جلسته المنعقدة في ٢٧ شباط سنة ١٩١٩ وهذه هي : اولاً — وجوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخي في فلسطين وشد أزرها لاعادة بناء وطنهم القومي . ثانياً — ان

تسلم سلطة الحكم العليا في فلسطين الى جمعية الامم وان يعهد الى انكثرا بالوصاية عليها وتكون مسؤولة أمام جمعية الامم . ثالثاً - ان يضاف الى صك الاندباب لحكومة فلسطين الشروط الآتية :

(١) ان توضع فلسطين في أحوال سياسية وادارية واقتصادية بضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي ، وان يؤول ذلك في النهاية الى ايجاد حكومة مستقلة بشرط ان لا يميل شيء يعيث بحقوق غير اليهود (العرب) في فلسطين او بحقوق اليهود التي يتمتعون بها خارج فلسطين .

(٢) وللوصول الى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية : (١) بتشجيع الهجرة اليهودية واسكان اليهود في الارض الفلسطينية مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين الثابتة من غير اليهود (العرب) .

(ب) تعضيد وكالة يهودية في فلسطين وفي العالم للاشراف على بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وان يعهد بمراقبة التعليم اليهودي الى هذا المجلس .
(ج) بعد الاقتران بان قانون هذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص يجب ان يفضل على غيره باعطاء المشاريع الاقتصادية وتمتع له الأولوية في كل امتياز في الاعمال العامة او في استثمار الثروة الطبيعية التي تجدها الحكومة من الضرورة اعطاءها لها .
(٣) تساعد الدولة الوصية جهد استطاعتها على توسيع الحكم الذاتي للمقاطعات او المراكز الممكنة إقامتها بالنظر الى حالة البلاد .

(٤) تعطى الحرية التامة في ممارسة العبادات الدينية لجميع الاديان في فلسطين دون تمييز بين السكان مها اختلفت جنسياتهم او حقوقهم المدنية .
ولم يقدم اقتراح بادارة الاماكن المقدسة التي رأوا تركها لرأي الدول الكبرى .
وقد طلب ان يدخل ضمن حدود فلسطين المجرى الاسفل لنهر الليطاني وحضاب جبل الشيخ الجنوبية (منابع الاردن) ومن الشرق الجولان ونهر اليرموك وما يليها من المناطق الجنوبية التي كانت من نصيب فرنسا في اتفاقية سايبكس بكو واعتبرت هذه المناطق أساسية للمقدم الاستعمار في البلاد وأدلووا بحجج تاريخية . فسمع مجلس الحلفاء أقوال الصهيونيين ولم يصدر قراراً حاسماً لانه كان مشغولاً بمسائل أهم من معضلة فلسطين .

كان اليهود واثقين بالحكومة الانكليزية وما خامرهم الشك في صداقتها ولم تحدثهم نفوسهم انها لتأخر عن مناصرتهم او إنجاز ما وعدتهم به ولكنهم قلقوا لانها لم تكن هي وحدها صاحبة الحل والعقد ولذلك كانت هذه الفترة حرجة جداً في تاريخ اليهود فاما ان يقضى لهم او يحكم عليهم . ولقد كان من المنظر إحداث تغييرات ثلاث المطالب الصهيونية لان الحكومة الافرنسية صدقت على وعد بلفور، ومعاهدة سايبس بيكو بطلت لانحلال روسيا ، الا ان اتفاق الحكومة الانكليزية مع الملك حسين كان له شأن يذكر ، ونشاط الحركة الوطنية العربية في فلسطين ومقاومتهم الصهيونية ، كان لها أثر فقد أسمعت المراجع الايجابية صوتها وعاكست الخطط البريطانية المخيرة للصهيونيين ، كما ان بعض المقامات الدينية المسيحية أظهرت استياءها مخافة ان يتمكن اليهود من السيادة في فلسطين ، أضف الى هذا ان اليهود اللاصهيونيين في اميركا واوربا كانوا يقاومون الصهيونية بشدة ، فمجموع هذه العوامل أخر سير القضية الصهيونية لكن العاملين الاولين (معاهدة الملك حسين ومقاومه العرب) كانت لها الاثر الاكبر في ذلك .

كان العرب يستندون في سياستهم على الامير فيصل (ملك العراق) قائد الجيوش العربية وحليف دول الحلفاء الذي توج ملكاً على سورية ولم يدم سوى بضعة شهور وكان هذا الامير في بحران سياسي يتنازعه عاملان متناقضان ، احدهما العرب الذين كانوا يطلبون اليه بشدة مقاومة الصهيونية ، والعامل الثاني بعد نظره الذي جعله يسعى باخلاص للتعاون مع قواد الصهيونيين ، فمخرج مركبه بين هذه المطالب المتناقضة ، وغلّب عليه العرب فلم يرض عن تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين ، ثم عدل عن هذا الرأي وأرسل كتاباً الى الاستاذ فيلكس فرنك فوتر احد زعماء اليهود الاميركان ، هذه خلاصته : « اتنا نشعر ان العرب واليهود هم ابناء عم في الجنس وانهم تحملوا اضطهادات متشابهة من الدول القوية ، وقد ساعدتهم حسن الطالع بان يتمكنوا من الصعود معاً الى الدرجة الاولى من سلم آمالم الوطنية ، ونحن العرب وخاصة المتعلمين ننظر برغبة شديدة الى النهضة الصهيونية ، وقد اطلع وفدنا في باريز الآن على الاقتراحات التي قدمتموها أمس الى مؤتمر السلام ونحن نعتبر ان

هذه الاقتراحات معتدلة ولائقة ، وسنعمل جهدنا وما في وسعنا لمساعدة اليهود ابدآ ونتمنى لم وطننا ينزلون فيه على الرحب والسعة . واني أتطلع وشعبي ايضآ الى مستقبل نستطيع فيه ان نتبادل التعاون لتصبح البلاد التي نشترك في الاهتمام بها ذات مركز بين الامم المتمدنة في العالم » .

لقد حدثني أحد أخصاء الملك فيصل ان الكولونيل لورنس قدم اليه كتابآ باللغة الانكليزية وطلب منه ان يوقعه ففعل دون ان يعرف ما فيه لانه كان موضع ثقته وعلى كل فالملك فيصل مسؤول سواء عرف ما تضمنه الكتاب او لم يعرف ولكن اذا نظرنا بحكمه نجد انه لم يقد الصهيونيين الا بالتحاذر حجة على رضى العرب عن الصهيونية .

وقد مرت الايام واليهود يبذلون جهودهم لحل معضلة فلسطين المعقدة فلم يتوصلوا الى حل مرضي لان بعض الدول رفضت قبول مبادي الرئيس ويلسون وبعضها تردت مساومة . وأخيراً اختلف اليهود والادارة العسكرية في فلسطين وتظاهروا ان البلاد بلادهم وما على العرب الا ان يرحلوا عنها ، فتارت ثائرة العرب وتمردت روحهم الوطنية ووقفوا بالمرصاد للصهيونيين فانفق ان كانت جماهير جبل الخليل قادمة الى القدس للاشتراك في موسم النبي موسى سنة ١٩٢٠ فتمحش بهم اليهود تمحشآ اعتبره أهل الخليل اعتداءً فهاجموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وما كاد البرق يتناقل هذه الحادثة الى سان ريمو حيث كان وزراء بريطانيا وفرنسا وايطاليا مجتمعين لتقرير صورة المعاهدة التي ستقدم الى تركيا والتي لم يكن فيها نص على فلسطين سوى ان تسلّم بها تركيا الى الحلفاء وهم يفعلون بها ما يرونه مناسبآ . وقد كانوا ينوون تأجيل النظر في مسائلها وتعيين شكل حكومتها النهائي ولكن حوادث القدس التي ربما كانت مدبرة من اليهود او الحكومة غيرت هذا المنهج وأمرع الحلفاء في تصفية الخلاف بينهم وبحثوا في فلسطين واعترفوا بمطالب الصهيونيين وأضافوا فقرة الى المعاهدة المصدقة في سان ريمو والتي وقع عليها الاتراك والحلفاء في سان ريمو بعد أشهر قليلة وهذه هي الفقرة :

توافق الدول الموقعة على هذه المعاهدة بموجب المادة ٢٢ من صك الانداب

وتعهد بإدارة فلسطين بالحدود التي سنقررها دول الحلفاء الى دولة وصية تختار من الدول المذكورة وتكون الدولة الوصية مسؤولة بتنفيذ التصريح الذي فاه به بلفور في ٢ شباط سنة ١٩١٧ بالنيابة عن الحكومة البريطانية والذي وافقت عليه دول الحلفاء والوارد فيه تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على ان لا يمس حقوق العرب المدنية والدينية ولا المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود خارج فلسطين . وقد تقرر ايضاً في سان ريمو بناءً على آماني الصهيونيين ان تكون الحكومة الانكليزية الحكومة الوصية على فلسطين . فأبدلت الحكومة الانكليزية الادارة العسكرية في فلسطين بإدارة مدنية وعينت على رأس هذه الادارة السير هربرت صموئيل (الصهيوني الصميم) الذي كان زار فلسطين ليدرس المشاكل الاقتصادية والسياسية فيها ، فجاء صموئيل وتولى منصبه مندوباً سامياً في فلسطين في ١ حزيران سنة ١٩٢٠ فقاطعه الوطنيون وجافوه ولكنه باشر بتأسيس ادارة مدنية وجلبه مشككتان صعبتان وهما : (١) الحدود (٢) مواد الاندباب ، وحلت هاتان المشككتان بالتدريج وفي المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا ، اما الحدود التي اقترحتها الصهيونيون أمام المجلس الاعلى فلم توافق عليها فرنسا لانها أصرت على الحدود المقررة في معاهدة سايكس بيكو وبعد مباحثات طويلة نسازل الفرنسيين عن مقاطعة المطلة وبانياس اما صور وصيدا والحجرى الاسفل لنهر الميطني ومنابع نهر الأردن والشاطيء الشرقي لبحيرة طبريا والجولان واليرموك فقد أخرجت منها خلا عدة أميال أضيفت الى فلسطين من شاطيء اليرموك الغربي قبل ان يصب في الأردن .

وقد قابل اليهود هذا الحل باستياء شديد لانهم رأوه يؤثر في استعمار البلاد ويضر بفلسطين وسورية . وأظهر الفرنسيون انهم لن يتنازلوا عن مطالبهم الا اذا توفقت انكلترا وفرنسا الى تعديل الاتفاق فيعطي الى فلسطين ما يزيد من مياه الأردن الشمالي واليرموك للنتفع منها بتوليد قواها الكهربائية او استعمالها في ري الارض وغير ذلك . وهكذا قد أضيف الى صك الاندباب بعض ما يتطلب اليهود وما يعود عليهم بالنفع ، وقد قدم صك الاندباب في كانون الاول سنة ١٩٢٠ الى عصبة جمعية الامم لاقراءه فتأخروا لان معاهدة تركيا في سيفر لم يكن صدق عليها .

كما ان الولايات المتحدة قد امتنعت ان تكون طرفاً في معاهدة السلم واقتصرت مطالبتها من فلسطين على ان تكون حقوقها التجارية مضمونة .
وكاد هذا التأخير يجعل مستقبل فلسطين السياسي غامضاً لان المفاوضات سارت ببطء ولم تنته حتى تموز سنة ١٩٢٢ حين بحث في الوصاية وصدقت عليها عصبة جمعية الامم .

وفي صيف سنة ١٩٢١ كان عدل سك الائتداب بشأن شرقي الاردن بفقرة هذا نصها : ان للدولة الوصية الحق بتأجيل او عدم تنفيذ بعض المواد الواردة في سك الائتداب الذي يتعلق في شرقي الأردن ، وهكذا خرجت الصهيونية رابحة بعض الربح من الحرب ولكن أعمالها لم تصطدم بقوة عملية بعد ، وانها وان كانت الآن في دور المدفسياتي عليها دور الجزر فلا يجد رجالها مأوى يعودون اليه ويندمون على ما فقدوه من تجانسهم باهالي البلاد الذين عاشوا واباع دهرأ طويلاً اه .

وضعت الحرب أوزارها وكل أمة ننظر ان يصيبها
الصهيونية بعد الحرب } قسط وافر من حقوقها المسلوبة . فكأن اليهود
المشتتون في أقطار العالم يتلمسون بصيص تصريح بلقور و ينظرون اليه نظرم الى سك
هبة او بيع قطمي يخولهم امتلاك فلسطين ، فشخت أنوفهم وأعلن قوادهم ان فلسطين
يهودية كما ان انكلترا انكليزية ، وما على العرب الا ان يرجعوا الى جوف جزيرتهم ،
ونشروا راياتهم بكثرة وفي كل مكان وانشدوا نشيدهم القومي ، وأخذت الحكومة
تصطبغ بالصبغة اليهودية فتولى رئاستها صهيوني صميم ورئاسة النيابةات صهيوني متطرف
ونغلغل الصهيونيون في جميع الدوائر وسيطروا على الادارة العامة وصارت اللغة
العبرية لغة رسمية ، وظنوا انهم سيأتي الى فلسطين الوف من اليهود بسرعة يولفون
الاكثرية الساحقة ثم ينشئون دولة يهودية تتم بها النبوات القديمة ، ولم يعلموا ما يقابلهم
من الصعوبات والعراقيل في تحقيق أمنيتهم ، وتجاهلوا ان البلاد يسكنها ثلاثة ارباع
مليون عربي يملكون أرضها ويستغلون مواردها ، فعشوا بالرأي العام الانكليزي وتمهونوا

في إيجاد عمل للمهاجرين وعجزوا عن إعداد سبيل المعيشة لهم فوُقت في أزمة اقتصادية وبقي قسم كبير من المهاجرين مدة طويلة بلا عمل .

أما الشعب العربي الجري فإنه كان ينظر من الحلفاء انصافاً لا سيما بعد ان انشقوا عن حكومتهم التركية وشاركوهم في الحرب . فكانت نفوسهم تصبو الى الاستقلال التام او على الاقل الداخلي تحت إشراف بعض الدول المخلصة . ولما انقشع ظل الاتراك ظهير الحلفاء بمظير الجشع وقسموا سورية الى حكومات وأجزاء فأدرك عرب فلسطين ان اليهود يسعون لتأسيس حكومة يهودية في مجرى نفس جسم البلاد العربية ، فغضبوا وانهبوا الجمعيات الاسلامية المسيحية وألبوا صدور الاهالي وأثاروا نفوسهم ، فاضطرت الروح الوطنية بين جوانحهم وعقدوا المؤتمرات واشترك مندوبوهم في المؤتمر السوري في دمشق وأعلنوا ان فلسطين جزء من سورية وأرسلوا وفوداً الى اوربا وانجاز لاستصراخ العالمين الاسلامي والمسيحي فقابلتهم الحكومة الانكليزية بكل جفاء وعبثت بمطالبهم وغالطت في التعابير الفنية والنفاسير السياسية ، وأصرت على اتباع سياستها القديمة التي ترمي الى فصل العالم الاسلامي والعربي عن بعض بوضع الصهيونيين حاجزاً بين الشام ومصر وانجاز والشام .

وارتاب العرب في الشق الثاني من وعد بلفور الذي يضمن حقوق سكان البلاد الحاليين لانهم رأوا تناقضاً بينا بين شقي التصريح المذكور ، فلو آمنوا بالشق الثاني وسلموا بمبدأ مهاجرة اليهود الى البلاد وفقاً لنص الشق الاول فان اليهود يصحون اصحاب الاكثريّة المطلقة في مدة وجيزة ، فاذا انسحب البريطانيون عندئذ فكيف يمكن تطبيق الشق الثاني .

لا شك ان العرب يقعون هنالك امام مشكل خطير وتصيح الاماكن المقدسة التي بأيديهم مهددة بمخطر انتقالها الى أيدي أعدائهم لا سيما وانهم يعتبرون أنفسهم والمسلم الاسلامي ينظر اليهم بانهم أوصياء يجب ان يحافظوا عليها ، فهاج هائج العرب وأبوا ان يدعوا لحكم السياسة وتزعزعت ثقة اليهود في تصريح بلفور واجتمعوا عن الهجرة الى فلسطين فذهب المندوب السامي الى لندن وطلب بياناً من الوزارة بحجة إزالة مخاوف

العرب وقصد تأمين اليهود ليقبلوا على الهجرة فأجيب طلبه وصدر بيان في حزيران سنة ١٩٢٢ وهذا ملخصه :

« لم تكن الغاية من تصريح بلفور جعل فلسطين يهودية والقضاء على الشعب العربي ولغته وآدابه او الخط من شأنها ، ولكن الغاية تأسيس وطن لليهود في فلسطين ، وليس للجمعية الموجودة في فلسطين نصيب في إدارة البلاد العمومية كما ان الجنسية التي ستمتد بها جميع سكان فلسطين تكون جنسية فلسطينية ليس لها علاقة باليهود او غيرهم . ان اليهود أعادوا في المدة الاخيرة بناء طائفة في فلسطين يبلغ عددها ٨٠٦٠٠٠ نفس يشتغل سدسهم في الزراعة ، ولهذه الطائفة هيئات سياسية خاصة فلها جمعية تنتخب لادارة شؤونها الداخلية ، ومجالس منتخبة في المدن ، وهيئة تشرف على مدارسها ولها رئيس حاخامين منتخب ومجلس رباني (محكمة شرعية) لادارة امورها الدينية ، وقد راجت لغتها العبرية وأصبحت لغة رسمية في دوائر الحكومة ، ولها صحافة عبرية نفي بحاجاتها . ويقصد من هذا العمل ان نثقل الطائفة اليهودية الحالية بمساعدة اليهود المنتشرين في العالم ليجعلوا البلاد مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي أجمع مميزات قومية . وليعلم العرب ان محبي اليهود الى فلسطين هو حق ثابت لهم لا منة بمن بها عليهم وقد سمح لهم بزيادة أفرادهم بالمهاجرة بقدر تحمل البلاد الاقتصادي » .

وقد عرض هذا البيان قبل نشره على الجمعية الصهيونية فوافقت عليه ، ثم عرض على وفد العرب الفلسطيني في لندن فحاول تعديل بعض فقره فلم ينجح ، فزاد كره العرب لليهود واشتدت المعارضة للصهيونيين .

وكانت البلاد تمشي الى الانحطاط بمساعي المندوب السامي تطبيقاً للفقرة الواردة في صك الانتداب وهي وضع البلاد في حالة اقتصادية وسياسية لافقارها وانتزاع الاملاك من أهلها ، فمنع تصدير الشعير حتى هبط سعره وخسر الاهالي خسارات باهظة ، وعمل أعمالاً أخرى أدت الى استياء العرب الشديد الذي طوره السياسة الصهيونية وأحالتهم الى كوارث فظيعة قصدت استغلالها لحدوث الثورات الآتية .

ثورة القدس } لكل بلاد اعياد، وفلسطين منبع هذه المواسم، فقد اشتركت فيها جميع الاديان . وموسم النبي موسى هو اعظم المواسم اذ يصادف عيد الفصح عند الطائفتين المسيحية واليهودية ، فالبلاد العربية الاسلامية البعيدة لها مواسم مستقلة من عهد المؤسس صلاح الدين الايوبي والبلاد القريبة تأتي متتابعة الى القدس ، وبلاد جبل الخليل اعلق الناس بهذه العادة ، فانهم يأتون بكثرة وجموع مبراسة ينشدون الاهازيج البدوية الثورية ، فلما قدموا الى القدس في يومهم المعروف بتحرش بهم اليهود فهيجوهم واثاروا حفيظتهم فحصلت معركة قتل فيها عشرة اشخاص من الفريقيين وكسرت ابواب دكاكين اليهود ونهبت بضائع ليست بقليلة واضطربت القدس واعلنت فيها الاحكام العرفية .

اما الثورة الثانية فسببها ان اليهود اتخذوا يوم تصريح بلفور الواقع في ٢ تشرين الثاني عيداً لم يتظاهروا فيه ويعلنون فيه سرورهم ، فقرر العرب جعله ذكرى حزن، وبؤس يقلون فيه حوائثهم ويخرجون الى الحلفاء على هذا الظلم ، وفتيانهم يطوفون الشوارع وينشدون اناشيد الرثاء الوطنية فانعتهم الشرطة وضرب بعضهم فاجاب كل من حقدهم واصطدموا باليهود وقتل بعض اشخاص ونهب المتاع .

* * *

ثورة يافا } يمكن ان نعد ثورة يافا ثورة سياسية تجلت فيها الروح العربية بكل مظاهرها . واسبابها ان فرع حزب بوعالي صهيون في يافا انضم الى حزب الاشتراكيين المتطرفين المعروفين (بالموبس) والدين من مبادئهم « ان القاء النزاع بين الطبقات اهم من التمسك بالوطنية والجنسية » . فحاول هذا الحزب الثوري استمالة هيئات العمال اليهود في فلسطين فرفض حزب (احادوت هاعابودا) طلبهم وابتى الانضمام اليهم ، فغضبوا وقرروا اعداد تربة فلسطين للثورة الاجتماعية . وفي خلال تشرين الاول والثاني سنة ١٩٢٠ حدثت قلاقل بين العمال واليهود في يافا حسمت على ايسر حال . وقد نشرت جمعية الموبس اعلانات في انحاء يافا وتل اييب وطلبوا من جميع العمال الاشتراك في الثورة الاجتماعية ، وان يخنفوا باليوم السابع من تشرين الثاني العيد السنوي لحكومة السوفييات في روسيا وهذا بعض ماورد

في الاعلانات « ليحيى اليوم السابع من تشرين الثاني يوم العمال الاشتراكيين ، لتسقط فرنسا وانكلترا ، لتحيى الجمهورية الروسية السوفيات ، ليحيى المؤتمر الاشتراكي الثالث لتحيى فلسطين الاشتراكية ، وحملوا راياتهم الحمر وساروا وفي مقدمتهم السيدة شارلوت روزنتال فحاولوا اكرام عمال اليهود على الاشتراك معهم فوافق بعضهم ورفض الآخرون فاعتدوا على المتعنتين وحصلت معركة بسيطة تدخل فيها الشرطة ثم اوقفت التعقبات بناءً على امر من حكومة فلسطين فاحتج العرب ومدير الشرطة وحاكم المقاطعة على انتهاك حرمة القانون وطلبوا من الحكومة ان تستعمل الشدة لزع الثوار في السجن فرفضت طلبهم وقررت ان لا تتخذ تدابير أخرى ضدهم .

وفي ١ ايار سنة ١٩٢١ خرج حزب المويس من ناديهم وعلى صدورهم شارات حمراء وفي ايديهم رايات كتب عليها بخط احمر جملة تحض الناس على الثورة وهذا نموذج منها : ليحيى المؤتمر الاشتراكي ، لتحيى النساء الحرة في الجمعية الاشتراكية ، ليحيى اليوم الاول من ايار لتسقط القوة الانكليزية القبرية ٠٠٠٠ الخ . فتعقبت الشرطة جموعهم المندفعة حتى سالت في شوارع تل ابيب وصادمت اليهود واطلقت عبارات نارية فظنها العرب مظاهرة مقصودة وجهت اليهم وتحسبوا من شر مداهم فتمسكوا للدفاع عن انفسهم ، وسرعان ما اشتبكوا مع اليهود واهرقت الدماء وامتدت الثورة الى الضواحي حيث هوجمت بعض المستعمرات الصهيونية ودام القتال ثلاثة ايام فقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ وقتل من العرب ٤٨ نفساً بما فيهم البدو والقرويون وجرح ٧٣ ، فاعلنت الاحكام العرفية ووضعت غرامات باهظة على الذين اشتركوا في هذه المعركة من العرب وحرق بيت الشيخ شاكر ابو كسك قائد الثورة خارج يافا ، وقد اسفاد اليهود من ضباطهم المنحرفين في الجيش اذ ساعدوهم كثيراً ، والبسوا شبابههم ثياباً عسكرية وسلحوهم ببنادق الجند واهمو العرب انهم جنود انكليزية .

كان عدد اليهود قبل احتلال الانكليز ٥٥ الف نفس فلما
 أبعثت المهاجرة وطم سيلها وتدفتت جموع الصهيونيين واكثرهم
 من شرق اوربا أنشئت الحكومة (دائرة المهاجرة والسفر) لتسهيل الهجرة الصهيونية ،

ثم تحولت هذه الدائرة الى فرع خصوصي في ديوان امين السر العام وارسلت الحكومة
 مأمورين من اليهود على نفقة الوطنيين لتشجيع العجزة وترويجها فذهب احدهم الى ترستا
 ثم الى فارسوفيا وفعلا ما استطاعوا ، وقد بلغ عدد اليهود في الاحصاء الرسمي سنة
 ١٩٢٢ (٨٤٦٠٠٠) نفس وقدر عددهم في آذار سنة ١٩٢٥ (١٠٨٦٠٠٠) شخص .
 وبعض هؤلاء المهاجرين متدين وبعضهم بولشفيكي وهم فئة قليلة وبعضهم جهلاء
 متشردون وبعضهم متعلمون ، وكلهم وضع نصب عينيه اخراج العرب من البلاد
 وامتلاكها وان اكثر من ثلاثة ارباع اليهود يسكنون في المدن والباقي في القرى .
 وقد بذل اليهود جهوداً كبيرة لشترى الارض والاستعمار الزراعي في فلسطين بيد ان
 المهاجرين رغم ماليتهم الشخصية وما يتوارد عليهم من المساعدات الخارجية وما يتبع ذلك
 من التنظيم ، بالفلون المدن ويتركون القرى كما يشاهد ذلك ، وقد دلت الاحصاءات
 على ان قسماً قليلاً منهم يحترف الزراعة فالاربعون الف مهاجر الذين دخلوا فلسطين لم
 يشتغل منهم في الزراعة سوى ثمانية آلاف وتسلل الباقون الى المدن الكبيرة مثل
 القدس ويافا وحيثما فتحتوا الحوانيت المختلفة كالحلاقة وبيع السلع البسيطة واهملوا
 الزراعة . والذي يعلم ان فلسطين بلاد زراعية وان الزراعة هي المهنة المنتجة الرئيسة فيها
 يتأكد ان الصهيونيين لم ينجحوا من هذه الجهة كثيراً .

نقدر مساحة فلسطين بعشرة آلاف ميل مربع تقريباً نصفها جبال قاحلة وارض
 رملية وصحراء بلقع والنصف الآخر كله قابل للزراعة . فاليهود كانوا يملكون قبل
 الحرب نحو ١٧٧ ميلاً مربعاً من مجموع مساحة البلاد وكان لهم ٤٣ مستعمرة . اما اليوم
 فيملكون نحو ٣١٩ ميلاً مربعاً اي ستة في المائة من مجموع الارض الزراعية ومستعمراتهم
 بلغت نحو ١٠٠ قرية اكثرها في الساحل وبعضها اشتراكية . فالبيع والشراء والزراعة
 والاكل والمعيشة كلها مشتركة والعزاب نساء ورجالاً ينامون معاً اما المتزوجون فلهم
 غرف خصوصية ، ويؤخذ الاولاد من والديهم يجعلون تحت المراقبة ويعنى بامرهم لانهم
 ملك مشترك للمستعمرة . واكثر مستعمرات اليهود تعتمد على المساعدات الخارجية وعلى
 قروض المصارف ويملك البارون روتشلد ٤٠ ٪ مما يملكه اليهود في فلسطين .

الحكومة . وقد كان لليهود سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ مائة وعشر مدارس فيها ١١٦٢٢٠ تلميذاً و ٥٨٤ معلمًا وفي سنة ١٩٢١ بلغت مدارسهم نحو ١٣٥ مدرسة فيها ٥٢٣ معلمًا و ١٢٦٨٣٠ طالبًا وهي موزعة كما يأتي : في القدس ٣٣ مدرسة وفي يافا ١٧ وفي حيفا ٦ وفي طبريا ٤ وفي صندة وفي المدن الاخرى ٧ و ٥٨٧ في مستعمراتهم و ٦ في سورية .
و يقدر ان ٨٣ ٪ من ابناء اليهود في فلسطين يتعلمون في المدارس اليهودية ،
و يندران يدخلوا المدارس الاجنبية . اما المدارس اليهودية في فلسطين فمتنوعة
فبينما تجد المدرسة الدينية التي تشبه الكتاتيب المعروفة عند العرب ولا تعلم سوى
التلمود والتوراة على الاصول القديمة ، تجد من جهة اخرى بساتين الاطفال الحديثة
تسير على نظام منسوري وفروبل . وهي انواع فنها مدرستان ثانويتان اختلط فيهما
الشبان والشابات احدهما في القدس والاخرى في يافا ، ولم مدرسة صناعية في حيفا ،
ولم دار معلمات في يافا ، ودار معلمين في القدس ولم مدرسة نبتة الزراعية التي أسست
منذ ٥٠ سنة تقريبًا وفيها ١٠٠ طالب وقد كانت تابعة للجمعية الاتحاد الاسرائيلي
(الاليانس) فألحقت مؤخرًا بالجمعية الصهيونية . ولم مدرسة تجارية في يافا وثلاث
مدارس للموسيقى ومدرسة للفنون الجميلة في القدس تدعى هاموليل . ولغة التعليم
في جميع هذه المدارس العبرية و برامجها تشبه برامج مدارس اواسط اوربا مع
تعديل طفيف . وهم يشددون الى حد الافراط في الاهتمام بتعليم جغرافية البلاد
وتاريخها اليهودي .

ومجموع ما انفقته ادارة المعارف الصهيونية سنة ١٩٢٠ (١٢٠) الف جنيه اي ينفق
على كل تلميذ تسعة جنيهات وهو معدل باعظ جدًّا . ولكن موازنتهم اخذت لتناقص
الى ان بلغت ٨٠٦٠٠٠ جنيه رغم ازدياد الطلاب .

وفوق هذا فقد ساءت الحالة المالية وامتنعت ادارة المعارف الصهيونية عن دفع
راوتب المعلمين فتذمروا وانذروها بالافلاخ عن العمل ان لم توجههم الى مطالبهم فلم
تضع اليهم وعجزت عن اداء عمالاتهم فأضربوا شهرًا كاملاً ثم حل المشكل حلاً سياسيًا .

أما الرسوم في المدارس اليهودية فهي عالية جداً فالطالب الخارجي في المدرسة الثانوية يدفع ما يقارب العشرين جنيهاً سنوياً لقاء التعليم فقط « تأمل »
وقد أسس اليهود « أو بيرا » اسرائيلية الا ان الاقبال عليها قليل لكون لغتها عبرانية ويُقدر ما أنفقه اليهود من المال بعد الحرب بستة ملايين جنية . مليون واحد اشترى به ارضاً ومليوناً للصنائع ونصف مليون للمساعدات وثلاثة ملايين ونصف للاستعمار والتهديب وللأمور المختلفة من سياسية وادارية .

المصارف والصحف } ان اعظم مصرف لليهود في فلسطين هو بنك
انكلو فلسطين الذي كان رأس ماله سنة ١٩٢٠ (١٠٠) الف جنية وفيه من الودائع ٧٠٠ الف جنية اما الآن فقد زيد رأس ماله الى ٣٠٠ الف جنية وقد احتفظ هذا المصرف بارباحه ولم يوزعها منذ سنة ١٩١٤ واسباب ذلك انه اضطر الى تسليف المستعمرين قروضاً لممدد طويلة . وادارة هذا المصرف العليا في لندن وله فروع في امهات المدن الفلسطينية والسورية ولم يغير هذا المصرف مصارف عقارية . وأخرى تسلفهم للبناء وكلها تفضل معاملة اليهود على غيرهم وتعطيهم بفائدة اقل مما تأخذه من العرب .

واليهود يضع صحف في فلسطين يصدر بعضها باللغة الانكليزية مثل « فلسطين الاسبوعية » « النشرة الفلسطينية » وبعضها يصدر باللغة العبرانية ومنها دَوَّار لسان حال العمال وها آرتس ، ودوَّار ها يوم . وكولي اسرائيل لسان حال الارثوذكس ومجلة هايشوف وغيرها من الصحف التي لا قيمة لها .

مشروع روثنبرغ } في ٢١ ايلول سنة ١٩٢١ عقد اتفاق بين وكلاء التاج
بالتبابة عن السرهربرت صموئيل المندوب السامي لفلسطين
وبين بنجاس روثنبرغ المهندس الروسي على ان يتمكن روثنبرغ المذكور خلال سنتين من جمع مليون جنية لشركة تؤسس في فلسطين وان يتمكن من جمع ما لا يقل عن مائتي الف

جنيه نقداً ، فإذا قام بهذه الشروط فالمندوب السامي ينجح امتيازاً مدة سبعين سنة للاستفادة من مياه الانهار الآتية :

(أ) مياه نهر الاردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافد نهر الاردن التي تقع في الارض التي يسيطر عليها المندوب السامي لفلسطين .

(ب) مياه نهر الاردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافد نهر الاردن الخارجة عن الارض الخاضعة للمندوب السامي والواقعة في منطقة الانتداب الافرنسي . وذلك لتوليد القوى الكهربائية وغيرها . ثم رخص له ان يبني على جسر الجامع محطة كهربائية بعد سنة وان يستعمل بحيرة طبريا خزاناً للمياه التي يريد الاستفادة منها وان يبني سدّاً عليها رفع المياه الى درجة معلومة ، وتنتقل هذه المياه باقنية نشاد لهذه الغاية وسمح له ايضاً بان يبني غير تلك المحطات متى رآها ضرورية لتوليد القوى الكهربائية . وان يغير مجرى نهر اليرموك وروافده وبشوقه الى بحيرة طبريا وان يستملك من الارض والابنية ما يراه ضرورياً لهذا المشروع .

ومنع ايضاً استثمار نهر العوجاء بالقرب من يافا . وتعهدت الشركة بان تبدأ بالعمل بعد اثني عشر شهراً وان تنجز المشروع في مدة خمس سنوات . لكن عدل هذا الشرط الاخير ورخص للشركة بتمديد هذه المدة وتعهدت اذا هي تأخرت عن انجاز هذا العمل في الخمس سنوات اوفي المدة التي يعينها المندوب السامي ولم تقم بالعمل تدفع عن كل شهر التي جنيه لحكومة فلسطين ويحق للمندوب السامي الغاء هذه الاتفاقية .

اصلاح شيء اصابه البلى اسهل من خلق شيء من
 نظرة في نجاح الصهيونية }
 الغد ، والصهيونية مهاانقدت فانها فكرة خيالية
 لاحقيقة لها اوجدتها هوى بعض اليهود المنتشرين في الارض لاستيطان بلاد اجتازوا
 بها وسكنوها رداً من الزمن ثم جلوا عنها كما فعل العرب في الاندلس ، والفرق بين
 الحادئين كبير لان العرب غرسوا مدينية فأزهرت وابتعثرها فانظروا بعدمهم الى الحمراء ،
 اما اليهود فقد زالت آثارهم واندرست مدينتهم الساذجة . فمطالبتهم بالرجوع الى
 هذه البلاد من الصعوبة بمكان . (١) لاجحاء قوميتهم . (٢) لتشتيت نزعاتهم ونقل ايدهم

(٣) اليهود يجمعهم الدين ويفرقهم الامم فلهم دين واحد ولكنهم امم شتى . (٤) لا يجتمعون تحت وحدة ولا يسرون في منهج . (٥) البلاد يمتلكها اصحابها وهم جزء من محيط عربي عظيم .

فاليهود وان تقدموا قليلاً فلا إخال نجاحهم الاموقتاً ولو ساعدتهم بريطانيا ودول الغرب لان كل حركة ليست طبيعية ودافعها غير عقيدة صادقة فعاقبتها النشل . اما اعمال اليهود خارج فلسطين بعد الحرب فانهم انصرفوا لاقناع اوربا بان العرب راضون عنهم وعقدوا بعض مؤتمرات وعدلوا بعض خططهم وجمعوا اموالاً حمة وتوددوا الى البلاد المجاورة لهم وطاف دعائهم على الاقطار التي يسكنها اليهود واكتفوا بحصر قواهم العملية داخل فلسطين ومراقبة الحركات السياسية الدولية العالمية^(١) .

في نيسان (١٩٢٥) خطب اللورد اللنبي المعتمد البريطاني في مصر في حفلة مقابر الحرب البريطانية في غزة خطبة ذكر فيها السامعين بان هذه البقعة جرت عليها معارك حربية قديمة وحديثة واثني على الابصال البريطانيين الذين ضحوا نفوسهم فطردوا الاتراك في محاولاتهم الثلاث . وقد ذكر بعضهم ان قتلى البريطانيين في البقعة التي حارب بها شمشون في غزة خمسة آلاف جندي .

وفي هذا الشهر وقعت فتنة بين اهالي قرية العاليات من عمل حمص بعضهم مع بعض وبينهم وبين الحكومة انتهت بقتل اربعين نفساً وثمانية واربعين جريحاً ويقال ان خمس أسر فنيت على بكرة ابيها والسبب في ذلك ان رجلاً من العلويين اسمه شعبان من اهل وادي البرغل من عمل اللاذقية قام منذ السنة الماضية يدعو التصيرية الى ادخال الاصلاح على مذهبهم ، وتعاليمه تدور على روحانية الامام علي بن ابي طالب

(١) المصادر : المعلة الانكليزية . المعلة اليهودية . بقظة فلسطين « لشتين » . تاريخ الصهيونية (لسو كولوفا) . تاريخ الصهيونية لروحي بك الخالدي مخطوط . تقرير مندوب فلسطين السامي . تقرير قاضي القضاة في فلسطين . منشور الحكومة الرسمية . معلومات خصوصية من الدوائر الرسمية ، جرائد فلسطين .

في الالهية ، وتخطئة من يزعم وجوده في الشمس كالثالين او القمر كالكلابيين
وقد اوجب على اتباعه صيام رمضان والصلوات الخمس وتعليم النساء خلاقاً لما جرى عليه
الاسلاف في المذهب العلوي من حظر التدخين على النساء فانقاد الى رأيه كثيرون
ولا سيما عشيرة المتاوره ولما كان قد بقيت بعض البيوت في قرية العاليات لم تمذهب
بمذهبه وقع بينها وبين من دانوا به خصام ادى الى القتل وتدخل الحكومة .

وفي سلخ ذي الحجة حدث اختلاف بين السلطة المنتدبة وزعماء جبل الدروز
ادى الى نفي بعضهم الى اصقاع من بلاد الشام ونشبت فتنه بين الدروز والحامية ادت
الى قتل بضع مئات من الفريقين ، وخربت السلطة بضع قرى بالقنابل التي قذفت بها
من الطيارات والمدافع ، ودخلت السنة الجديدة ولم تعرف نتائج هذه الوقائع وسكان
الجبل تزداد كل يوم رابطتهم . وقيل ان للبد الاجنبية يداً في اثاره هذه الفتنه
و يؤكد العارفون ان منشئها من ضعف الادارة وعدم معرفة طبائع القوم .

يقف القلم عند هذا الحد من تدوين التاريخ السياسي في الشام الى سلخ ذي الحجة
سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة بعد الالف للهجرة الموافقة لسنة خمس وعشرين
وتسماية والفي لميلاد ، ويصعب الآن اصدار الحكم الاخير على حال الشام في هذا
الدور ، دور الانتداب البريطاني في فلسطين و عبر الاردن ، والانتداب الافرنسي في
سورية الداخلية وساحل الشام او لبنان وما اليه من بلاد العلويين لان الانتدابين
مايرحا في طور التجربة في الادارة . وقد اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا على الانتداب
وعلى الجيوش اللازمة لها في البلاد التي انتدبوا لتدرب بها على الحكم الذاتي عشرات الملايين
من الليرات وما زال الشام يئن ويشكو من نفريقه وتمزيقه .



التقسيم الادارية الحديثة

—>>><<<—

نقاسيم القديما } كان الشام ينقسم في تقاسيمه الادارية بحسب مصلحة المتغلبين
 قبل الاسلام } عليه وعمران البلاد ، ولما كان يطلق عليه اسم آرام كان يقسم
 الى عدة اقسام مثل ارام صوبا و ارام معكة و ارام بيت رحوب و ارام دمشق و فدان دمشق
 وهي اقسام مملكة ارام ، وكانت دمشق قصبتهما ، اي انها كانت منقسمة بين ملوك
 كثيرين كملوك دمشق ورحوب و صوبة و جشور على ما يفهم من رواية التوراة .
 و اراد الرومان اضافة فلسطين الى ولاية سورية الرومانية سنة ٦٦ ب ٠ م ولما نظم
 اغسطس قيصر مملكته وصارت سورية ولاية امبراطورية عاصمتها انطاكية احتفظت
 بعض مقاطعاتها باستقلالها فكانت خلكيس (عين جبر او عنجبر) مملكة صغيرة ، و ايبيلينه
 (وادي بردى) رياسة ربع ، و دمشق مستقلة بعض الاستقلال الى ايام نيرون .
 و وسد امر اليهودية لوال كان له بعض الاستقلال في حدود ولايته تحت ادارة والي
 سورية ، وكانت تدمر مستقلة في سلطانها الى سنة ١١٤ م و اضاف الامبراطور ثراجان
 الاصقاع الواقعة ما وراء الأردن ، وقضى على مملكة النبطيين وجعلها حكومة متمسزة
 سماها الولاية العربية وجعل بصرى عاصمتها .
 وقسم ساويرس الروماني سورية الى قسمين وجعل القسم الاول الى الشمال ،
 وفيه سورية الكوجمانية وسورية المحوفة اي السهول التي على ضفتي العاصي الى انطاكية
 والحجر وما بين اللكام و لبنان ، والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية
 والشطوط البحرية و شرقي لبنان الى وسط البرية وفيه بعلبك و حمص و دمشق و تدمر .
 و انقسمت مملكة الشام بعد مقتل ديمتريوس الى قسمين ملكت كلوبطرا في عكا و جنوب

المملكة ومالك زبينا في انطاكية وشمالها وكانت الشام مقسومة الى قسمين سورية وفلسطين
واطلق اسم سورية على الاثنين منذ اضافتها الى المملكة الرومانية قبل المسيح بمدة .

اجناد الشام } وقسم الاوائل الشام خمسة اقسام الاول فلسطين ومن
وتقسيم العرب } مدنها ايليا وهي بيت المقدس وعسقلان ولدونابلس وحبرون
اي الخليل والثاني حوران ومدنتها العظمى طبرية ، والثالث الغوطة ومدنتها العظمى
دمشق ، والرابع حمص ، والخامس قنسرين ومدنتها العظمى حلب وهو اشبه بتقسيم
العرب للبلاد الى خمسة اجناد اي خمسة فيالق ، وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ،
وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين .

قال بعضهم: سمي المسلمون فلسطين جنداً لانه جمع كوراً وكذلك دمشق وكذلك
الأردن وكذلك حمص مع قنسرين . وقال بعضهم: سميت كل ناحية لها جنديقبضون
اطاعهم بها جنداً وذكروا ان الجزيرة كانت الى قنسرين فجندها عبد الملك بن مروان
اي افرادها ، فصار جندها يأخذون اطاعهم بها من خراجها ، وان محمد بن مروان كان
سأل عبد الملك تجنيدها ففعل ، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان
يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جنداً . وافرد الرشيد قنسرين
اي كورة حلب بكورها فصيرها جنداً واحداً .

ومعلوم ان العرب اطلقوا اسم الشام على سورية وفلسطين معاً وهذه القسمة اي
قسمة الشام الى قطرين لاتوافق عليهما الطبيعة كما قال العارفون من علماء الجغرافيا
المحدثين لانها شيء واحد وما هي الا اعتبارات سياسية صرفة وهو تقسيم موضوع على
التعارف كما قال المقدمي ، وقد قسم الشام الى ست كور وقال : فان قال قائل لم
جعلت قسبة الكورة حلب (اي لم يجعلها قنسرين كما كان مصطلح العرب الى القرن
الثالث) وهننا مدينة على اسمها قيل له قد قلنا ان مثل القصبات كالقواد والمدن كالجنود
ولا يجوز ان نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين اليها
وانطاكية ونفاسيتها وبالس وعمارتها اجناداً لمدينة صغيرة اي قنسرين التي وصفها
بانها مدينة خف اهلها .

التقسيم في عصر } وما زال تقسيم الشام الى اجناد مدة الامو بين وطرف
 الصليبيين والماليك } صالح من عهد العباسيين ، ويفرق العمال الذين ينصبونهم
 على البلاد بحسب ما يرون فيه المصلحة ، دام ذلك الى القرن الخامس فكانوا يقطعون
 بعض الاعمال ويدعونها ممالك فكانت صرخد مملكة والزبداني مملكة وحمص مملكة
 وحماة مملكة وحلب مملكة . وهذا التقسيم مخجل بالطبع لاختلال احوال البلاد بالحروب
 الصليبية قال القلقشندي : قواعد الشام ست كل قاعدة منها تعد مملكة بل كانت كل
 قاعدة منها مملكة مستقلة بسطان في زمن بني ايوب وهذه القواعد الست العظام هي دمشق
 وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك . بل كانت الغوطة والمرج من عمل دمشق
 ولاية رأسها كما كانت الجبل ووادي بردى وبيسوس ولاية وكما كانت بيت لهيا في
 الغوطة ولاية على عهد الامو بين .

ولما جاء دور المالك اصبحت الشام تقسم الى قسمين جنوبي وشمالي ويعين لكل
 منها كافل اي وال يقم كافل القسم الاول في دمشق ويقال له كافل المالك الشامية
 وينزل عامل القسم الثاني في حلب ويقال له كافل المالك الحلبية . وفي سنة ٧٦٨
 جعل الملك الاشرف من ملوك الترك حلب اكبر من دمشق كما كانت على القواعد
 القديمة وعد الظاهري سبع ممالك في الشام في القرن التاسع وهي المملكة الشامية
 والمملكة الكركية والمملكة الحلبية والمملكة الطرابلسية والمملكة الحموية والمملكة
 الصفدية والمملكة الغزاوية .

وكان لدمشق اربع صفقات غربية وهي الساحلية والقبلية والشامية والشرقية ففي
 الصفقة الاولى وهي الغربية عشر نيبات وخمس ولايات . فاما النيبات فمنها غزة
 والقدس والولايات فمنها ولاية الرملة والدد وقاقون وبلد الخليل ونابلس . واما الصفقة
 القبلية وهي الثانية ففيها نيبات وثمان ولايات ، فاما النيبات فالاولى منها نيابة قلعة
 صرخد ونيابة عجلون . واما الولايات فالاولى ولاية بيسان وولاية بانياس وولاية قلعة
 الصيبة وولاية الشعراء واذرعات وحسبان والصلت وبصرى . والصفقة الشمالية وفيها نيابة
 واحدة وثلاث ولايات . فاما النيبات فبعلبك واما الولايات فالاولى ولاية البقاع البعلبكي
 والثانية ولاية بيروت والثالثة ولاية صيدا ، والصفقة الرابعة الشرقية وبها ثلاث

نيابات واربع ولايات . وهناك نيابات حلب ونيابة طرابلس ونيابة صغد وولاية تبينين وهونين وولاية الشقيف الي غير ذلك من مصطلح القرن الثامن للهجرة .

ولما جاء العثمانيون قسموا الشام ثلاث نيابات او ايالات
 على عهد العثمانيين } وهي دمشق وحلب وطرابلس وظل هذا التقسيم الي
 ما بعد عهد السلطان احمد فكانت دمشق وهي أعظمها عبارة عن عشرة الوية واهمها
 القدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت وصيدا وولاية طرابلس خمسة الوية وهي طرابلس
 وحماة وحمص وسليمة وجبله . وقسمت حلب تسعة الوية تتناول سورية الشمالية
 برمتها ما عدا عينتاب التي كانت تابعة لولاية مرعش وفي سنة ١٦٦٠ م احدثت الدولة
 ولاية جديدة وهي صيدا لمراقبة الجبل . وقد امتدح الجنرال دي تورسي من طرز
 الادارة التي منحها سليم الاول للشام وهي التي كان عليها العمل في الاكثر الي خروج
 الاتراك من هذا القطر ، وذكر بعضهم ان الشام كانت على عهد اوائل الحكم العثماني
 اربع ايالات كبرى وهي دمشق وحلب وصيدا والقدس وان تقسيمها الي ثلاث ايالات
 كما مر حدث بعد زمن .

وفي سنة ١٢٧٢ هـ كانت الشام تقسم ايالتين ايالة دمشق وايالة صيدا ولما نظمت
 الولايات على اسلوبها المتعارف اخذ لواء الرها (اورفة) من الجزيرة ولواء مرعش من
 الاناضول والحقا بجلب فجعلت ولاية وجعلت بقية الشام ولاية جسيمة حاضرتها دمشق .
 وأنشئت القدس لواء مستقلاً سنة ١٨٧٠ تفاوض الباب العالي في الاستانة مباشرة
 وكانت بعد خروج المصريين (١٨٤٠) تجعل القدس تابعة لايالة صيدا تارة وطوراً
 تابعة للباب العالي واصبح لبنان مؤلفاً من افضية الكورة والبترون وكسروان والمتن
 والشوف وزحلة وجزين وظلت بيروت وطرابلس ونابلس واللاذقية وعكا واعمالها
 تابعة لولاية دمشق ، وبقي مركز الجيش دمشق على ما كان عليه قبيل دخول ابراهيم
 باشا . وفي سنة ١٨٨٢ جعلت القدس متصرفية مستقلة وجعلت الكرك اي ما وراء
 الاردن متصرفية برأسها وجعلت بيروت سنة ١٨٨٨ ولاية مستقلة عن دمشق
 لموقعها الاقتصادي وازيفت اليها عكا ونابلس واللاذقية وطرابلس وصور وصيدا

ومرجعيون . وكان لبنان جعل منذ سنة ١٨٦٠ مستقلاً استقلالاً ادارياً يتولاه متصرف من الباب العالي برتبة وزير وتصادق على تعيينه الدول الست العظمى .
 ويوم جلا الاتراك عن الشام كان يقسم الى ثلاث ولايات وهي دمشق وحلب وبيروت وثلاثة الوية مستقلة اي ولايات صغيرة مستقلة تفاوض الباب العالي مباشرة وهي القدس ولبنان ودير الزور . واصطُح في فلسطين اولاً على جعلها اربعة الوية وهي لواء القدس ويافا ولواء الجليل ولواء السامرة واللواء الشمالي . وجعلت المدن الاربع دمشق وحلب وحماة وحمص وما يتبعها دولة قسمت الى عدة الوية وهي الكرك وحووران ودمشق وحمص وحماة ودير الزور وحلب والاسكندرونة واستقل لواء اللاذقية .

و بحسب التقاسيم الادارية الاخيرة تقسم حكومة فلسطين } تقاسيم فلسطين
 الى ثلاثة الوية وهي (١) لواء القدس ويافا ومركزه القدس (٢) اللواء الجنوبي ومركزه غزة (٣) اللواء الشمالي ومركزه حيفا . ويقسم لواء القدس ويافا الى سبعة افضية وهي قضاء القدس ورام الله واربعا وبيت لحم ويافا والرملة . ويافا امتياز شبيه باستقلال اداري . ويقسم اللواء الجنوبي الى اربعة افضية وهي قضاء غزة والمجدل وبئر السبع والخليل . ويقسم اللواء الشمالي الى عشرة افضية وهي قضاء حيفا وعكا وزمارين والناصرية وطبرية وصفد و نابلس وطولكرم وجنين ويسان .

وتقسم حكومة الشرق العربي الى اربعة الوية وهي (١) اي شرقي الاردن } تقاسيم الشرق العربي
 لواء عمان ويتبعه قضاء مادبا وناحية الزيزة ومركزه عمان . (٢) لواء الصلت ومركزه الصلت . (٣) لواء اربد ومن عمله افضية جبل عجلون وجرش وأم قيس ومركزه اربد ، ويتبع المركز رأساً ثلاث نواح وهي الرمتا والكورة والغور ، ومن عمله قضاء جرش ناحية الزرقاء (٤) لواء الكرك ويتألف من قضاءي الكرك والطفيلة ويتبع الكرك مباشرة ثلاث نواح : المزار ، الساكية ، الغور وقد اضيفت العقبة ومعان الى الشرق العربي حديثاً .

وتقسم دولة سورية الى سبعة الوية وهي لواء (١) دمشق
 ودولة سورية } و (٢) حوران و (٣) حمص و (٤) حماة و (٥) حلب و (٦)
 دير الزور و (٧) الاسكندرون . ويقسم لواء دمشق الى ستة اقسية وهي (١) قضاء دوما
 وفيه ناحيتان « تل منين » و « دير سلمان » (٢) قضاء جبرود وفيه ناحية القطينة
 و (٣) قضاء النبك وفيه ناحية ببرد و (٤) قضاء الزبداني و (٥) وادي العجم وفيه
 ثلاث نواح وهي الطيبة ومركزها زاكية و « بيت جن » و « الدير علي » (٦) القنيطرة
 وفيه ناحية مجدل شمس .

ولواء حوران وبلحق بمركزه ناحيتا بصرى وطفس و يتبعه قضاء آن ازرع والزوية
 وفيه قضاء ازرع خمس نواح وهي نوى ، المسمية ، الصنمين ، اللجاء الجنوبية ،
 اللجاء الشمالية .

ولواء حمص ومن عمله خمس نواح وهي حسية ، الرستن ، عين ظاظا ، القصير ،
 جب الجراح . ويتبع حمص قضاء واحد وهو « القر يتين » وفيه ناحية تدمر و يتبع لواء
 حماة ثلاث نواح وقضاء واحد فيه ثلاث نواح ايضا فنواحي اللواء طار العلا ، الحميرة
 بارين والقضاء سلمية وفيه ثلاث نواح ، عين كاسون ، عقيربات ، معر شحور .

لواء حلب وبلحق به عشرة اقسية (١) جرابلس ولها ناحيتان ناحية قلقوم وناحية
 جسر ين و (٢) جبل سمعان وفيه ثلاث نواح عنان الزربة ، ابو الظهور و (٣) الباب
 وفيه ناحيتا دير صافر ، صوسنباط و (٤) المعرة ولها ناحيتان الاندرين ، خوين الكبير
 و (٥) اعزاز وفيه ناحية نين و (٦) منبج وفيه ناحيتان ابو قلقل ، مسكنة و (٧) كرد
 طاغ وله اربع نواح ناحية فاطمة ، الجوم ، راجو ، بلبل و (٨) حارم وفيها اربع نواح
 كفر تخاريم ، باريشا ، سلقين ، ترمانيين و (٩) جسر الشغور وفيها ناحيتان دركوش ،
 المضيق و (١٠) ادلب وفيها ثلاث نواح أريحا ، سرمين ، معرة مصرين وأطلق على
 لواء حلب اسم ولاية حلب .

ويقسم لواء دير الزور الى ستة اقسية جعلت مراكزها الآت (١) دير الزور .
 (٢) الرقة . (٣) الميادين . (٤) البوكمال . (٥) حسيجة . (٦) كرو . ويقسم قضاء
 دير الزور الى اربع نواح مراكزها في دير الزور وكسره ومرط وسوار . وقضاء

الرقعة الى خمس نواح مراكزها الرقة وخرابة الرز ومرابط وابو هريرة وسبخة . وقضاء
الميادين الى ناحيتين مركز احدهما ميادين والثانية عشارة . وقضاء البوكمال الى
ناحيتين مركز احدهما البوكمال والثانية الصلاحية . وقضاء حسنجة الى اربع نواح
مراكزها في شدادي وحسنجة ورأس العين وعاموده . وقضاء كرو الى ثلاث نواح
مراكزها كرو وعزنور وديرون اغا .

* * *

وتنقسم دولة جبل الدروز الى ثلاث عشرة ناحية وهي
عري ، القرية صرخد ، ملح ، سالة ، المجدل ، نجران
عاهرة ، وادي اللوى ، الهيت ، شهبه ، سليم ، نمره . ومركز الدولة قرية السويداء .

* * *

يقسم لبنان الكبير الى احدى عشرة محافظة وتقسّم كل
محافظة الى مديريات وهي (١) محافظة صيدا ومركزها
مدينة صيدا ومن عملها مديرية النبطية ومديرية عدلون ومديرية جزين (٢) ومحافظة
صور مركزها في مدينة صور ويتبعها مديرية تبنين ومديرية علما ومركز المحافظة
مدينة صور (٣) محافظة مرجعيون مركزها الجديدة ومن عملها مديرية حاصبيا (٤)
محافظة بيروت مركزها مدينة بيروت (٥) محافظة الشوف مركزها بعقلين ويتبعها
مديريات الخنارة وشحيم وعين زحلته ورشميا والشويفات وعاليه ومديرية دير القمر
المستقلة (٦) محافظة طرابلس ومركزها مدينة طرابلس ويتبعها مديريات حلبا وقبيبات
وسير (٧) محافظة المتن ومركزها بجنس ومن توابعها مديرية بكفيا وبرمانا وبسكننا
وجمانا (٨) محافظة بعلبك ومركزها مدينة بعلبك ويتبعها مديريات ظلليا ودير الاحمر
والهرمل ورأس بعلبك (٩) محافظة زحلة ومركزها مدينة زحلة ويتبعها مديريات
قب الياس وسغبين وراشيا (١٠) محافظة كسروان ومركزها غادير وبيت خشبو ومن
عملها مديريات جبيل وزيفون والكفور وقرطبا (١١) محافظة البترون ومركزها مدينة
البترون ومن عملها مديريات ننورين وبشري وأميون .

* * *

تقسم حكومة العلويين الى لوائين (١) لواء اللاذقية
 ومركزها مدينة اللاذقية وتقسم الى خمسة أفضية وهي
 اللاذقية وجبله وصهبون وقضاء المرقب مركز حكومته بانياس وقضاء العمرانية ومركز
 حكومته مضاياف (٢) لواء طرطوس ويقسم الى ثلاثة أفضية وهي طرطوس وصافيتا
 وقصبتها دريكيش والحصن وقصبتها تل كلنج . اما جزيرة ارواد فسنقلة وتعد من
 دولة العلويين .



العقود والعهود الاخيرة (١)

—ooo—

صورة الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية والحكومة
البريطانية لاجل تثبيت اتفاقية ساكس بكو بواسطة السرادوار غراي
وم . كامبون في ايار سنة ١٩١٦

الرسالة الاولى } من مسيو . كامبون الى السير . غراي ٩ ايار ١٩١٦
١ — تميل فرنسا وبريطانيا العظمى الى الاعتراف بدولة
عربية مستقلة او حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الالف والباء كما هو مبين
في المصور (الخريطة) بامارة زعيم عربي وتقدمان لها الحماية . ويكون لفرنسا في
منطقة الالف وبريطانيا العظمى في منطقة الباء الحق الاول في عقد القروض وفي
التزام المشاريع المحلية . وتقدم فرنسا في منطقة الالف وبريطانيا العظمى في منطقة
الباء المستشارين الفنيين والاداريين حينما ترى الدولة العربية او الحلف العربي
ضرورة ذلك .

٢ — نفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء ان
تعملا فيهما على ما ترغبان فيه اي ان تديرهما مباشرة او غير مباشرة بالاشتراك مع العرب
وتأسيس دولة عربية او حلف من الدول العربية .

(١) رأينا اثبات هذه الوثائق التاريخية بنصوصها وان كنا اشرفنا اليها في من
التاريخ السياسي وذلك ليسهل الرجوع اليها .

٣— تدار المنطقة السمراء بإدارة دولية و يترك امر البت في تعيين شكلها الى ان تتم المفاوضات مع روسيا وسائر الحلفاء و مندو في شريف مكة

٤— تعطى بريطانيا العظمى : (اولاً) مرفأى حيفا وعكة . (ثانياً) كمية معينة من ماء نهري دجلة والفرات تؤخذ من منطقة الالف وتعطى لمنطقة الباء . وعلى حكومة جلالة الملك مقابل ذلك ان لا تفاوض في وقت من الاوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل ان توافق فرنسا على ذلك .

٥— تكون الاسكندرونة مرفأاً حراً للتجارة البريطانية ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الجمركية ، ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الاسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنها بالبحر او بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء . لافرق في ان تكون هذه البضائع وارداً من المنطقة الحمراء او صادرة اليها او خاصة لمنطقة الالف او الباء .

تكون حيفا مرفأاً حراً للتجارة الفرنسية وتجارة مستعمراتها وتجارة البلاد المشمولة بجماعتها ، ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الجمركية ، ويكون شحن البضائع منها واليهما مباحاً بالسكة الحديدية التي تمر بالمنطقة السمراء . لا فرق في ان تكون هذه البضائع وارداً او صادرة من المنطقة الزرقاء او من منطقة الالف او الباء .

٦— لا تمد سكة حديد بغداد بمنطقة الالف جنوباً الى ما وراء الموصل ولا بمنطقة الباء شمالاً الى ما وراء سامرا قبل ان يتم انشاء السكة الحديدية بين حلب وبغداد عن طريق وادي الزرات وقبل ان يوافق الفريقان على ذلك التمديد .

٧— يحق لبريطانيا العظمى وحدها ان ننشي وتدبر وتمتلك خطاً حديدياً يبتدي من حيفا وينتهي بمنطقة الباء ، ولها الحق ايضاً ان تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط الحديدي متى شاءت ، ومن المعلوم عند الحكومتين ان هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فاذا تعذر مده فنياً في المنطقة السمراء واقتضى الامر لمروره بغيرها لسمح فرنسا بذلك .

٨— تبقى تعرفه المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقاً لمدة عشرين سنة في

المنطقة الحمراء والزرقاء والالف والباء ولا يصير فيها تغيير او تبديل الا بمعرفة الفريقين وموافقتهما .

لا توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة اعلاه ، بل تحصل تلك الرسوم بحسب الاصول في المرفأ الذي ترد اليه البضائع وتسلم بعد ذلك الى الادارة الداخلية التي تخصها تلك البضائع .

٩ — من البديهي ان فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الاوقات بشأن النازل عن مالها من الحقوق في المنطقة الزرقاء ولا تنقل عن هذه الحقوق الا الى الحكومة العربية او الحكومات العربية المتحدة قبل ان توافق حكومة جلالة الملك على ذلك . وعلى حكومة جلالته ان تعمل بموجب هذه الشروط بالمنطقة الحمراء .

١٠ — يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية الحاميتين للدولة العربية ان لا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك ملكاً ما في اراضي شبه جزيرة العرب ولا تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة الى شرق ساحل البحر الاحمر ، وهذا لا يمنع ان تعدل الحكومة البريطانية جبهة عدن بمقتضى الاصول الفنية والاحوال الخاصة بعد ان ثبتت ضرورة ذلك على اثر التعدي التركي .

١١ — تجرى المفاوضات مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية والدول العربية المتحدة كما في السابق باسم الدولتين

١٢ — من المعلوم ان مراقبة توريد الاسلحة الى البلاد العربية منوط بالدولتين .

من مسيو ا . كامبون الى السر ا . غراي في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ قبل ان تجاوب نغامتكم على رسالتنا في تاريخ ٩ ايار سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية ابديةم رغبتكم في اضافة بعض التأكيدات للحفاظ على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي ستصبح فرنسوية وفي المناطق التي ستسود فيها الادارة الفرنسية ، فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك ان توافق ايضاً على نفس الشروط في المناطق الداخلة في دائرتها .

ولي الشرف ان اعلم بغماتكم ان الحكومة الفرنسية مستعدة ان تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي كانت تتمتع بها قبل الحرب في المناطق التي ستعطي لها (اي لفرنسا) او المناطق التي ستشمل بعنايتها ، اما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والفنية فستبقى كما في الماضي ، ومن المعلوم ان هذه الامتيازات لاتعني بقاء الامتيازات الاجنبية والامتيازات القضائية .

من السر ٠١ غراي الى المسيو ٠١ كامبون في ١٦ ايار
سنة ١٩١٦ يوافق على نص المعاهدة كما جاءت في كتاب
الرسالة الثالثة }
المسيو ٠١ كامبون في تاريخ ٩ ايار سنة ١٩١٦



نسخة مختصرة
عن دستور فلسطين الرسمي

ينص هذا النظام على تعيين رَجُل صالح لإدارة حكومة فلسطين يعرف بالمندوب السامي والقائد العام ، ويخوله السلطة اللازمة لتنفيذ جميع الواجبات المنقرنة بوظيفته ، وتطبيق شروط الانتداب الذي منحه دول الحلفاء السامية الى بريطانيا العظمى ، وتأسيس وطن قومي لليهود .

ويمنح المندوب السامي السلطة لتقسيم البلاد بموافقة الوزير الى مقاطعات او اجزاء ادازية على اسلوب ملائم لاعمال الادارة ، وخول جميع الحقوق للتصرف بالاراضي العامة او بما له علاقة فيها ، وبجميع الحقوق لاستثمار المناجم والمعادن على اختلاف انواعها واعطاء امتيازات شرعية لاي كان لاستخراجها ، وله الحق أن يهب الاراضي العامة والمعادن والمناجم ، ويؤجرها او يسمح باستثمارها مؤقتاً بالشروط التي يرتئها ، وله الحق في تعيين موظفي الحكومة بعد مراعاة اوامر الوزير بالاحوال التي يراها مناسبة ، وان يعين واجباتهم و يبقى هؤلاء الموظفون في مراكزهم ما دام المندوب السامي راضياً عن اعمالهم .

ويؤلف مجلس تنفيذي لمساعدة المندوب السامي على الطريقة التي تشير بها حكومة جلالة الملك .

ويؤلف اعتباراً من التاريخ الذي يعينه المندوب السامي مجلساً تشريعياً لفلسطين يستعاض به عن المجلس الاستشاري ويكون له السلطة التامة لسن القوانين الضرورية للحفاظ على الامن والسلام ، وانتظام الحكومة بشرط ان لا يخالف التعليقات المعطاة من حكومة جلالة الملك ، وان لا يسن قانوناً يمس الحرية الشخصية او يقيد الحرية الدينية او يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنسية او الديانة او اللغة او يخالف نظام الانتداب الموضوع لفلسطين .

لانفذ القوانين التي يسنها هذا المجلس قبل ان يصادق عليها المندوب السامي وتقرها حكومة جلالة الملك .

يحتفظ المندوب السامي بالقوانين التي اجازها المجلس التشريعي لموافقة جلالاته عليها
 ويحتفظ ايضاً بالامور التي لها مساس بنظام الانتخاب .
 ويحتفظ جلالة الملك لنفسه بحق رفض اي قانون قديكون المندوب السامي وافق
 عليه في خلال سنة واحدة من تاريخ الموافقة عليه و يعلن رفضه اياه بواسطة كاتب السر العام .
 يؤلف المجلس التشريعي من ٢٢ عضواً عدا المندوب السامي منهم عشرة اعضاء
 من الموظفين واثنا عشر من غير الموظفين ، وينتخب الغير موظفين بموجب الاوامر التي
 تصدر من مجلس الملك الخاص ، او بموجب ما يوضع من القوانين والانظمة من حين الى
 آخر بشأن هذه الانتخابات ، ويكون الاعضاء الموظفون الاشخاص الذين يشغلون
 وظائف كاتب السر العام والنائب العام ومدير المالية ومفتش الشرطة والسجون ومدير
 الصحة ومدير الاشغال العامة ومدير المعارف ومدير الزراعة ومدير الكمارك ومدير
 التجارة والصناعة .

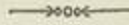
المحاكم الملكية والشرعية

تؤلف محاكم صلح في كل قضاء وناحية ويكون لها السلطة الخاصة بقانون حكام
 الصلح العثماني كما هو معدل بموجب القوانين والانظمة السارية الفعل الآن .
 وتؤلف محاكم مركزية في الاقضية التي يعينها المندوب السامي ولها الحق في رؤية
 جميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح في ذلك القضاء والحق في رؤية
 جميع القضايا الجنائية الخارجة عن وظيفة محكمة الجنايات .
 وتؤلف محكمة جنابات لها السلطة التامة في رؤية الجرائم المعاقب عليها بالقتل والجرائم
 الاخرى التي ينص عليها القانون الخاص .
 وللمندوب السامي ان يؤلف بامر منه محاكم اراض كما دعت الحاجة الى ذلك
 للنظر في المسائل المتعلقة بملكية الاموال الغير المنقولة .
 وتؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا وتعين صورة تأليفها بقانون خاص ويكون لها
 صفة المحاكم الاستئنافية .
 وللمحاكم الشرعية الاسلامية وحدها الحق في رؤية الدعاوي المتعلقة في الاحوال

الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية الخ . ولحاكم الطائفة اليهودية الدينية وحدها ان ننظر في استماع الدعاوي المتعلقة بالاحوال الشخصية ولحاكم الطوائف المسيحية المختلفة وحدها ان ترى مسائل الزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية وننظر فيما يتعلق بالاقواق الخ .

اذا شملت قضية تتعلق بالاحوال الشخصية أشخاصاً من طوائف دينية مختلفة يجوز لاي خصم ان يقدم طلباً الى قاضي القضاة وهذا يعين بمساعدة مستشارين من الطوائف المختلفة المحكمة التي لها السلطة في استماع تلك القضية .

واذا قامت شبهة حول قضية من القضايا الشخصية الداخلة في اختصاص محكمة دينية تحال القضية الى محكمة خاصة يعين شكلها بقانون خاص .

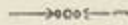


بعض مواد عامة

يجب ان تنشر باللغة الانكليزية وبالعربية وبالعبرية جميع القوانين والاعلانات الرسمية والنماذج التي تصدرها الحكومة وجميع الاعلانات الرسمية التي تعلنها السلطات المحلية والبلديات في المناطق التي يعينها المندوب السامي بامر منه . ويجوز استعمال اللغات الثلاث في المباحثات والمناقشات التي تدور في المجلس التشريعي وفي دوائر الحكومة ومحاكمها مع مراعاة الانظمة التي تسن من وقت الى آخر .

يحق لجميع سكان فلسطين ان يتمتعوا بالحرية الشخصية التامة والحرية الدينية المطلقة مع مراعاة حفظ النظام العام والآداب العامة ويحق لكل طائفة دينية معترف بها من الحكومة ان تتمتع بالاستقلال الذاتي لادارة شؤونها الداخلية بعد مراعاة نصوص كل قانون وامر يصدره المندوب السامي .

اذا رأيت طائفة دينية او فريق كبير من اهالي فلسطين است شروط الانتداب لانفذها حكومة فلسطين كما يجب ، فلها الحق في رفع مذكرة بواسطة عضو في المجلس التشريعي الى المندوب السامي فينظر في هذه المذكرة على الطريقة التي يعينها جلالة الملك وفقاً للاصول التي وضعها مجلس عصبة الامم .



المعاهدة البريطانية الفرنسية

المنعقدة في ٢٣ كانون الاول سنة (١٩٢٠) التي تبحث في بعض الشؤون المهمة مما له علاقة بالانتداب على سورية ولبنان وفلسطين والعراق انابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية الوزيرين المفوضين الواضحين اسميها ادناه ليحلا جميع الامور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق وفرنسا على سورية ولبنان في المجلس الاعلى الذي اجتمع في سان ريمو وقد اتفقتا على الشروط الآتية :

١ - - تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الفرنسي اي سورية ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني اي فلسطين والعراق كما يلي :

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر الى حدود ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوي ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي شملها الانتداب الفرنسي فيترك فيها جميع الاراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بألوكال ويمتد باستقامة الى امتار جنوب جبل الدرروز ومن هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمح الواقعة على بحيرة طبرية سائراً الى جنوب خط السكة الحديدية وموازيًا له . وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي شملها الانتداب الفرنسي وبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الامكان ان يمتد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الاراضي المشمولة بالانتداب البريطاني وستوضع الخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفر يقين المتعاقدين الساميين ان يبيننا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية لئتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحرية ومن الغرب يسير الخط من سمخ ماراً داخل بحيرة طبرية فاؤل وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا ، الى نبعه ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبتاياس بانمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسية لغاية بتاياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية ، وسيوضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة

يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع اطراف البلاد المشمولة بالانتداب الافرنسي كصور وصيدا والمناطق الواقعة الى الغرب والى الشرق من بانياس .

ونفصل التخوم بالمطلة بفرق المياه في وادي الاردن وحوض نهر الليطاني وتسير جنوباً مع وادي الاردن فوادي فرع ووادي كركرة اللذين يبقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليلانة ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الافرنسية ويصل الحد الى شاطيء البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة التي تظل في المنطقة الافرنسية .

٢- — تولى بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة اشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الافرنسي والمناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بينها في المادة الاولى وتتألف هذه البعثة من اربعة اعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية اثنين منهم وتعين الاثنين الآخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين .

اذا وقع خلاف بين اعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الامم ويكون قرارها فيه قطعياً .

تقدم بتقرير البعثة النهائية الحدود الثابتة التي عينت اخيراً وتربط معها المصورت الضرورية الموقع عليها من قبل اعضاء البعثة ، ويعمل ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورت تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الامم وتحفظ النسختين الاخر بين الحكومتان المنتدبتان .

٣- — توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الافرنسية المنتدبة لاجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لثلا يقلل ابرازها لحيز الفعل مياه دجلة والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني .

٤- — توافق الحكومة البريطانية بالنظر الى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة الى خليج الاسكندرونه على ان لانفاوض احداً بخصوص التنازل عنها او تسليمه اياها قبلما توافق فرنسا على ذلك .

٥- ا : توافق الحكومة الافرنسية على وضع ترتيب حر بين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالاً مشتركاً .

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه ادارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي باسرع ما يمكن اي بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لادارة السكة الحديدية البريطانية ان تسير قطاراتها ذهاباً واياباً بين هاتين المنطقتين وفقاً لمصالحها ، ونقل البضائع التجارية الى المنطقة المشمولة بالانتداب الافرنسي بواسطتها ، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والادارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية ، اما اذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة اشهر من تنفيذ الانتداب بين الادارتين المذكورتين اعلاه فستعين جمعية الامم حكماً بفصل الخلاف وعندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضى الطرفين .
يحمل بموجب هذه الاتفاقية الى اجل غير مسمى وتصحح احياناً بمقتضى الاحوال .
ب : يمكن للحكومة البريطانية ان تمد خطاً من الانابيب الحديدية بجانب السكة الحديدية ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائماً .

ت : توافق الحكومة الافرنسية على تعيين بعثة خاصة تدرس الاراضي ، وبعد درسها اياها تعين الحدود في وادي اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية يمكن معها بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الانابيب التي توصل بين فلسطين وبين سكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطاني ، وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الاراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي ، ويجب على بريطانيا العظمى احقاق حقها هذا ببرهة لا تتجاوز عشر سنوات .

تتألف البعثة التي ذكرناها اعلاه من عضو بريطاني وعضو افرنسي يضاف اليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فتبين هذا ان رأت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لزوماً لذلك .

ج : اذا اقتضى الامر لاسباب فنية ان يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الاماكن المشمولة بالانتداب الفرنسي توافق الحكومة الفرنسية على مرور هذا الخط بتلك المناطق وتقدم للحكومة البريطانية او لعمالها المساعدات اللازمة .

د : اذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة ان تمد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفيذ الحكومة الفرنسية الشروط التي اشترطتها على نفسها بالفقرة الاولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة اشهر من انشاء السكة .

هـ : توافق الحكومة الفرنسية على اتخاذ التدابير الفعالة لحل الحكومات المحلية المشمولة بالائتداب الفرنسي ان تصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية .

٦ - تم الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل اعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو .

٧ - لاتضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسية موانع في منطقتي ائتدابها لجميع الموظفين اللازمين لادارة خط السكة الحجازية او لاستخدامهم .

تتمتع جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي بمنطقة الائتداب البريطاني والافرنسي لثلاث اواخر اعمال هذا الخط .

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية عند اللزوم على ان تعقد اتفاقيات مع الحكومات المحلية خلاصتها استثناء جميع مهات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجركية عندما تمر باحدى مناطق الائتداب .

٨ - يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب مرور ستة اشهر من امضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص احوال مياه نهر الاردن الاعلى ونهر اليرموك وتوابعها لاستخدامها لاجل الري ولاجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للاراضي الواقعة تحت الائتداب الافرنسي .

تزود الحكومة الافرنسية الاخصائين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لتبني فلسطين المياه الزائدة خدمة لمتاعها العامة اذا لم يحصل الاتفاق المطلوب بنهاية هذا الدرس وتعرض المسألة على الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لتتدبر ساهما وتقرر فيها قراراً نهائياً .

تشارك ادارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الاعمال في دفع نفقات بناء الترع والخليجان والسدود والخزانات والاحواض والاقنية وخطوط الانابيب الحديدية الخ

وتشارك في جميع الاعمال التي من شأنها انبات الحراج ونشيط تربيتها .
 ٩ — توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية عملاً بنص المادة ٥ او المادة
 ١٦ من نظام الانتداب الفلسطيني وعملاً بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام
 الانتداب العراقي وعملاً بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبناني السوري وعملاً
 ايضاً بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص
 التربية والتعليم على السباح للمدارس التي تخص اناساً من التبعة الفرنسية او من التبعة
 ابريطانية على المشاورة في ادارة هذه المدارس في منطقتي انتدابها ، ويسمح بتعليم
 اللغة الافرنسية واللغة الانكليزية في هذه المدارس .
 لاتعني هذه المادة بحال من الاحوال منج رعايا احدى الدولتين المشار اليها حق
 فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الاخرى .

صك الانتداب الافرنسي

« على سورية ولبنان »

ان مجلس جمعية الامم :

لما كانت دول الحلفاء العظمى منفقة على ان اراضي سورية ولبنان التي كانت فيما مضى جزءاً من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعيينها الدول المشار اليها الى دولة مندوبة موكل اليها نصح الاهالي ومعاونتهم وارشادهم في ادارتهم وفقاً لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد قررت ان الانتداب على البلاد الآتية الذكر يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسية التي قبلته .

ولما كان نص هذا الانتداب المبين في المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية وعرض للتصديق على مجلس جمعية الأمم .

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية تُعهد باجراء هذا الانتداب باسم عصبة الأمم طبقاً للمواد المذكورة .

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآتية الذكر (الفقرة الثامنة) تقضي بانه اذا كانت درجة السلطة والمراقبة والادارة التي تجريها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقاً بين اعضاء جمعية الامم فالمجلس هو الذي ينظم ذلك .

يوضع نصوص الانتداب كما يلي موافقاً عليه :

أ - تضع الحكومة المنتدبة في برهة ثلاث سنوات اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستوراً نظامياً لسورية ولبنان .

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية وتراعى فيه حقوق عموم السكان القاطنة في هذه البلاد ومصالحهم . وستشرع الحكومة المنتدبة في إيجاد الوسائل التي من شأنها ان تسهل تقدم سورية ولبنان ورفقيهما حكومتين مستقلتين وتسيرهما بموجب روح هذا الصك الى ان يتم الشروع في تنفيذ ذلك الدستور .

ويجب على الدولة المنتدبة ان تنشط الاستقلال المحلي قدر ما تسمح به الاحوال .

٢- يمكن للحكومة المنتدبة ان تبقي جنودها في البلاد للدفاع عنها . وقد خوات حق تنظيم جند من المليس المحلي قصد المحافظة على الامن والدفاع عن البلاد كما تقتضيه الاحوال وذلك لحين تنفيذ الدستور واعادة الامن الى نصابه ، وتنظم جنود المليس المحلي من سكان البلاد فقط .

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالادارات المحلية تحت اشراف الدولة المنتدبة ولا يجوز استخدامها لاغراض أخرى سوى الاغراض المعينة فيما تقدم الابعدموافقة الدولة المنتدبة . لامانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات القوات التي تضعها الدولة المنتدبة في البلاد .

يجوز للدولة المنتدبة في كل حين ان تستعمل المواني والخطوط الحديدية ووسائل النقل الموجودة في سورية ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمعدات والوقود اللازمة لها .

٣- يعهد الى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية ولبنان الخارجية ولها حق اصدار البراآت الى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الاجنبية ، وتشمل الدول المنتدبة بجمايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه البلاد .

٤- الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن اي جزء من اجزاء سورية ولبنان وعن عدم تأجيرها او وضعه تحت تسلط دولة اجنبية .

٥- ان اعفاء الاجانب من الامور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الاجنبية وبقضاء القنصلات والحماية التي كانوا يتمتعون بها ايام الدولة العثمانية لا تنطبق في سورية ولبنان غير ان المحاكم الاجنبية تداوم على القيام بوظائفها الى ان يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة .

ان الدول التي كان اتباعها يتمتعون بالامتيازات الاجنبية المبينة اعلاه اول آب سنة ١٩١٤ والتي لم تتنازل عن هذه الامتيازات او توافق على عدم تطبيقها لاجل محدود ، ستمنح ثانية جميع هذه الامتيازات او بعضها بعد انقضاء امدالاتها بالصورة التي يتم عليها الاتفاق بين الدول ذات الشأن .

- ٦ — تضع الحكومة المنتدبة في سورية ولبنان نظاماً قضائياً يصوت حقوق الوطنيين والاجانب على السواء .
- يحافظ على احوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية وخصوصاً ادارة الاوقاف التي تدار وفقاً للشريعة ولارادة الواقف .
- ٧ — تكون معاهدات تسليم الرعايا الاجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الاجنبية مرعية في سورية ولبنان الى ان يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن .
- ٨ — تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير وحرية القيام بجميع شعائر العبادة التي لا تخل بالامن ولا بالآداب العامة ولا يكون تمييز من اي نوع بين سكان سورية ولبنان بسبب الجنس او الدين او اللغة .
- تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام و يكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية . لا تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم ابنائها بلغتها . متى كان ذلك مطابقاً لقانون التعليم العام الذي تعينه الحكومة .
- ٩ — تختص الحكومة المنتدبة بالتدخل في اعمال المجالس الادارية وفي ادارة الطوائف الدينية وفي ادارة المعابد المقدسة التي تخص احدى الطوائف وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد .
- ١٠ — تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سورية ولبنان لاجل محافظتهم على الامن وعلى الحكم بطريقة مرضية . ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيد اعضاءها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج اعمالهم عن اصول الدين .
- يمكن لهذه البعثات الدينية ان تشتغل بامور الاسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة او الحكومة المحلية .
- ١١ — يجب على الحكومة المنتدبة ان لا تميز بالمعاملة في سورية ولبنان بين اتباعها وبين اتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الامم ، وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الاجنبية على اختلافها ، وان لا تميز ايضاً بين اتباع اي دولة اجنبية وبين اتباعها في الامور التي لها اساس بالضرائب والتجارة والملاحة وتعاطي الحرف

والمهين او في معاملة السفن البحرية او الوسائط الهوائية وكذلك يجب ان لا يكون تمييز في سورية ولبنان بين البضائع التي يكون مصدرها او محط رحلتها بلاد تلك الدول المذكورة ويجب اطلاق حرية المرور التجارية في عبر المنطقة المشار اليها بشروط عادلة .

يمكن للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر اعلاه ان تفرض الضرائب والرسوم الجمرية التي تراها ضرورية او ان توغر للحكومات المحلية ان تفرضها ، ويمكن للدولة المنتدبة او للدول المحلية التابعة لمشورتها ان تعقد لاسباب جوارية انفاقاً جمرية خاصة مع البلاد المتاخمة لها .

ويمكن للحكومة المنتدبة عملاً بشروط البند الاول من هذه المادة ان تتخذ الوسائل الفعالة التي تمتد صلاحها لترقية موارد البلاد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان .
تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون تمييز في تابعة الاشخاص الداخلة دولهم في عداد اعضاء جمعية الامم بشرط ان لا تمس هذه الامتيازات بسلطة الحكومة المحلية ، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام . لا تمس هذه الفقرة بتحديد سلطة الدولة المنتدبة في ايجاد الاحتكارات المالية التي من شأنها ان ترقى مصالح سورية ولبنان وتحفظ مواردهما المالية والمحلية ، ويمكن للحكومة ان تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة او بواسطة شركة خاصة تعمل تحت اشرافها بشرط ان لا يوجد هذا العمل لاعتماداً ولا بواسطة احتكاراً خاصاً بالدولة المنتدبة او برعاياها ، او يمنحها ميزة في الامور الاقتصادية والتجارية والصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع .

١٢ — تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية ولبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن او ربما يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الامم بخصوص الاتجار بالرفيق ، وبالعقاقير ، وبالسلاح ، والمعدات الحربية ، وبالمساواة التجارية ، وحرية العبور ، والملاحة ، والطيران ، والمواصلات البرية والهوائية واللاسلكية ، وباتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع والآداب والفنون .

١٣ — تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الاحوال الاجتماعية والدينية اتحاد

سورية ولبنان في الأمور ذات الفوائد العامة التي تقرها جمعية الأمم لمنع الأمراض ومقاومتها وفي حملتها أمراض الحيوان والنبات .

١٤ — نضع الدولة المنتدبة وننفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالأثار والعهديات ينطبق على الأحكام الآتية ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والنقبيات الأثرية . (١) يجب أن يفهم من لفظة «العهديات» كل مانع عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ (٢) أن التشريع لحماية العهديات يجب أن يكون اجدر بالتشجيع منه بالتهديد ويجب على كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة أن يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه وينال مكافأة مناسبة مع قيمة ما اكتشفه (٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العهديات إلا لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن استمواده . ولا يمكن اخراج شيء من العهديات من البلاد إلا بأذن تلك السلطة (٤) كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العهديات تعمداً أو اهمالاً يجب أن يجازى جزاء معيناً . (٥) ممنوع كل حفر أو تنقيب لايجاد العهديات إلا بأذن من السلطة ذات الشأن والاغرم المخالف غرامة مالية . (٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتاً أو دائماً في الأراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية . (٧) لا تعطى الرخصة باجراء الحفريات إلا للأشخاص يتدمون أدلة كافية على اختبارهم الأثري . وعلى الدولة المنتدبة عند اعطاء هذه الرخص أن لا تستثني علماء أمة ما . (٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجرؤه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي . فإذا تعذر الاقتسام لأسباب عملية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

١٥ — عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عنه في المادة الأولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي انفقتها الحكومة المنتدبة لأجل تنظيم الإدارة وترقية الموارد المحلية والقيام بالمشاريع العامة التي افادت البلاد افادة خاصة وترسل نسخة عن هذه الترايب إلى مجلس جمعية الأمم .

- ١٦ — تكون اللغة الافرنسية واللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين في سورية ولبنان .
- ١٧ — تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتها اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب ويرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والانظمة التي تسن سنوياً .
- ١٨ — يجب ان يوافق مجلس جمعية الامم على كل تعديل يحصل في شروط هذا الصك .
- ١٩ — يستعمل مجلس جمعية الامم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب للحفاظ حكومة سورية ولبنان في المستقبل على علاقاتها المالية ومنها الرواتب القانونية التي منحتها ادارة سورية ولبنان ايام الانتداب .
- ٢٠ — توافق الدولة المنتدبة اذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخله في عضوية جمعية الامم بخصوص تفسير شروط صك الانتداب او تطبيقها على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشرة من مواد عهد جمعية الامم هذا اذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بواسطة المفاوضات .



صك الانتداب

« على فلسطين »

لما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد اتفقت — تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من عهد جمعية الامم — على ان تعهد الى دولة مندوبة تختارها الدول المذكورة في ادارة شؤون فلسطين التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التي تعينها الدول المذكورة .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد وافقت ايضاً على ان تكون الدولة المندوبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وصادقت عليه الدول المذكورة بان ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي مع البيان الخلي بان لا يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى .

ولما كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين والبواعث التي تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد .
ولما كانت دول الحلفاء اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المندوبة لفلسطين .
ولما كان الانتداب لفلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعرض على مجلس جمعية الامم لموافقته عليه .

ولما كانت الحكومة البريطانية قد قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جمعية الامم طبقاً للنصوص والشروط التالية .

ولما كانت المادة ٢٢ المتقدمة الذكر (في الفقرة ٨) تنص على ان درجة السلطة والسيطرة او الادارة التي تكون للدولة المندوبة اذا لم يتم الاتفاق عليها بين اعضاء جمعية الامم فان مجلس جمعية الامم ينص على ذلك نصاً صريحاً . فالجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يأتي :

- ١ — يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والادارة الاحيث أُقيمت لها حدود في نصوص صك الانتداب هذا .
- ٢ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في ديباجة هذا الصك وترقية أنظمة الحكم الذاتي وذيان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الاجناس والاديان .
- ٣ — يجب على الدولة المنتدبة ان ننشط الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الاحوال
- ٤ — يعترف «بهيئة» يهودية صالحة (لائقة) كهيئة عمومية لتشير وتعاون في ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين وتساعد وتشارك في ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائماً .
- ويعترف بان الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها في ما تقدم مادامت الدولة المنتدبة ترى ان نظامها وتاليها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض . وعلى الجمعية الصهيونية ان تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في انشاء الوطن القومي اليهودي .
- ٥ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن شي من اراضي فلسطين أو تأجيرها او وضعه تحت حكومة دولة اجنبية .
- ٦ — على حكومة فلسطين مع كفالة عدم الحاق الضرر بحقوق جميع طوائف الاهالي ان تسهل هجرة اليهود (الى فلسطين) في احوال مناسبة وننشط بالانفاق مع الهيئة اليهودية المشار اليها في المادة ٤ استقرار اليهود في الاراضي الزراعية وفي جملتها الاراضي المدورة والاراضي البور (الموات) غير المطلوبة للاعمال العمومية .
- ٧ — يتعين على حكومة فلسطين ان تسن قانوناً للجنسية يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعية الفلسطينية
- ٨ — ان امتيازات الاجانب وفي جملتها الحاكم القنصلية وحماية القنصليات ورعاياها وهي التي كان الاجانب يتمتعون بها بحكم الامتيازات او العرف في السلطنة العثمانية

لانكون نافذة في فلسطين ولكن متى انتهى اجل الاندباب فان هذه الامتيازات تعاد بروتها او مع التعديل الذي يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن الا اذا كانت الدول التي ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في اول آب ١٩١٤ قد سبقت فننازلت عن حق رد تلك الامتيازات او وافقت على عدم تطبيقها لاجل مسمى .

٩ — الدولة المنتدبة مسؤولة عن ان يكفل النظام القضائي الذي ينشأ في فلسطين الحقوق القضائية للاجانب والوطنيين ويضمن تمام الضمان احترام الاحوال الشخصية والمصالح الدينية لجميع الشعوب والطوائف ولا سيما ادارة الاوقاف طبقاً للشريعة الدينية وشروط الواقفين .

١٠ — تكون المعاهدة المبرمة بين الدولة المنتدبة وسائر الدول الاجنبية عن تسليم الرعايا الاجانب المطلوبين من فلسطين مرعية الى ان تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين .

١١ — تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور في ماله علاقة بترقية البلاد و يكون لها السلطة التامة لتدبير ما يلزم لوضع يد الحكومة او سيطرتها على مورد ما من موارد البلاد الطبيعية او الاعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة او التي ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التي قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها . وعليها ايضاً ان توجد نظاماً للاراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة امور اخرى منها المنافع التي تنجم عن تشجيع اكثار المهاجرة واستغلال اعظم ما يستطاع من الارض .

ويجوز لادارة البلاد ان تئفق مع الهيئة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على ان تجري او تستثمر بشروط الانصاف والعدل الاعمال والمصالح والمنافع العمومية وترقي مرافق البلاد الطبيعية حيث لا تتولى الحكومة هذه الامور مباشرة بنفسها . وانما يشترط في هذه الاتفاقات ان الارباح التي توزعها الهيئة القائمة بالعمل لا تتجاوز مباشرة او غير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال . وكل ما يزيد على هذه الفائدة يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه حكومتها .

١٢ — يعهد الى الدولة المنتدبة في السيطرة على علاقات فلسطين الخارجية وحق

اصدار البراءات الى القناصل الذين تعينهم الدول الاجنبية وللدولة المنتدبة الحق ايضاً في ان تشمل رعايا فلسطين وهم في خارج بلادهم بحماية سفرائها وقناصلها .
 ١٣ — نقل الدولة المنتدبة كل التبعة المختصة بالامكان المقدسة والمباني والمواقع الدينية في فلسطين وهذا يشمل المحافظة على الحقوق الموجودة وضمن الوصول الى المواضع المقدسة والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات الامن العام والآداب وتكون الدولة المنتدبة مسؤولة امام جمعية الامم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك بشرط ان لا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة لازماً لتنفيذ نصوص هذه المادة وبشرط ان لا يفسر شي في هذا الانتداب تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض للاملاك الاسلامية او التدخل في ادارة المشاهد الاسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات .

١٤ — تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتعين الحقوق والدعاوي المتعلقة بالامكان المقدسة والحقوق والدعاوي التي تخص بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين ويعرض الاسلوب الذي يتبع في تعيين هذه اللجنة وناليفها ووظائفها على مجلس جمعية الامم ليوافق عليها ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها من غير موافقة المجلس .

١٥ — يجب على الدولة المنتدبة ان تحقق ان الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب فقط ويجب ان لا يكون هناك تمييز من اي نوع كان بين سكان فلسطين بسبب الجنس او الدين او اللغة وان لا يحرم شخص ما من دخول فلسطين بسبب اعتقاده الديني فقط . يجب ان لا تحرم اي طائفة كانت من حق المحافظة على مدارسها لتعليم ابناءها بلغتهم اذا كان ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الادارة (الحكومة) .

١٦ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن القيام بما تقتضيه المحافظة على النظام العام والحكم المنتظم من الاشراف على الهيئات الدينية والخيرية التي لجميع المذاهب في فلسطين فاذا روعي هذا الشرط لا يجوز ان تتخذ تدابير في فلسطين لاعاقبة اعمال مثل هذه الهيئات او التعرض لها او الاجحاف باي ممثل لها او عضو فيها بسبب دينه وجنسيته .
 ١٧ — يجوز لادارة (حكومة) فلسطين ان تنظم على قاعدة اختيارية القوات

اللازمة للحفاظ على السلم والنظام والدفاع عن البلاد أيضاً بشرط ان تكون تحت اشراف الدولة المنتدبة ولكن لا يجوز لادارة فلسطين استخدام هذه القوات لاغراض اخرى غير الاغراض المعينة في ما تقدم الا بموافقة الدولة المنتدبة وفي ما عدا هذه الاغراض لا يجوز لادارة فلسطين ان تجتمع قوات عسكرية او بحرية او جوية ولا ان تقيمها عندها .

وليس في هذه المادة ما يمنع ادارة فلسطين من الاشتراك في نفقات القوات التي تكون للدولة المنتدبة في فلسطين . ويحق للدولة المنتدبة في كل وقت ان تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية وموانئها لخرات القوات المسلحة ونقل الوقود والمهمات .
١٨ — يجب على الدولة المنتدبة ان تكفل عدم التحيز في فلسطين على رعايا اية دولة تكون عضواً في جمعية الامم (وسيتم جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) اذا قيسوا برعايا الدولة المنتدبة او اية دولة اجنبية كانت في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة او الملاحة او تعاطي الصنائع او المهن او في معاملة السفن التجارية او الطائرات الاهلية . وكذلك يجب ان لا يكون هناك تحيز في فلسطين ضد عروض يكون منشأوها في بلاد من بلدان الدول المذكورة او تكون مرسلتها اليها . وتطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المسمولة بالانتداب بشروط عادلة .

ومع مراعاة ما تقدم وسائر شروط صك الانتداب هذا يجوز لادارة فلسطين ان تفرض باشارة الدولة المنتدبة من الضرائب والرسوم الجمركية ما تراه ضرورياً وتتخذ من التدابير ما تظنه صالحاً لزيادة ترقية الموارد الطبيعية في البلاد وصون مصالح السكان ويجوز لها ان تعقد باشارة الدولة المنتدبة اتفاقاتاً جمركية خاصة مع اي دولة كانت املاها كلها داخلية في تركيا الاسيوية او شبه جزيرة العرب في سنة ١٩١٤

١٩ — تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن الادارة (ادارة فلسطين) على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المنعقدة حتى الآن او التي قد تعقد بموافقة جمعية الامم في ما بعد من جهة الاتجار بالرفيق والاتجار بالسلاح والسخيرة او الاتجار بالخدرات او تعلق بالمساواة التجارية وحرية المرور (الترانسيت) والملاحة والطيران و بالموصلات البريدية والبرقية واللاسلكية بالملكات الادبية والفنية والصناعية .

٢٠ - تعاون الحكومة المنتدبة بالنيابة عن ادارة فلسطين في تنفيذ كل سياسه مشتركة اقررها جمعية الامم لمنع انتشار الامراض وفي حملتها امراض النباتات والحيوانات ومكافحتها بقدر ما تسمح به الاحوال الدنيئة والاجتماعية وسواها من الاحوال .

٢١ - تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الاولى من تاريخ تنفيذ هذا الائداب قانوناً خاصاً بالأثار والعاديات ينطبق على الاحكام الآتية ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الامم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والنقبيات الاثرية :

(١) يجب ان يفهم من لفظة « العاديات » كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ .

(٢) ان التشريع لحماية العاديات يجب ان يكون اجدر بالتشجيع منه بالتهديد و يجب على كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة ان يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه و ينال مكافأة مناسبة مع قيمة ما اكتشفه .
(٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات الا لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن استخواذه . ولا يمكن اخراج شيء من العاديات من البلاد الا باذن تلك السلطة .

(٤) كل شخص يتلف او يثلم قطعة من العاديات تعمداً او اهمالاً يجب ان يجازى جزاءاً معيناً .

(٥) ممنوع كل حفر او انقيب لايجاد العاديات الا باذن من السلطة ذات الشأن والاّ غرم المخالف غرامة مالية .

(٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتاً أو دائماً في الاراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية .

(٧) لا تعطى الرخصة باجراء الحفريات الا لاشخاص يقدمون ادلة كافية على اختبارهم الاثري . وعلى الدولة المنتدبة عند اعطاء هذه الرخص ان لاتستثني علماء امة ما .

(٨) يمكن اقتسام محصول النقيب بين الاشخاص الذين اجرهه والسلطة ذات

الشأن بالنسبة التي تعينها هي . فاذا تعذر الاقسام لاسباب عملية يعطى للمكتشف
نعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

٢٢ — تكون الانكليزية والعربية والعبرانية اللغات الرسمية في فلسطين فكل
عبارة او كتابة بالعربية على طواع او عملة في فلسطين تكرر بالعبرانية وكل عبارة
او كتابة بالعبرانية تكرر بالعربية .

٢٣ — تعترف ادارة فلسطين بالايام المقدسة (الاعياد) عند كل طائفة من
طوائف فلسطين ايام راحة مشروعة لافراد تلك الطائفة .

٢٤ — تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً يرتاح اليه المجلس عن
التدابير التي اتخذت في اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب وترسل نسخ من جميع
الانظمة والقوانين التي تسن او تصدر في اثناء السنة مع التقرير .

٢٥ — يحق للدولة المنتدبة بسماع مجلس جمعية الامم ان تؤجل او توقف تطبيق
ما تراه من هذه الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة في الاملاك الواقعة
بين نهر الاردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الامر وان تضع من التدابير
لادارة هذه الاملاك ما تراه ملائماً لتلك الاحوال بشرط ان لا يعمل عمل يكون
مخالفاً لشروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢٦ — توافق الدولة المنتدبة على انه اذا وقع نزاع ما بينها (الدولة المنتدبة) وبين عضو
آخر في جمعية الامم يتعلق بتفسير شروط صك الانتداب او تطبيقها يمرض هذا النزاع
على المحكمة الدائمة للعدل الدولي المتصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية
الامم اذا لم يمكن حله بالمفاوضات .

٢٧ — يلزم موافقة مجلس جمعية الامم على كل تعديل في شروط صك
الانتداب هذا .

٢٨ — يتخذ مجلس جمعية الامم من التدابير في حالة انتهاء الانتداب الخول بموجب
هذا الصك للدولة المنتدبة ما يراه ضرورياً لصون استمرار الحقوق المكتسبة في المادتين
١٤ و ١٣ على الدوام بضمان الجمعية ويستخدم نفوذه لاث يكفل بضمان الجمعية احترام

حكومة فلسطين الاحترام التام للعهود المالية التي اخذتها ادارة فلسطين على عاتقها في عهد الانتداب وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في المعاش والمكافأة .
تودع الصورة الاصلية من هذا الصك في محفوظات جمعية الامم وترسل صور مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجمعية الامم الى جميع اعضاء الجمعية .



صك الانتداب

« على شرقي الاردن »

لامين سر جمعية الامم العام بخصوص تطبيق الانتداب الفلسطيني في شرق الاردن
في ٢٣ ايلول سنة ١٩٢٢

يحصل لامين سر جمعية الامم العام الشرف بعرض مذكرة الى اعضاء الجمعية
قدمتها الحكومة البريطانية في ١٦ ايلول سنة ١٩٢٢ بخصوص المادة ٢٥ من نظام
الانتداب الفلسطيني .

وقد صادق المجلس على هذه المذكرة بموجب قرار قرره اثناء انعقاده في لندن
في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ بمناسبة تطبيق الانتداب على فلسطين وسورية .

—••••—

« مذكرة العضو البريطاني »

١ — نصوص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني على ما يأتي :

يحق للدولة المنتدبة بساح جمعية الامم ان تؤجل او توقف تطبيق ماتراه من هذه
الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة في الاملاك الواقعة بين نهر الاردن
والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الامر وان تضع من التدابير لادارة هذه
الاملاك ماتراه ملائماً لتلك الاحوال بشرط ان لا يعمل عمل يكون مخالفاً لشروط المواد
١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢ — تطالب حكومة جلالة الملك من المجلس وفقاً لشروط هذه المادة ان يقرر
القرار الآتي :

لانطبق الشروط الآتية على نظام الانتداب الفلسطيني في القطر النروف بشرق
الاردن الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة الى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على
خليج العقبة على بعد ميلين الى غرب مدينة العقبة ماراً بنصف وادي عربة وبحر الميت
ونهر الاردن حتى النقطة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى
الحدود السورية .

وتلك الشروط الملقاة هي :

الشرح الثاني والثالث من الديباجة

المادة الثانية — في جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل

انشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في الديباجة .

المادتان — الرابعة والسادسة

المادة السابعة — بتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين

مقاماً دائماً لهم على الرعية الفلسطينية .

المادة الحادية عشرة — الجملة الثانية من الفقرة الاولى والفقرة الثانية . والمواد

١٣ و ١٤ و ٢٢ و ٢٣

وفي تطبيق نظام الانتداب على شرق الاردن تقوم حكومته بالاعمال التي تقوم بها

حكومة فلسطين في فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة .

٣ — تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التي تقع على عاتقها في تطبيق نظام الانتداب

على شرق الاردن وتتكفل بان الشروط التي توضع لادارة ذلك القطر وفقاً للمادة ٢٥ من

نظام الانتداب لانكون باية وسيلة غير مطابقة لبقية شروط نظام الانتداب التي لم تشر

إلى عدم تطبيقها في هذا القرار .



عهد انقرّة

الذي وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢١

المادة الاولى — يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان انه بعد التوقيع على هذا الوفاق تنتهي حالة الحرب بينهما و يتبلغ ذلك في الحال الى الجيوش والسلطات الملكية والسكان .

المادة الثانية — بعد التوقيع على هذا الوفاق يطلق سراخ اسرى الحرب من الطرفين ويعاد جميع الفرنسيين والأتراك المأسورين والمسجونين على نفقة الفريق الذي أسرهم الى اقرب مدينة تعين لذلك . وتتناول الاستفادة من هذه المادة جميع الاسرى والسجناء من الفريقين مهما كان وقت او محل سجنهم وتوقيفهم او اسرهم .

المادة الثالثة — بعد شهرين من التوقيع على هذا العهد على الاكثر تراجع الجيوش التركية الى الشمال والجيوش الفرنسية الى جنوب الخط المعين في المادة الثامنة .

المادة الرابعة — يجري الاخلاء والاستيلاء اللذان يتان خلال المدة المذكورة في المادة الثالثة على الكيفية التي تعين بالانفاق المشترك وذلك بواسطة لجنة مختلطة يعينها قواد الجند من الفريقين .

المادة الخامسة — يمنح الفريقان المتعاقدان العفو العام في الاصقاع التي تم الجلاء عنها وذلك بمجرد وضع اليد عليها .

المادة السادسة — تصرح حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا ان حقوق الاقليات التي جرى الاعتراف بها جهاراً في الميثاق الوطني سيوافق هو عليها على نفس الاساس الذي عقد في الوفاق المتعلق بهذا الشأن بين دول التحالف خصوصهم وبعض احلافهم .

المادة السابعة — تدار شؤون صقع الاسكندرونة ادارة خصوصية و يتمم السكان الاتراك في تلك الارحاء بجميع التسهيلات لترقية تهذبهم وتكون للغة التركية صفة لغة رسمية .

المادة الثامنة — يعين الخط المذكور في المادة الثالثة ويحدد كما يلي :

يتمدد خط التلحوم من نقطة يجري اختيارها في خليج الاسكندرونة في جنوب ناحية
بياس مباشرة وتجه الى ميدان اكبس (تبق محطة السكة الحديدية والناحية
منضمين الى سورية) .

ومن هنا ينحني نحو الجنوب الشرقي بحيث يترك لسورية مديرية مرسوى
وتركيا بلدة قارصايه مع مدينة كليس ثم يسير مع السكة الحديدية حتى محطة جوبان
بك ويسير مع خط بغداد ويبقى سطحه للاملاك التركية حتى نصيبين ومن هناك يتبع
الطريق القديم بين نصيبين وجزيرة ابن عمر حتى يبلغ نهر دجلة وتبقى لتركيا نصيبين
وجزيرة ابن عمر والطريق بينها ويكون للبلادين نفس الحقوق في الانتفاع من
هذا الطريق .

وتكون المحطات في شعبة جوبان بك ونصيبين ملكاً لتركيا كما انها جزء من سطح
السكة الحديدية .

وتتألف لجنة من مندوبي الفريقين في برهة شهر بعد التوقيع على هذا الوفاق
لتحديد الخط المذكور وتبدأ هذه اللجنة بعملها في تلك البرهة .

المادة التاسعة — يبق قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية
(وهو القبر المعروف باسم ترك مزارى) الواقع في قلعة جعبر مع كل ما يتعلق به ملكاً
لتركيا تستطيع ان تضع فيه حراساً وترفع العلم التركي .

المادة العاشرة — تقبل حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا بنقل امتياز فرع
السكة الحديدية البغدادية الواقع بين بوزانفي ونصيبين مع سائر الشعب الممتدة في ولاية
اذنة الى شركة افرنسية تعينها الحكومة مع جميع الحقوق والفوائد والمنافع المتعلقة
بالامتيازات ولا سيما فيما له علاقة بالاستثمار والاتجار .

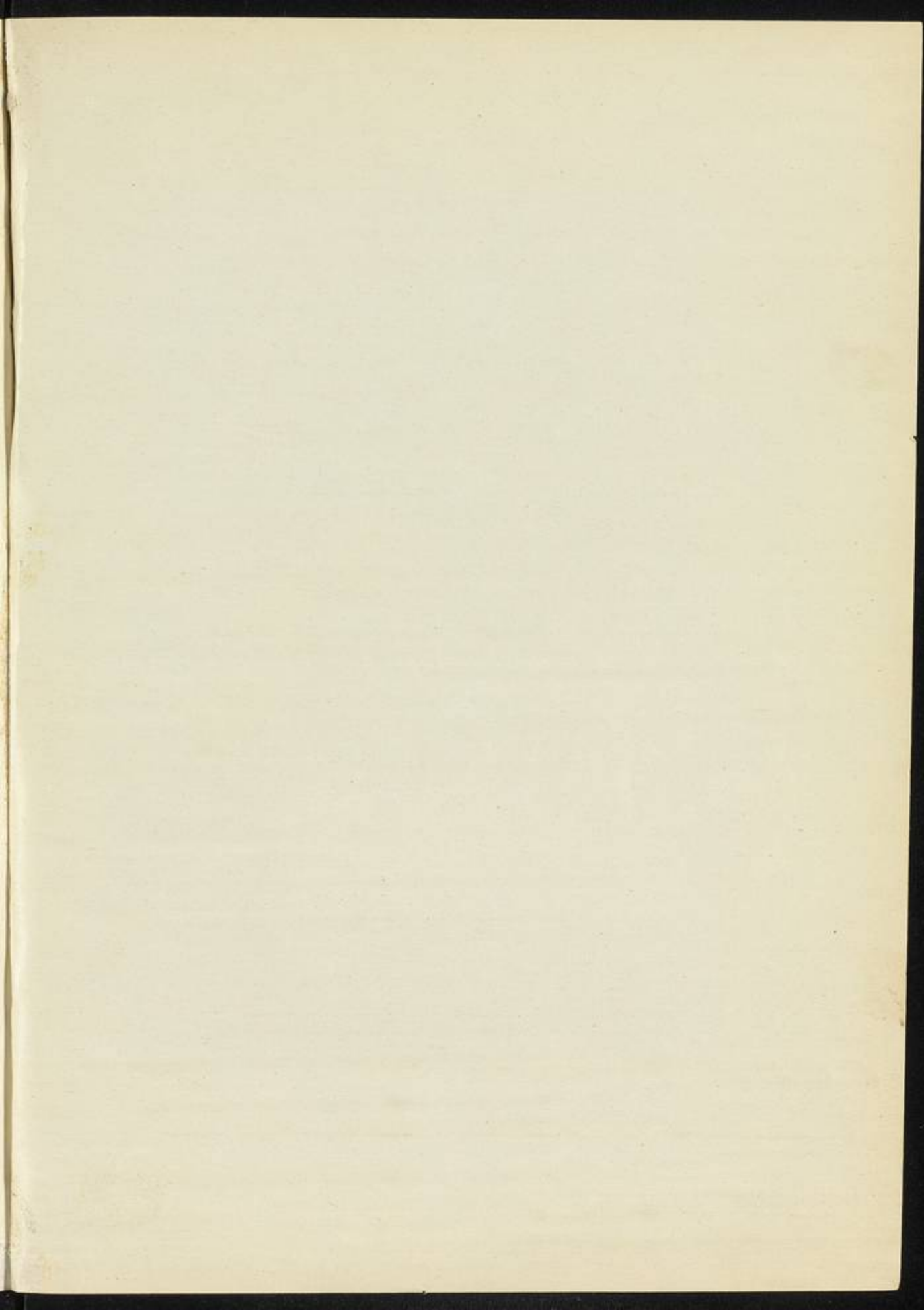
يحق لتركيا ان تنقل تقيدياتها العسكرية بالسكة الحديدية من ميدان اكبس الى
جوبان بك في ارض سورية ويحق لسورية ان تنقل مهامها الحربية بالسكة الحديدية
من جوبان بك الى نصيبين في الارض التركية . ولا تضاف زيادة عن اجور السكة
في هذه الشعبة او الفرع وتحفظ الحكومتان بحقوقها في درس ما تقضي به الضرورة
من الحياذ هذه القاعدة اذا اقتضت الحال وذلك باتفاق الفريقين .

وإذا لم يتسن الاتفاق يكون كل فريق حراً في عمل ما يراه .
 المادة الحادية عشرة — تؤلف لجنة مختلطة بعد التصديق على هذا العهد لتعقد
 اتفاقاً جمركياً بين تركيا وسورية وتحدد اللجنة شروط هذا الاتفاق ومدته ويكون
 للبلايين حق التمتع بحرية العمل ريثما يعقد هذا الوفاق .
 المادة الثانية عشرة — تقسم مياه نهر قويق بين مدينة حلب والصقع الواقع الى
 الشمال الباقي لتركيا فسمه عادلة يرضى بها الفريقان .
 ويتأني لمدينة حلب ان تأخذ على حسابها من نهر الفرات شطراً من المياه من الارض
 التركية لتستعملها في ارجائها .
 المادة الثالثة عشرة — يظل كما في السابق سكان القرى او نصف الرحالة من
 اهلها متمتعين بحقوقهم في المراعي اذا كان لهم املاك في احدى الجهتين من الخط المعين
 في المادة الاولى ويتيسر لهم لضرورة استثمار اراضيهم ان يعملوا احراراً ولا يؤدون رسماً
 جمركياً ولا ثمن المراعي ولا اي رسم كان وينقلون من جهة الى اخرى من هذا الخط
 مع مواشيهم وما يولد لها وادواتهم وآلاتهم وبذارهم وحاصلاتهم الزراعية لانهم مكلفون
 بان يؤدوا الحقوق والرسوم عليها في البلاد التي يسكنون فيها .

— مودة محمد —

انتهى الجزء الثالث وبه انتهى التاريخ السيامي في القطر الشامي وبليده الجزء
 الرابع وبه ينتهي تاريخه المدني





فهرس الجزء الثالث

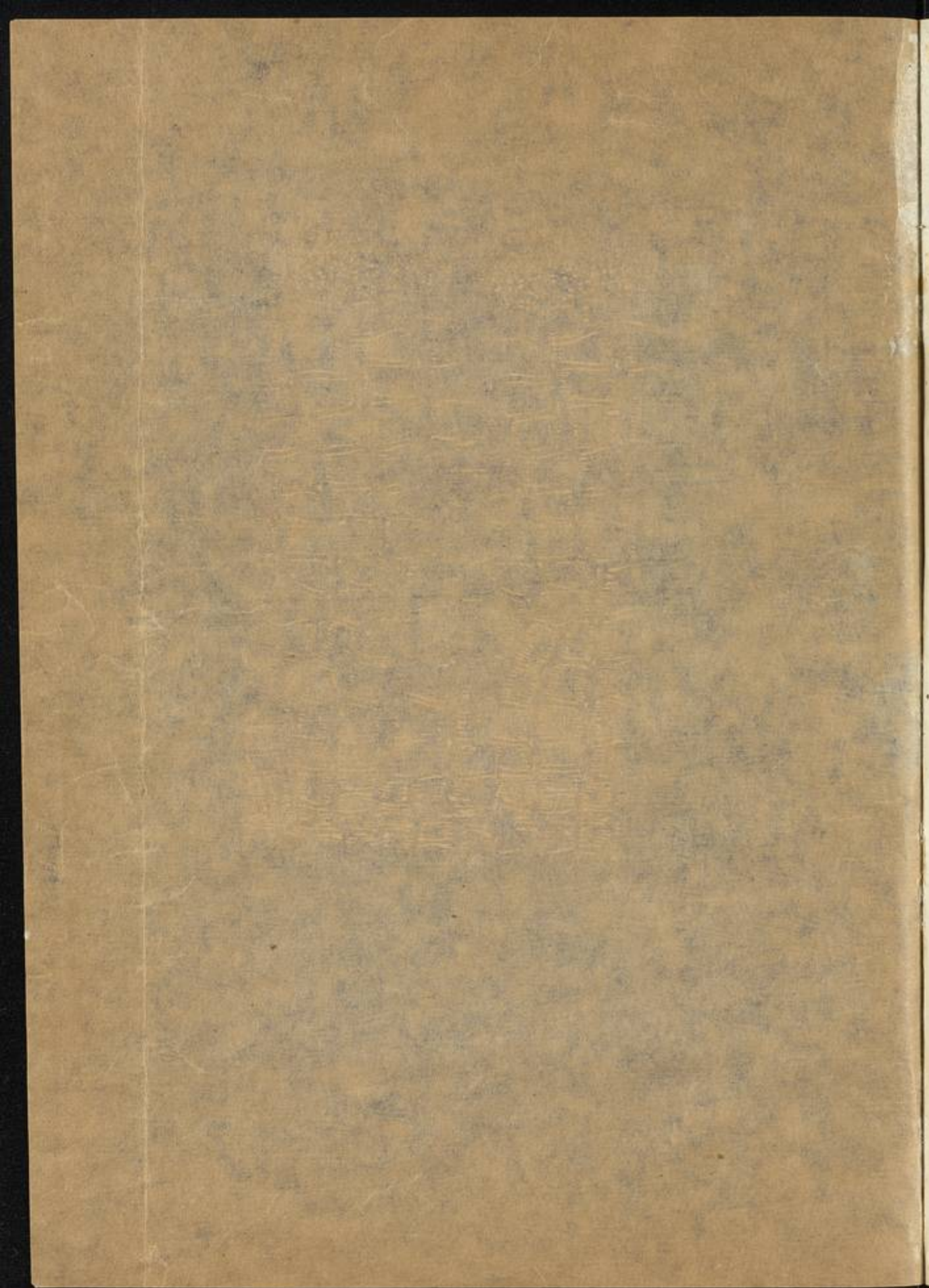
« من خطط الشام »

صفحة	صفحة
٣٥	٣ (العهد العثماني من سنة ١٢٠٠ الى
٣٦	١٢٤٧) — الجنداة الظلم والتدمير
٣٩	٥ حوادث الجزائر وفتن الانكشارية
	وغيرها
	٧ عهد سليم الثالث وفتن وكوائن
٤٠	٨ مظالم الجزائر واختلال الادارة
٤٣	١٢ محاولة نابوليون فتح الشام واستيلاؤه
٤٥	على غزوة ويافا
	١٣ وقائع نابوليون على عكا وفي مرج
	ابن عامر
	١٦ خطيبات نابوليون في الشام
٤٧	١٨ حال الشام بعد رحيل نابوليون عنه
٥٠	٢٠ مساوي احكام الجزائر
	٢١ نفنن الجزائر في امراق الدماء وحكم
٥٢	المؤرخين عليه
٥٥	٢٥ المنغلبة على الاحكام بعد الجزائر
	٢٨ قتل سليم الثالث ومصطفى الرابع
٥٧	وتولي محمود الثاني
٥٨	٢٩ فتنة كنج يوسف باشا
	٣٠ سليمان باشا وامراء راشيا وكوائن حلب
	لابراهيم

صفحة	صفحة
٩٣ من المسؤول عن هذه الفتنه الشعواء	٥٩ خطأ اداري لابراهيم باشا ووقائعه
٩٤ سوء اثر حوادث الشام في الدولة ومنازعة الدول لها في سلطانها	٦٣ في اللجاة ووادي التيم مع الدروز سياسة الاتراك والدول مع محمد علي
٩٧ (العهد العثماني من سنة ١٢٧٧ الى ١٣٠٠) — البلاد بعد فتنه سنة الستين	٦٤ انقراط عقد الحكم المصري ٦٦ فضل حكم محمد علي
٩٨ السلطان عبد الحميد وخلفه عبدالعزيز	٦٨ رأي الغرباء في حكومة محمد علي
١٠١ خلع السلطان عبدالعزيز وتولية مراد الخامس	٧٠ حكمتنا على انفسنا وعلى غيرنا
١٠٢ عهد السلطان عبد الحميد الثاني	٧٥ (العهد العثماني من سنة ١٢٥٦ الى ١٢٧٧) — من خروج المصريين الى مذابح لبنان ودمشق
١٠٤ انسيال الدروز على جبل حوران ووقائعهم	٧٧ فتن اهلية في الجبال والمدن
١٠٦ المصلح مدحت باشا وطبقته من العمال	٧٩ حرب القرية منشأوها في الشام وكوائن درزية ونصيرية
١٠٧ (العهد العثماني من سنة ١٣٠٠ الى سقوط عبد الحميد الثاني) — الحالة في مبداء القرن الرابع عشر واصلاح بلاد النصيرية والسبب في خرابها	٨١ مبداء مذابح النصارى المعروفة بحادثة سنة الستين وحادثة بيت مري ودير القمر
١٠٩ فتن درزية وفتن ارمنية	٨٢ مذابح حاصبيا وراشيا ورأي انكليز بين في اصل المذابح
١١٢ الحملات على جبل الدروز وعلى الكرك	٨٤ مذابح دمشق ورأي الغرب والوطني في تعليقها
١١٤ رأي في دلال الدروز والنصيرية على الدولة	٨٧ ضحايا مذابح دمشق ونخر بها
١١٧ (العهد العثماني من سنة ١٣٢٦ — ١٣٣٦) — الدستور العثماني وثورته	٩٠ عمل الدولة والدول عقبى الحوادث ٩١ عمل العقلاء في دمشق وبيروت ورأي مؤرخ منتصف في المسلمين

صفحة	صفحة
الدولة العثمانية	١١٩ إعادة الدستور وحال الدولة بعده
١٦٥ (العهد الحديث من سنة ١٣٣٦ —	١٢١ عبد الحميد وسياسته واخلاقه
١٣٤٣) — تجزئة الشام بين فرنسا	١٢٤ رأي مؤرخ تركي في عبد الحميد
وانكترا	وذكر حسناته
١٦٦ فتنه الارمن واعتداؤهم على العرب	١٢٧ الاحداث في ايام محمد رشاد وحرب
١٦٩ اعمال الحكومة العربية وحكومة	طرابلس والبلقان وحزب الاصلاح
الصيونيين	١٣٠ الصهيونية ومشأوها
١٧٢ المؤتمر السوري ومبايعته لفیصل	١٣٣ الحرب العامة والسياسة الالمانية
ملكاً على الشام	والاخلاق التركية
١٧٤ العصابات بين الساحل والداخل	١٣٥ قسط الشام من الحرب وعمل
١٧٦ اسنفتاء البلاد في الدولة التي	جمال باشا
تريد ان تدانها	١٣٧ اهلاك احرار الشام والسياسة
١٧٨ افكار الامير فيصل والعبث بالسياسة	الاتحادية مع العرب
١٧٩ حملة فرنسا على المدن الاربع	١٤٢ خلع شريف مكة طاعة العثمانيين
١٨٤ تعريف الانتداب وسياسة الاتراك	وتأثيره في الاتراك
فيما يتعلق بالشام .	١٤٤ اماني الاتراك وخببتهم وتحريرهم
١٨٦ تأثر الحورانيين بعوامل الفيصلين	١٤٧ الوقائع المهمة في فلسطين وسقوط
ومقتل وزيرين وقتل اليهود في	القدس وما اليها
فلسطين	١٤٩ عمل الجيش العربي
١٨٨ استقلال لبنان وحكومة العلويين	١٥٥ سقوط حوران ودمشق بيد
ومجلس فلسطين ودولة شرق الاردن	الجيش البريطانية
ودولة جبل الدروز وخراب البلاد	١٥٧ سقوط بيروت والساحل والهدنة
واقسيمها	١٦٠ سبب سقوط الشام بايدي الحلفاء
١٩٠ متاعب لبريطانيا وفرنسا واعتداء آت	١٦١ رأي مؤرخ تركي في انقراض

صفحة	صفحة
٢٣٥	١٩٢
التقسيم في عصر الصليبيين والماليك	توحيد حكومات سورية وعدم
٢٣٦	رضى الاهلين
على عهد العثمانيين	١٩٣
٢٣٧	صك الانتداب وموافقة الدول
تقاسيم فلسطين	الكبرى عليه واشكال جديدة
٢٣٧	من الادارة
تقاسيم الشرق العربي اي شرقي	١٩٦
الاردن	غزوة النجديين عبر الأردن
٢٣٨	واستيلاؤهم على مكة
دولة سورية	٢٠٠
٢٣٩	صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب
دولة جبل الدروز	الفلسطينيين والسوريين وكوائن
٢٣٩	٢٠٣
دولة لبنان الكبير	تاريخ الصهيونية وعملها الاخير
٢٤٠	٢١١
دولة العلويين	الايوضاع الصهيونية
٢٤١	٢١٣
(العقود والعهود الاخيرة)	الصهيونية في الحرب
الرسالة الاولى في اتفاقية سايبس	٢٢٢
بيكو	الصهيونية بعد الحرب
٢٤٣	٢٢٥
الرسالة الثانية	ثورتا القدس
٢٤٤	٢٢٥
الرسالة الثالثة	ثورة يافا
٢٤٥	٢٢٦
نسخة مختصرة عن دستور فلسطين	المهاجرة
الرسمي	٢٢٨
٢٤٨	ادارة المعارف
المعاهدة البريطانية الفرنسية	٢٢٩
٢٥٣	المصارف والصحف
صك الانتداب الافرنسي على	٢٢٩
سورية ولبنان	مشروع رولنبرغ
٢٥٩	٢٣٠
صك الانتداب على فلسطين	نظرة في نجاح الصهيونية
٢٦٧	٢٣١
صك الانتداب على شرقي الاردن	الخاتمة
٢٦٩	٢٣٣
عهد انقره	(التقاسيم الادارية الحديثة)
٢٣٣	تقاسيم القدماء قبل الاسلام
٢٣٤	اجناد الشام وتقسيم العرب



DUE DATE

SEP 30 1992

MAY 20 1993

MAY 05 1994

GLX SEP 30 1996

GLI/Rec MAY 21 1996

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

0022635009

956.9
K9654
v. 3

14824502

OCT 18 1957

